إعادة إنتاج الكُفْر

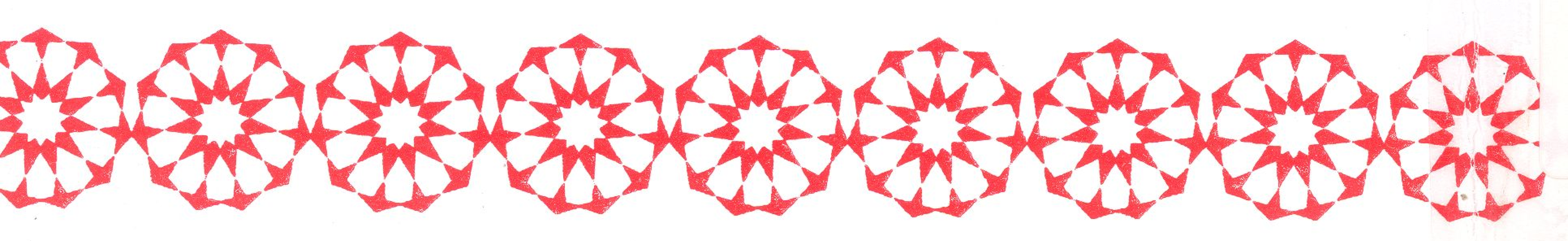
تقويم تجربة الملحد إسماعيل أدهم

(١٩١١م - ١٩٤٠م)

دكتور

محمد صلاح عبده محمد

١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م



إعـــادة إنتـــاج الكُفْـــر

تقويم تجربة الملحد إسماعيل أدهم

(١٩١١م – ١٩٤٠م)

الدكتـــور

محمـــد صـــلاح عبده محمد

١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلۡقَوۡمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمۡ كَانُواْ يَظۡلِمُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ صدق الله العظيم

سورة الأعراف الآيات ١٧٥: ١٧٧

مقدمـــة الكتـــاب

بسم الله الرحمن الرحيم "الحمد لله وكفى، وسـلام علـى عبـاده الـذين اصطفى"، وبعد...

فإن الموت له هيبته...

والأموات لهم حرمتهم.....

والقبور لها رهبتها......

وقد نهت شريعتنا الغراء عن نبش القبور، ورغم ذلك فقد قام نفر من بيننا حرص – كل الحرص– على ارتكاب هذه الجريمة النكراء، واقتراف هذا الذنب البشع، لا لشئ إلا القيام باستخراج جيفة منتنة، وبعث فكرة متعفنة.

ففى منتصف هذا العام ٢٠٠٧م قام هؤلاء النفر بإعـادة إنتـاج الكفـر، باستنساخه ونشره، والترويج له، ولم يجدوا بين أيديهم سوى وريقـات صـاغها الملحد المرتد إسماعيل أدهم (١٩١١– ١٩٤٠م) ذلكم التركى الأخـرق الـذى فتحت له مصر ذراعيها وضمته إلى صدرها، فكافأها بصنيعه اللئيم هذا حيـث نشر رسالته "لماذا أنا ملحد؟" فى عام ١٩٣٧م، وقد تصدى له الغيـورون علـى دينهم وبنى وطنهم، فقاموا بالرد عليه، وعلى رأسهم: أحمد زكى أبـو شـادي، ومحمد فريد وجدى، وماتت الفتنة فى مهدها، واندفنت من فورها بهلاك صاحبها منتحرا بعد ذلك بفترة وجيزة فى عام ١٩٤٠م.

ولا شك فى أن مصر الآن تعيش فى مناخ من الحرية غير مسبوق، وفى ظله لم يجد هؤلاء الشواذ ما يقدمونه لوطنهم سوى الكفر والكفران، الكفر بـالله عز وجل، والكفران بالوطن، والانطلاق بحرية غير مسئولة ليس لها إلا معنـى واحداً هو الانفلات، وهو ما يشكل أبشع صورة من صور استغلال هذا المنـاخ الصحى الآمن، فى محاولة شبيهة بما كانت عليه مصر فى حقبـة السـتينيات – عقد النكسة– حيث كان المد الشيوعى على أشده حربا للدين وملاحقـة لأهلـه، بالانتصار للمذهب الشيوعى، والترويج له، والتمكين لأصحابه بتيسير اعـتلائهم منابر توجيه الرأى العام فى وسائل الإعلام.

ويريد أذنابهم – اليوم– إعادة بعث هذه الفترة النكدة بمحاولة نفخ الحياة فى خطابها المحتضر؛ ولهذا رأينا عدائية للدين، وعدوانا على أهله، وتعددت المناهج وتنوعت الأساليب، فتارة نقرأ تطاولا على الذات الإلهية، وأخرى نقرأ هجوما على السنة النبوية، وثالثة نطالع تطاولا على رموز المؤسسات الدينية الرسمية، ورابعة... وخامسة... ولا ينتهى الهجوم أبدا، بل تتزايد الوجوه المعادية، وتتساقط الأقنعة البالية.

ومما ساعد على النفخ فى النار شيوع فتاوى لم يكن المناخ مناسبا لها مثل: رضاع الكبير، أو شرب بول النبى ﷺ.

ولست ممن يخافون على الإسلام، أو ترتعد فرائصهم كلما تعرض لهجوم من أى نوع، ورغم ذلك فإننى فى شدة الخوف من أمر واحد، وهو: تهوين أمر الدين عند الناس، وهو الهدف الرئيسي لهؤلاء الخونة الذين لا يتورعون عن أى شئ: قولا وفعلا فى سبيل الاقتراب منه، أو الوصول إلى تحقيقه، وهم من أجل ذلك يصرون على الهجوم على الإسلام، وعلى عقيدته، وكتابه، ورسوله، وعلى كبار الصحابة، وعلى علماء الدين المسلمين، وعلى رجال الدين النصارى.

وفى تطور درامى عجيب خرجوا على الناس بالكفر الصريح، وأخرجوا كراسة الإلحاد من قبرها، كما يفعل السحرة عندما يخرجون الطيور من أغطية رؤوسهم، وبيض الدجاج من أكمامهم على غير توقع من المتفرجين؛ ليفاجئوهم بحركاتهم ظنا منهم أنهم يسلبون إعجابهم، فيسرقون دينهم، ويستلون عقيدتهم من صدورهم.

ولهذا فقد أردت من خلال هذه الصفحات التصدى لهم كما تصديت للبهائيين من قبلهم [1]، وإنى أستعين بالله عز وجل على مواجهة هؤلاء المارقين بهذا الكتاب الذى جعلته تحت عنوان:

إعادة إنتاج الكُفْر

تقويم تجربة الملحد إسماعيل أدهم (١٩١١ – ١٩٤٠م)

وأريد أن ألفت الأنظار إلى أمر مهم، وهو عدم اعتبار هذه التجربة فردية رغم شخصانيتها الواضحة؛ لأنها تعبر عن تيار فى الفكر الإنسانى عامة، والفكر

المصرى خاصة، ولهذا فإننا نقف ضد هذا التيار من خلال عرض هذه التجربة الإلحادية، ونتصدى له عبر نقضها، وقد جاء هذا الكتاب على النحو التالى:

- المقدمــة.
- الفصل الأول: الجو العام لإعادة نشر الإلحاد.
- الفصل الثانى: إسماعيل أدهم: ملامح شخصيته وأضواء على تجربته.
- الفصل الثالث: نقض تجربة أدهم الإلحادية.
- الخاتمة.

أما عن أسباب اختيار الموضوع فيمكن تلخيصها فيما يلى:

أولا: احتفال الدوائر المشبوهة محليا بتجربة ذلك الملحد، مما يحتم علينا ضرورة مواجهتهم، وفضح خططهم، وكشف شبهاتهم، وتقويض أسسهم التى يريدون رفع أبنية الإلحاد فوقها.

ثانيا: اكتمال تجربة إسماعيل أدهم من خلال امتزاج الشخصى فيها بالموضوعى فى طرح صاحبها لها، بالإضافة إلى محاولة إكسابها بعض المصداقية بزعم ارتكازها على قاعدة علمية، بينما توزعت التجارب الإلحادية – المعاصرة[٢]– فى أقوال متناثرة دون إطار عام يربط أنساقها المتبعثرة.

ثالثا: استعلان ذلك الملحد بإلحاده، والتصريح به، وبارتياحه له مثلما يستريح المؤمنون إلى إيمانهم.

أما عن منهج البحث فسيكون سرديا تاريخيا عند الحديث عن الجو العام الذى عادت فيه رسالته إلى الظهور، وفى الجزء الذى يخص جوانب حياته الشخصية، ثم نتحول إلى المنهج التحليلى النقدى المقارن عند معالجة وتقويم تجربته الإلحادية، ولا يفوتنا أن ننوه بأننا توخينا الأمانة المطلقة فى عرض أفكاره، فلم نزد حرفا على ما قال، ولم ننقص حرفا مما قال.

وقد صادفتنا صعوبات عدة أثناء الكتابة، منها: قلة المراجع التى تحدثت عنه وعن تجربته الأولى ومنها: تعذر العثور على مؤلفاته كلها التى كان من الممكن أن تلقى مزيدا من الأضواء على تجربته، ورغم ذلك فقد يسر الله تعالى

الحصول على رسالة أخرى تحت عنوان: "من مصادر التاريخ الإسلامى"[٣]، وهي وثيقة الصلة برسالته: "لماذا أنا ملحد؟" بل تعتبر تمهيدا لها وخصوصا إذا راعينا توقيت نشر كل منهما، فالرسالة الأولى نشرت فى عام ١٩٣٦م وقد صادرتها الحكومة لتطاول صاحبها على السنة النبوية المطهرة؛ لأنه جعل أهم أهدافها عدم الاعتراف بالحديث النبوى الشريف، فإذا تم له ذلك فقد انهار - من وجهة نظره - نصف الإسلام متمثلا فى عدم اعترافه بنبوة محمد ﷺ، وهو نصف الشهادة (أشهد أن محمداً رسول الله) انقض على نصفها الأول ليس بإنكار التوحيد فحسب بل بإنكار وجود الله تعالى، وقد صنع ذلك فعلا بتأليف رسالة " لماذا أنا ملحد؟" ونشرها فى عام ١٩٣٧م، والمثير للاستغراب عدم مصادرتها رغم مصادمتها للرأى العام المصرى في هذا التوقيت، ورغم مصادرة رسالته السابقة وهى أقل منها خطورة!!

وهذا الكتاب ليس تأريخا للإلحاد فى عصوره - قديما وحديثا-، ولا بحثا عن أسبابه، ولا التماسا لوسائل علاجه، واجتثاث جذوره، فقد كفتنا دراسات متعددة معاناة هذا الأمر، ومعالجة تفاصيله، منها الدراسة التى أعدها الدكتور عبد الرحمن بدوى تحت عنوان: " من تاريخ الإلحاد فى الإسلام"[٤]، وقد نشرها أول مرة فى عام ١٩٤٥م، ثم طبعت للمرة الثالثة فى هذا العام، ومنها الدراسة التى أعدها الأستاذ عبد الرحمن عبد الخالق تحت عنوان: "الإلحاد: أسباب هذه الظاهرة وطرق علاجها"[٥]، والدراسة التى أعدها الزميل الفاضل الدكتور إبراهيم عبد الشافى تحت عنوان: "التحليل النفسى لظاهرة الإلحاد"[٦].

كما لا يخفى علينا أن الدراسات التى أعدت حول التيارات الفكرية، أو الفلسفة الحديثة، أو الغزو الفكرى، أو ما شابه ذلك قد تعرضت بشكل أو بآخر لقضية الإلحاد، لحضور هذه الظاهرة بوضوح فى هذه الميادين في كل العصور.

والإلحاد جريمة نكراء فى حق الله تعالى، وفى حق الإنسانية، وقد أقسم الله عز وجل على خسر الإنسان مع استثناء الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر، وفى ذلك يقول العلامة الدكتور زغلول النجار تحت

عنوان: من الإعجاز الإنبائى فى قوله تعـالى: ﴿ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِى خُسۡرٍ ﴾[7]:

"يعلم ربنا تبارك وتعالى بعلمه المحيط أن الغالبية من الناس لن يكونوا مؤمنين، وأخبر بذلك خاتم أنبيائه ورسله ﷺ من قبل ألف وأربعمائة سنة بقوله العزيـز: ﴿ وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴾[8]، وأكد ربنا هذه الحقيقة فى سورة العصر.

والتاريخ كله يؤكد هذه الحقيقة التى يدعمها الواقع الراهن الذى يعيش فيه اليوم أكثر من بليون ملحد يشكلون حوالى ١٦% من مجموع سكان العالم.

بينما يشكل المسلمون حوالى ٢٥%

والنصارى حوالى ٢٩%

والهندوس ١٤%

ومتبعو بعض التقاليد الصينية القديمة ٥%

ومتبعو التقاليد الأفريقية البدائية ٥%

والسيخ ٠,٣٦%

واليهود ٠,٢٢%

والباقى وقدره ٠,٤٢% بعض الديانات الأخرى.

وإذا علمنا أن عدد الذين يعلنون إلحادهم فى عالم اليوم يزيد عن البليـون نسمة علمنا أننا نعيش فى زمن من الفتن المتلاحقة"[9].

هذه الإحصائية تستوجب الانتباه، وخصوصـا مـن أصـحاب الأديـان السماوية: المسلمين والنصارى واليهود، وضرورة إحياء الحوار الحضارى فيما بينهم، وإثرائه فى جوانب الاتفاق، والنأى به عن مواطن الاختلاف، ومن الأهمية بمكان الاتفاق حول هدف واحد وهو: مواجهة الإلحاد بكـل صـوره وأشـكاله، ووضع استراتيجية موحدة طويلة الأمد لتحقيق هذا الهدف الأسمى؛ لأن الملحدين كالفيروسات والجراثيم التى تسبب الأمراض التى تهلك الحرث والنسل؛ لخطورة إلحادهم وأضرارهم المؤكدة على العقيدة، وعلى الأخلاق والسلوك.

ومصر مستهدفة؛ ولهذا فهى فى رباط إلى يوم القيامة، وجندها خير أجناد الأرض كما أخبر بذلك الرسول ﷺ وأرجو أن أكون منهم لا سيما وأن الجهاد لم يعد وقفا على خطوط التماس مع الأعداء فى ساحات المواجهات العسكرية بل امتد ليشمل ميادين أخرى؛ ولهذا ارتأينا وارتضينا الجهاد بالكلمة، والجهاد باللسان وحمل القلم فى هذا الزمان لا يقل خطرا ولا أهمية عن حمل السلاح؛ " إن التقوية لأسباب الدين والدعاء إليه قد تكون باليد، وقد تكون باللسان، إلا أن الحاجة إلى تأييده بقوة اللسان تكون أمس منه إلى تأييده بقوة اليد.

إن مكايدة المحتال من طريقة التمويه باللسان تكون أنكى من مكايدة المغتال من طريق السيف والسنان.

وكيف لا تكون كذلك وهى مكابدة روحية، وهذه مكايدة جسمانية"[10].

وتأتى هذه الدراسة كومضة ضوء فى ظلمة حالكة لعل الله تعالى ينير بها قلوبا تنتظر الهدى فتنجو من الردى، أما الذين ﴿ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ ﴾[11] فأولئك ﴿ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ ﴾[12] جعلنا الله تعالى منهم بفضله لا بعملنا.

والله أسأل أن يجعل عملى هذا خالصا لوجهه الكريم، وأن يتقبله بقبول حسن، وبالله التوفيق، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

د. محمد صلاح عبده محمد

هوامش المقدمة

١- انظر: البهائيون فى مصر وخطورتهم على الأمن القومى، بحث منشور فى حولية كلية أصول الدين والدعوة بالزقازيق، العدد الثامن عشر عام ٢٠٠٦م، ص ١٠١١ ص ١١١٤.

٢- مثل تجربة عبد الكريم نبيل سليمان الذى كان مسلما ثم ارتد، وطالبا أزهريا ثم فصل من الجامعة، وقد أعلن هذا المرتد عن عقيدته بأن الإنسان هو إله نفسه، وأعلن عن كفره بالقدر، وتطاول على النبى ﷺ، وعلى المسلمين، ثم على الأزهر وأهله.

انظر: http:// www.coptichistory.org/new

ثم يأتى حلمى سالم الشاعر الماركسى المعروف الذى تطاول على الذات الإلهية فى قصيدة له بعنوان " شرفة ليلى مراد" يقول فى مقطع منها:

الرب ليس شرطيا

حتى يمسك الجناة من قفاهم

إنما هو قروى يزغط البط

ويجس ضرع البقرة بأصبعه صائحا:

وافر هذا اللبن

الجناة أحرار لأنهم امتحاننا الذى يضعه الرب آخر كل فصل

قبل أن يؤلف سورة البقرة

انظر: http://www.07770555.com/news-service

وتنضم نوال السعداوى إلى قائمة المارقين بنشرها رواية الإله يقدم استقالته، بل تطالب بتعديل نصوص القرآن الكريم خاصة الآيات التى تحدث فيها المولى عن ذاته بصيغة التذكير، وحددت سورة الإخلاص حيث تريد تعديلها من " قل هو الله أحد" إلى " قل هى الله أحد" باعتبار أن الله روح والروح مؤنث وليس مذكرا.

انظر: جريدة الغد: السبت ٦يناير ٢٠٠٧م

وطالبت بإلغاء الآية الكريمة: " للذكر مثل حظ الأنثيين"

انظر: جريدة عقيدتي: الثلاثاء ٢٧ فبراير ٢٠٠٧م

فضلا عن إفساح المجال للقرآنيين والشيوعيين والبهائيين والعلمانيين وغيرهم في كل وسائل الإعلام لنشر وإذاعة وعرض إلحادهم وفجورهم، واللافت للنظر انحسار الردود وانعدام المواجهات المتكافئة بإضعاف فرصة علماء الدين في الرد عليهم والذود عن عقائدهم، وإلى الله المشتكى.

٣- طبع مطبعة صلاح الدين الكبرى/ الإسكندرية/ الطبعة الأولى سنة١٩٣٦م.

٤- نشر دار الشعاع/ القاهرة/ الطبعة الثالثة سنة ٢٠٠٧م.

٥- طبع ونشر الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد بالرياض، المملكة العربية السعودية/ الطبعة الثانية سنة١٤٠٤هـ.

٦- طبع مطبعة الحسين الإسلامية/ القاهرة/ الطبعة الأولى سنة ١٩٩٨م.

٧- سورة العصر: الآية رقم ٢.

٨- سورة يوسف: الآية رقم ١٠٣.

٩- جريدة الأهرام: الإثنين ٣ سبتمبر ٢٠٠٧م.

١٠-أبو الحسن محمد بن يوسف العامري ٣٨١هـ: الإعلام بمناقب الإسلام ص١٨٠ تحقيق ودراسة الدكتور أحمدعبد الحميد غراب.

١١-سورة الرعد: الآية ٢٨.

١٢-سورة يونس: الآية ٦٤.

الفصل الأول

الجو العام لإعادة نشر الإلحاد

الفصل الأول

الجو العام لإعادة نشر الإلحاد

علمنا من السطور الأولى أن المرتد إسماعيل أدهم قام بنشر رسالته " لماذا أنا ملحد"؟ في عام ١٩٣٧م، وانتحر في عام ١٩٤٠م، كما علمنا أن بعض المصريين قاموا بإعادة نشرها وتوزيعها في هذا العام ٢٠٠٧م، ثم وجدنا من يتباهى بمناخ الحرية الذي كان سائدا في هذه الفترة من الزمن التي كان الجهر بالكفر فيها أمرا مباحا، واحترام الملحدين واضحا كل الوضوح كما سنرى بعد قليل.

ثم توازى التباهي مع التباكي على ذلك الزمن الغابر، حيث طالعنا ذلك على صفحات بعض الصحف الحزبية[١] والمستقلة[٢].

وكنت – ومازلت– أنظر بكثير من الريبة إلى هذا الطرح المتباكي الصادر عن كثير ممن ينتسبون إلى المؤسسات الإعلامية، والدوائر الثقافية الحاضرة في الساحة المصرية على الحرية التي أتاحت نشر الإلحاد، وأباحت المجاهرة به في القرن الماضي.

وكان حجم ريبتي يتضاعف، وشكوكي تتزايد كلما كشف لي البحث بعض المستور، أو صادفت فتحا يسر لي فهم ما بين السطور، ومن ذلك مثلا ما قرأته للدكتور جابر عصفور في قوله: " والحق أن المرء يشعر بالفخر بمناخ الحرية الذي كتب فيه إسماعيل أدهم مقاله، فلم يسجن أو تصادر المجلة التي نشر فيها، ولا سحب الكتيب الذي طبعه من الأسواق، ولم يعاقب صاحب المجلة أو المطبعة أو الناشر بشئ.

ومن الحق أيضا أن يشعر المسلم بالفخر والاعتزاز بمحمد فريد وجدي وما يمثله من نموذج راق للمفكر الديني الذي يحاور بعلم ومعرفة ودراية، ولا يخفي جهله باتهام غيره، أو يستر ضعفه بإرهاب من يحاوره، فالرجل يستخدم الحجة لا القمع، ولا يلجأ إلى سلطة الشرطة بل إلى سلطة العقل، ويبدأ حواره من حق مخالفه في التعبير الحر عن رأيه مهما كان هذا الرأي.

بعبارة أخرى: تعيدنا دراسة محمد فريد وجدى إلى ذكريات الكبار من علماء الكلام الذى كان ما يحسنونه من كلام الدين فى وزن ما يتقنونه من كلام الفلسفة فاستطاعوا تأكيد مبادئ العدل والتوحيد، وخدموا الإسلام بما يعجز عنه كل هؤلاء الذين يرهبون غيرهم باسم الإسلام(٣)"، ولن نعلق على ما جاء فى هذا النص من همز ولمز، ولن نكلف أنفسنا عناء الرد عليه، بل نكتفي بالتقاط شعوره بالفخر بمناخ الحرية الذى ترك أدهم حرا طليقا مختالا بإلحاده، بل مخاطبا بلغة فيها تكريم وليس فيها ازدراء، أو كما يقول في سياق آخر عن محمد فريد وجدي:" هذا مفكر إسلامي جليل لا يجد حرجا فى الرد على من يعلن إلحاده بأكثر من سبيل، ويواجه هذا الإلحاد محترما صاحبه مؤمنا بحقوقه الدستورية فلا يتحدث إلا بكلمة "حضرة" جادا لا هازلا، ومحاورا لا مرهبا، ومناقشا الحجة بالحجة.

هذا المفكر الإسلامي واثق من عقيدته، واثق من تمكنه في الإقناع واثق من قدرات العقل على استمالة الجاحد والملحد والشاك، مؤمن أن العقل حجة الله على خلقه...." (٤). ونحن نعرف لمحمد فريد وجدي قدره كما أقر له بالفضل علماؤنا البررة كالشيخ محمد الغزالى(٥)، والأستاذ أنور الجندى(٦)، ولكن الحق أقرب إلينا منه، حيث كان من المفترض تقديم هذا الملحد للقضاء، أو المطالبة بمصادرة رسالته الإلحادية مثلما صودرت الرسالة السابقة لها كما ذكرنا من قبل، ولكن حكم القضاء الأعلى كان أسرع بقضاء هذا الملحد نحبه منتحرا فأراح العباد من رجسه، وطهر البلاد من نجسه.

ولدينا ملاحظة نسوقها على عجل بمناسبة هذا الطرح المتباكى على مناخ الحرية في ذلك الزمن، وما يناظره من أزمان وفرت مناخا مشابها، وهذه الملاحظة تخص نوع الحرية المأسوف على فقدها في عصرنا الحاضر فى زعم هؤلاء البكائين وهو المرتبط بالخروج على الدين والخلق الحسن؛ بدليل الثناء على مناخ الحرية الذى أتاح نشر التراث اليونانى الوثنى، ونشر أصل الأنواع لدارون، وحفظ التحقيق مع د. طه حسين فى قضيته حول كتابه "فى الشعر الجاهلى"، ورد الاعتبار للشيخ على عبد الرازق بعد فصله من عضوية هيئة كبار

العلماء بسبب آرائه فى كتابه "الإسلام وأصول الحكم"(٧)، وغير ذلك من النماذج الصادمة للأمة فى دينها ومعتقداتها وأخلاقها، كسلمان رشدى فى "آياته الشيطانية" وحيدر حيدر فى روايته "وليمة لأعشاب البحر" وعلى حد تعبير أحد أصحاب هذا الاتجاه: "يتم الاعتداء على الإبداع فى ظل الردة الدينية السائدة فى المجتمعات العربية الآن، والتى تدق ناقوس الخطر، وتكاد تفرغ المجتمعات من هويتها وخصوصيتها الثقافية عبر إلباسها عباءة الدين، ووأد الحرية والإبداع والفكر(٨)"، وهكذا رأينا هذا الطرح الماركسى الخائن الذى قلب الحقيقة رأسا على عقب فجعل الصحوة الإسلامية ردة دينية، وأورد نماذج تنضح بالحقد والفجور والإلحاد ضد الأديان، وخصوصا الإسلام.

والذى يؤكد للقارئ الكريم صدق هذا الاستنتاج وشفافية هذه الملاحظة التى رصدت الربط بين الحرية وبين إباحة الفسوق، أو إتاحة الخروج على الدين والخلق ما ذكره الدكتور عبد الرحمن بدوى فى ذلك الزمن القريب جدا من زمن إسماعيل أدهم، فلا يفصل بينهما سوى بضع سنين فى أدنى الأرض، فأدهم نشر رسالته بالإسكندرية فى عام ١٩٣٧م، وبدوى نشر كتابه عن الإلحاد بالقاهرة فى عام ١٩٤٥م، ومما جاء فيه بخط يده قائلا بالحرف الواحد عن الرازى غير خجل ولا وجل من إعلان انبهاره بإلحاده:" الرازى إذا يؤمن بإله خالق حكيم، ولكنه لا يؤمن بالنبوة والأديان، وينزع نزعة فكرية حرة من كل آثار التقليد أو العدوى، ويؤكد حقوق العقل وسلطانه الذى لا يحده شئ، وينحو منحى تنويريا شبيها كل الشبه بحركة التنوير عند السوفسطائيين اليونانيين، وخصوصا بحركة التنوير فى القرن الثامن عشر، ويدعو إلى إيجاد نزعة إنسانية خالصة خالطتها روح وثنية حرة، مما يجعل من الرازى شخصية فكرية من الطراز الأول، وواحدا من أحرار العقل النادرين فى التاريخ؛ ومن أجرأ المفكرين الذين عرفتهم الإنسانية طوال تاريخها.

ولا يسع المرء إلا أن يمتلئ إعجابا بهذا الجو الطليق الذى هيأه الإسلام للفكر فى ذلك العصر؛ مما يدل على ما كان عليه العقل الإسلامى فى ذلك العصر من خصب ونضوج.

أترى يتحقق مثل هذا الجو مرة أخرى فى حضارتنا العربية التى نأمل فى إيجادها؟" [٩].

وربما يكون حماس الشباب هو الذى دفع الدكتور بدوى لإعلان رأيه هذا فى صدر حياته العلمية، ونحن لا نلتمس له العذر من فراغ بل من خلال الخط البيانى لفكره الذى تأدى به فى خواتيم عمره إلى الانتصار للإسلام بإصداراته المهمة ويكفى أن نتعرف على هذه العناوين منها: "دفاع عن القرآن ضد منتقديه"، و " دفاع عن الرسول ﷺ ضد المنتقصين من قدره"، حيث واجه الطرح الغربى فى وجهه المظلم ضد الإسلام، وقد تسلح بأدوات الفكر الغربى: منهجا وقراءة وتأليفا، فكان – بذلك– أكثر جدارة من غيره فى الرد على افتراءاتهم وتفنيدها، وقد نشر الكتابان فى الطبعة العربية عام ١٩٩٩م.

فإذا كنا نتفهم موقف الدكتور بدوى فى بداياته فإننا لا نستطيع فهم موقف الدكتور حسن حنفى فى تبنى الرؤية الأولى لبدوى قبل نضجه الفكرى، فيقول بعد ما يزيد على نصف قرن من الزمان عن أحد كتب بدوى: " وبالرغم من أن " من تاريخ الإلحاد فى الإسلام" لا يوضح فى التصدير العام الهدف النهضوى منه إلا أن العبارة الأخيرة فيه توضح ذلك، وهى حرية العقل الإسلامى فى العصور الأولى، فهل يمكن أن تعود مرة أخرى؟!" [١٠]، ثم يقول مؤكدا على نفس المعنى: "ولكنه – أى كتاب بدوى عن الإلحاد– ظل كتابا جريئا فى وقته، وأجرأ منه أن يعاد طبعه فى هذه الأيام فى موجة التكفير فى زمن التفكير" [١١].

نعود إلى الملحد إسماعيل أدهم الذى حاولنا العثور على كراسته الإلحادية فى الأوساط التى احتفلت بها، وأعادت توزيعها فذهبت مساعينا أدراج الرياح، فاحتسبناها عند الله عز وجل، ولكننا لم نيأس، وأعدنا محاولة البحث إلى أن وجدناها على أحد مواقع الشبكة الدولية للمعلومات، وهو موقع " اللا دينيين العرب"، فانزعجت غاية الانزعاج مما رأيته على هذا الموقع من فجور فى الإلحاد لم أر له نظيرا على مدار تاريخ الفكر الإنسانى، وقد نشأ موقع آخر تحت عنوان " الملحدون العرب" نلتقط من صفحته الأساسية هذه العناوين:

مواقع شاملة للفكر اللاديني.
مواقع الإلحاد.
مواقع اللا أدرية.
مواقع الشكوكية.
مواقع المذهب الطبيعي.
مواقع العلمانية.
مواقع الإنسانية العلمانية.
مواقع العقلانية.
مواقع المادية
مواقع الفيزيقية.
مواقع الفكر الحر
مواقع محايدة.
مواقع لا دينية ضد الأديان.

ويقارن أحد المواقع اللادينية بين الإلحاد وبين اللادينية بعد تعريفها بما يلي:

"اللا دينية هي اتجاه فكري يرفض مرجعية الدين في حياة الإنسان، ويؤمن بحق الإنسان في رسم حاضره ومستقبله واختيار مصيره بنفسه دون وصاية دين أو تحكم شريعة.

واللادينية تختلف عن المفهوم التقليدي للإلحاد الذي يتخذ من قضية إنكار وجود الخالق منطلقا وركيزة أساسية، إذ تقدم اللادينية تصورا أكثر شمولا واتساعا للدين، فلا تختزل الدين بمجرد الإلهية، وإنما تطرح الإلهية باعتبارها جزءا صغيرا من منظومة فكرية واسعة، حيث تحمل اللادينية أطيافا متعددة لفهم الإلهية من الإنكار الكامل لها مرورا باللاأدرية، أو عدم الاكتراث أصلا بوجود إله، وانتهاء بإيمان خاص بوجود إله وفق فهم محدود لعلاقته بالإنسان"(١٢).

وقد بدأت تتشكل في العالم العربي والإسلامي – للأسف الشديد – حديثا حركات إلحادية ولا دينية، ولكنها لازالت تخشى الملاحقة، وظهرت في السنوات الأخيرة أصوات تحاول تنظيم نفسها، وتنشر الفكر الإلحادي في العالم العربي،

ولكنها لا تزال فى مرحلة بدائية جدا، ويقتصر نشاطها على شبكة الإنترنت، ويتبادل هؤلاء الأشخاص الآراء تحت أسماء غير معروفة.

وبتصفح هذه المواقع امتلأت النفس بالألم والحسرة لطغيان الموجات والتيارات الإلحادية العربية وفجورها فى نفس الوقت، والملاحظة الأولى التى يخرج بها كل إنسان دون عناء هو انفراد الإسلام من بين سائر الأديان السماوية والوضعية بحظ وافر من العدائية الوقحة، والخصومة الفاجرة.

فإذا عرفنا أن عدد متصفحى هذه المواقع يقدر بمئات الألوف أحسسنا بحجم الخطر المحدق بنا، والذى يتعرض له ديننا، فماذا نحن فاعلون ضد هذا الطوفان الفاجر من المد الإلحادى السافر؟، وكيف نحصن أنفسنا لمواجهته؟، وكيف نعد العدة للدفاع عن معتقداتنا ومقدساتنا؟ إن الأمر جد لا هزل فيه، والمصاب جلل لا عزاء له!!

ولا مفر أمامنا من إشراك القارئ معنا في التعرف علي بعض البيانات بالغة الخطورة، ولا يعترض علينا أحد زاعما أننا بذلك نساهم في الترويج للإلحاد، فتلك حجة داحضة لأن الإنترنت الآن صار في متناول الجميع، ولم تعد قراءة المواقع وقفا علي الحواسيب بل إن التقنيات الحديثة في ثورة الاتصالات – بعد الجيل الثالث في الهواتف– جعلت الاطلاع علي النت أمرا ميسورا وخدمة متاحة من خلال هواتف المحمول الذى أصبح في متناول الصغار إلي جوار الكبار.

نشأة موقع " الملحدون العرب":

الزمان: الإثنين ١٥ أغسطس ٢٠٠٥م

المكان: شبكة الإنترنت، المصدر الأول للمعلومات لملايين الأشخاص فى كافة أرجاء العالم.

المنشئ: الذى قام بإنشاء هذا الموقع هو " ملحد عربى" مصرى الجنسية، وهو يرجو أن يزيد عدد المشاركين فى بناء الموقع من أبناء الوطن العربى الذين يحملون أفكارا للإصلاح السياسى والاجتماعى والاقتصادى، والذين يحملون فكر تأسيس الحريات الأساسية، وإقامة الديموقراطية، وحماية الأقليات....إلخ.

استهداف الإسلام بالعداء:

والذى يؤكد ذلك دون تجاوز منا هو قول منشئ هذا الموقع عن نفسه على سبيل التعريف، وسيرى القارئ كيف أن الإسلام مستهدف عند هذا الفاجر، ومن يقف خلفه أو إلى جواره فى هذه العدائية الواضحة، وفى ذلك يقول:" أرى أنى يجب أن أتكلم عن نفسي بالطبع بمصطلح "ملحد عربى"، وهو صفة وليس اسمى الحقيقى، والسبب وراء عدم ذكر اسمى الحقيقى هو أن هناك العديد من المتطرفين داخل الوطن العربى وخارجه الذين يريدون قتل أى شخص يختلف معهم في وجهة النظر، فما بالك بشخص يرتد عن دينه الإسلامى، والذى بعد طول تفكير وجد أن كتابه المقدس (القرآن) لا يصلح إلا ككتاب تاريخ ليس جيدا فى الواقع، وليس كقيم تعطى للإنسانية.

كنت مسلما حتى سن السابعة عشر على الأكثر عندما بدأت تتكشف لدى الأخطاء الفادحة التى يرتكبها الإسلام فى موضوعات مختلفة، الإسلام بالنسبة إلى هو مصدر الكراهية، ولا يمكن أن تتقدم شعوب الوطن العربى، وشعوب "العالم الإسلامى" عامة بدون التخلص منه"[١٣].

إن فى الصدر شيئا حول اعتراف كاتب هذا الكلام الذى جعل مداد قلمه قيحا وصديدا بأنه عربى مصرى كان مسلما فارتد عن الإسلام، فأغلب الظن لدى أنه لم يكن يوما ما عربيا ولا مصريا، ولم يكن بالتوازى مع ذلك مسلما فى يوم من الأيام، ففضلا عن أسلوبه الركيك، وجهالته الواضحة فإننى أشتم منه رائحة صليبية بغيضة.

وليس هذا فحسب بل إنه فى سياق آخر يفصح عن نفسه فيفضحها أكثر بما نشتم منه رائحة صهيونية، وبذلك نرى الصورة أكثر وضوحا لاجتماع الصهيونية العالمية مع الصليبية على إعلان العداء للإسلام والمسلمين فى كل الجبهات: عسكريا واقتصاديا وسياسيا وثقافيا، والأمثلة أكثر من أن تحصى.

فهذا "الهرمجدونى" القمئ يفصح عن صهيونيته بإبداء رأيه فى المقاومة الفلسطينية التى يقول عنها: "إننا نتفهم مشاعر الفلسطينيين إلا أننا ننادى بأن تكون المقاومة سلمية ولا تستعمل السلاح إلا بأمر من السلطة الفلسطينية المنتخبة.

ونحن نرى أن العمليات الانتحارية ضد المواطنين المدنيين الإسرائليين هى عمليات إرهابية لا تجر على الشعب الفلسطينى إلا الخراب والدمار وتسوء [كذا] من صورة العرب فى العالم"[١٤].

فهل هذه اللغة يقولها عربى مصرى، إنها أشبه بالطرح الغربى، والرؤية الاستعمارية للصراع العربى/ الإسرائيلى، ولا تكاد تختلف عن تصريحات الساسة الغربيين الموالين لحكومة إسرائيل وهل هذا حديث شخص واحد؟ أم حديث هيئات ومؤسسات؟

والذى يؤكد صدق ظنوننا أن المقصود الأول من هذه المواقع المشبوهة هو الإسلام وحده ما جاء في تصريحهم بأنهم " ضد التعاليم الإسلامية التى تولد الكره والعنف فى المسلمين، وضد التعاليم التى تؤدى إلى تمييز المسلمين عن غير المسلمين في مجال الحياة الدنيوية، ونحن ضد فرض التعاليم الدينية الإسلامية فى المدارس والمؤسسات العامة"[١٥].

فإذا كانوا صادقين فى إلحادهم الذى يعنى التنكر لكل الأديان وعدم الاعتراف بها فلماذا خصوا الإسلام وحده بهذه العدائية الواضحة؟ لماذا أعلنوا أنهم ضد التعاليم الإسلامية فقط؟ فماذا عن التعاليم اليهودية؟ وماذا أيضا عن التعاليم النصرانية؟

وما هي رؤيتهم – إذا كانوا حقا عربا مصريين وسابقا مسلمين- فى إراقة دماء العرب والمسلمين بل والأقباط فى بؤر الصراع العديدة على الخريطة العربية والإسلامية على أيدى الصهيونية والصليبية الجديدة حسب إعلان كاهنها الأكبر بوش الابن.

أهداف الموقع:

١- توضيح المبادئ العامة للإلحاد بالإضافة إلى توضيح الأفكار الأساسية التى يقوم عليها عدد من المذاهب الأخرى.

٢- شرح رؤيتنا الخاصة لكل من الأديان المختلفة وبخاصة (اليهودية والمسيحية والإسلام).

٣- تقديم عدد كبير من الرؤى الفلسفية لمشاهير العلم والفلسفة.
٤- ترجمة الوثائق والتقارير من لغات العالم المختلفة إلى العربية لإثراء المكتبة العربية بأفكار جديدة.
٥- أن يكون الموقع مكانا لالتقاء أصحاب الفكر الحر سواء كانوا من المؤمنين بوجود الله أو غير المؤمنين بوجوده.
٦- نشر العلمانية وفصل الدين عن الدولة فى الوطن العربى.
٧- نشر الوعى بمفهوم الحريات الأساسية مثل حرية التعبير، وحرية الاعتقاد، والتجمع، والصحافة..إلخ.
٨- تنظيم جبهة موحدة من أصحاب الفكر الحر لمواجهة التطرف والعنف فى الوطن العربى(١٦).

الأقليات فى الوطن العربى:

يتحدث أصحاب هذا الموقع بصيغة الجمع _أيضا_ عن رؤيتهم لقضية الأقليات فى العالم العربى بلغة تؤكد بما لا يدع مجالا للشك أن هذا الموقع المشبوه لا يمكن أن يكون الذين أنشأوه عربا مصريين، أو مسلمين مرتدين عن الإسلام، إن الصياغة لفقرات هذا الموقع تذكرنا بما توعد به الصهاينة العالم كله فى "بروتوكولات حكماء صهيون" من خراب ودمار وفرقة وانقسام ليسود اليهود العالم، فالأقليات فى العالم العربى فى رأيهم قاموا بالتعبير عنها بالصيغة الآتية: "نحن نؤمن بالدولة العلمانية أى الدولة التى لا تبنى على أسس دينية وعرقية بل مبنية على أساس التعددية والديموقراطية وإقامة الحريات العامة.

نحن نؤمن أن الأقليات هى جزء أساسى من تركيبة الوطن العربى يجب أن تحصل على حريتها كاملة غير منقوصة، وبالتالى يجب عليها أن تشارك فى نهضته(١٧)".

حقوق المواطنين بين الدعم الخارجى والداخلى:

يقول أصحاب الموقع: "نحن مع الدعم الخارجى لمجموعات حقوق الإنسان وحقوق المرأة والمنظمات المطالبة بالديموقراطية... (١٨)".

ما أشبه هذا الكلام بما تدعو إليه منظمات المجتمع المدنى فى مصر بما ينسجم مع رؤية وزيرة خارجية أمريكا للإصلاح فى الوطن العربى، وإعادة صياغة خريطة الشرق الأوسط، من خلال ما يسمى "الفوضى الخلاقة" بما يتوازى مع تحقيق المصالح الأمريكية اليهودية المشتركة، وللأسف فإن لهم مأجورين خونة بين صفوفنا، وليس أدل على ذلك من وجود عملائهم بيننا الذين يدعون إلى تقليص المعونة الأمريكية لمصر فى هذه الظروف العسيرة والمنعطف التاريخى الحرج الذى تمر به البلاد، وقد قيض الله كثيرا من الشرفاء من الحزبيين والمحامين وغيرهم لتقديم بلاغات للنائب العام المصرى ضد هؤلاء الخونة بتهم الخيانة العظمى والعمالة لدولة أجنبية...إلخ.

فى هذه المواقع المشبوهة عثرت على رسالة الملحد إسماعيل أدهم " لماذا أنا ملحد؟" وقد توازى معها فى نفس الطرح بعض الملحدين المعاصرين، ونلتقط معا هذه السطور من مقالة "الغريب المنسى" وأعتقد أن هذا الاسم ليس حقيقيا بل هو اسم حركى له دلالته حيث جمع فيه بين الغربة والنسيان، يقول ذلك الغريب الحقير فى مقالته التى عنوانها:" لا منطقية أطروحة الإله الشخصانى خالق الكون": " عجزى عن معرفة مسببات بعض الأنظمة لا يبرر منطقيا تعميم هذا السبب البشرى حتما على تلك الأنظمة اللابشرية فى صورة تجريد ذهنى لإنسان خارق أسميه " الله" مثلا، وإنما يصلح هذا الـ "الله" سببا محتملا يقبل الصواب أو الخطأ..

إذن فإن "الله" هذا يعتبر على المستوى النظرى مجرد احتمال تجريدى، وعلى المستوى العملى ينبغى التعامل معه كما لو كان غير موجود شأنه شأن تجريدات ذهنية عديدة لا برهان على وجودها كالغول والعنقاء"[١٩].

ويقول ملحد آخر اسمه شهاب الدمشقى فى مرارة واضحة ضد الدين وضد الله عز وجل: "وربما كان الرهان على الدين هو مسألة وقت، فمنذ قرون خلت عندما كانت معارف الإنسان محدودة كانت الغلبة للخرافة، ومع مرور الأيام وتطور العلم تمكن الإنسان من حل بعض الألغاز، وتناقصت تدريجيا الخرافات، ومن يدرى؟؟؟

ربما في يوم من الأيام سيتمكن الإنسان من حل هذا اللغز الغامض: من أين أتيت؟! عندها: سيموت الله"[٢٠]، لا يمكن صدور هذا التعبير عن عربي إلا إذا كان ربيبا للثقافة الغربية التي أعلنت عن موت الإله على لسان نيتشه.

فى هذا الجو المسموم، ومن خلال هذا المناخ الملوث بكل هذا الكم الهائل من العدائية للأديان، وخصوصا الإسلام عادت رسالة إسماعيل أدهم الإلحادية إلى الظهور من جديد، ولكنها قبل ظهورها على الإنترنت كانت قد وزعت بين الشيوعيين فى القاهرة.

بيد أن ظهورها على الإنترنت جاء كرد فعل على إحدى المقالات الصحفية التى هاجمت صاحبتها توزيع هذه الكراسة فى قاهرة المعز، عاصمة مصر، قلب العروبة النابض، وحامية حمى الإسلام بأزهرها المرابط إلى يوم القيامة.

ولكن لماذا وقع اختيارهم على كراسة إسماعيل أدهم بالذات؟، والإجابة على هذا السؤال تجعل من الضرورة وضع بعض الفروض كما يلي:

أولا: التوارى خلف هذا النموذج فرارا من المساءلة، وخشية من المحاسبة، فمن الذى باستطاعته تقديم شخص ميت للمحاكمة، وهو منهج ماكر يتيح لأصحابه الاستعلان بما يريدون من آراء مهما بلغ كفرها وفجورها تسترا بأصحابها الأصليين، وقد عبر الدكتور حسن حنفى عن هذا المنهج بدقة وإيجاز بقوله: "إذ تعبر "الأنا" عن ذاتها من خلال "الآخر" حماية للأنا وتسترا بالآخر"[٢١].

ثانيا: ادعاء صاحب التجربة بصدوره فى إلحاده عن موقف علمى، وهو ما يريد أنصاره الآن الترويج له بالتلبيس على القراء بزعم اعتماد الإلحاد على أسس علمية، ومن ناحية أخرى ادعاء التعارض بين الإسلام وبين العلم.

ثالثا: سهولة الترويج لنشر هذه التجربة الإلحادية، ويسر تداولها لشدة اختصارها فى صفحات قليلة.

وهذا هو ما قام به هؤلاء الخونة، حيث عثروا على نسخة من رسالة: "لماذا أنا ملحد؟"، وأعادوا طباعتها وتوزيعها وتداولها بين أوساط العلمانيين

وأذناب الماركسيين فى القاهرة فى هذا العام (٢٠٠٧م)، وقد صرحت بهذا بعض الصحف واسعة الانتشار داخل مصر وخارجها، وبعض المواقع على شبكة الإنترنت، ففى مقالها الذى جاء عنوانه:" أشرح الخبل كله أم من الخبل أختصر؟" كتبت الأستاذة صافى ناز كاظم تقول عن هؤلاء: " يلفون ويدورون ويقومون ويقعدون، ولا يكفون عن التحرش، وكأن الدنيا لم يعد يخربها سوى أن دين دولة مصر هو "الإسلام"، وأن خانة توضيح " الديانة" لا تزال قائمة فى الأوراق الرسمية، إنهم هؤلاء الذين دأبوا على احتكار لقب "المثقفين"، وأغلبهم لا يعرف من الثقافة سوى عنوان كتاب " لماذا أنا ملحد؟" ينطقونه بتلمظ وفخر.... مع أنه لا يعدو كونه كراسا نحيلا لا يزيد عن ١٣ صفحة كتبها مخبول عام ١٩٣٧م، وانتحر بعدها بثلاث سنوات فى ٢٣ يوليو عام ١٩٤٠م غريقا فى بحر عروس البحر الأبيض المتوسط (الإسكندرية).

وإسماعيل أحمد أدهم المولود فى ١٣ يناير ١٩١١م صاحب هذه الأوراق "العبيطة" التى تعود لتطفو هذه الأيام عوامة يتعلق بها حضراتهم فى نضالهم المكثف من أجل إنقاذ مصر من "الإسلام" و "التدين" و "الإيمان"، والعياذ بالله من شياطين الإنس والجن"[٢٢].

ولم يمض أسبوع حتى انبرى أصحاب موقع "اللادينيين العرب" بنشر كراسة إسماعيل أدهم كاملة كما ذكرنا من قبل ردا على ذلك المقال الذى اقتبسنا منه هذه السطور، وجاء صنيعهم هذا استفزازا لمشاعر ملايين المسلمين فى كل أركان الأرض، وهاهم يعلنون بفجور: " قررنا إعادة نشر هذا الكتاب الصغير بعد أن قرأنا مقال السيدة " صافى ناز كاظم" فى جريدة " الشرق الأوسط"... وحيث إن "المخبول" إسماعيل أدهم لم يعد قادرا على الرد علي "تحفة الألباب" (نقصد القصيدة وليس السيدة) فقد ارتأينا إعادة نشر هذا " الكراس النحيل" عملا بحرية النشر والتعبير التى كانت أفضل حالا فى بلاد العرب قبل أن ينحرها تحالف العسكر والجاز"[٢٣].

ولن نعلق على السخرية الواردة من كاتبة المقال فى هذا النص لاعتبارها هينة بجوار هذا الفجور السافر بنشر هذا الكفر الصريح ليكون متاحا للجميع، وبعد قيامهم بنشر هذه الكراسة قاموا بالتعقيب عليها بقولهم: "لم نعثر على صورة منشورة له، فهل يملك أحد القراء المصريين صورة لإسماعيل أدهم"[٢٤].

ولم يكتف هؤلاء المارقون بنشر كراسة الإلحاد، ولم يكتفوا بالإعلان عن بيعها بالترويج لها عبر الإنترنت ونشر صورة لغلافها الحديث الملون بل تمادوا فى مروقهم بمناشدة القراء تزويدهم بصورة شخصية له، وقد أتيح لنا العثور على صورته، وسنقوم بنشرها فى ملاحق هذا الكتاب، والسؤال: لماذا جاء الخطاب قاصرا على المصريين فقط؟!، ألا يعطى ذلك انطباعا مباشرا بأن المصريين مستهدفون لإفساد دينهم وزعزعة عقائدهم؟!

ولم يكد يمض أسبوع آخر حتى انتفض صحفى مصرى غيور للتحذير من هذه الهجمة الشرسة على الإسلام، فقد كتب الأستاذ فتحى محمود فى عموده الأسبوعى تحت عنوان " لماذا أنا ملحد؟" مقالا نلتقط منه هذه السطور:" فهم بعض العلمانيين الجدد – عن جهل- العلمانية بشكل خاطئ، وتصوروا أن الهجوم على أى رمز إسلامى يثبت علمانيتهم، فتخصص بعضهم فى الهجوم على الحجاب، واستهدف آخرون أى داعية إسلامى ناجح حتى لو كان مشهودا له بالاعتدال، وانتهز بعض قدامى الماركسيين الفرصة لمحاولة تشويه الإسلام والتخلص من آثاره سواء بطلب إلغاء المادة الثانية من الدستور الخاصة بالشريعة الإسلامية، أو باستغلال بعض المطبوعات التى يسيطرون عليها لنشر الأعمال التى تسئ للذات الإلهية، وتسخر من فكرة الدين.

والغريب أن هؤلاء يحتفون الآن بإعادة تصوير كتيب قديم وتوزيعه على المريدين والأتباع باعتباره الدستور الذى سينقذ مصر، وهو لا يزيد على ١٣ صفحة بعنوان " لماذا أنا ملحد؟" كتبه شخص مضطرب نفسيا يدعى إسماعيل أدهم عام ١٩٣٧م، وانتحر بعدها بثلاث سنوات، وأتمنى أن لا يكون هذا مصيرهم"[٢٥]، وقد أوردنا صورة المقال فى ملاحق هذا الكتاب.

والجديد فى هذا المقال أنه قام بتعريفنا بشخوص المهتمين بنشر الإلحـــاد، وإعادة إنتاج الكفر، وهم الماركسيون الذي حرموا فضيلة الحياء، وفى ســـــياقنا هذا لا يمكننا كتمان مشاعر الأسى والأسف لوجود هـــؤلاء المارقيـــــن فـــى حضور واضح على الساحتين الثقافية والإعلامية، بل واحتلال بعض رمـــوزهم لمقاعد قيادية فى كثير من المؤسسات الحكومية الفاعلـــة وخصوصـــا التابعـــة لوزارتى الثقافة والإعلام، فضلا عن صدور جريدتين تمثلان الاتجاه اليســـارى المصرى وهما: الأهالى والبديل، بالإضافة إلى وجود نفر مـــنهم فـــى الحقـــل الإعلامى وخصوصا فى الصحافة المستقلة، كما يوجد آخـــرون فـــى الصـــحف والمجلات القومية.

وبعد انتشار رائحة الإلحاد الكريهة وجدنا ضرورة العودة إلى البحث فـــى الجذور القريبة للموضوع، وهالنا ما توصلنا إليه من معلومات نكتفـــى بـــإيراد بعضها، ونسوق مثالين يعبران عن منهجين لتناول مشـــروع إســـماعيل أدهـــم الإلحادى، وكلاهما تم نشره فى عام ٢٠٠٣م.

المثال الأول: عبارة عن مادة إذاعية تحت عنوان " انتحار ملحد" خاصـــة بإذاعة طريق الإسلام أضيفت لموقعها على الإنترنت بتاريخ ٤ينـــاير ٢٠٠٣م، واللافت للنظر أن هذا البرنامج الذى تحول إلى مقال مقروء قد بلغ عدد قرائـــه ٣٧٩٢٢، وقد ساق صاحبه سليمان الخراشى عددا من الملحدين الـــذين أنهـــوا حياتهم بالانتحار، جعل فى صدارتهم هذا المسخ الشائه الذى نحن بصدد الحديث عنه نلتقط منه هذه السطور:

"تأثر إسماعيل أدهم بالمد الشيوعى الإلحادى بسبب إدمانه قـــراءة إنتـــاج القوم حتى علقت أفكارهم بعقله، وتمكنت من قلبه، فـــألف رســـالة ســـــماها: "لماذا أنا ملحد؟" (٢٦)".

وبعد أن قام معد البرنامج/ المقال بإيراد بعض البيانات الشخصية عن ذلك الملحد، وآراء علماء عصره فيه عقب على ذلك كله بفقرة إرشادية تتناسب مـــع البرامج الإذاعية يقول فيها عنه:" اختار الكفر على الإيمان، وتدرج فى مهـــاوى

الضلال إلى أن وصل إلى آخر دركاته وهى الإلحاد – والعياذ بالله– لتكون خاتمته فى تلكم الجثة الطافية على مياه البحر اية لمن خلفه من شباب الإسلام النابهين أن لا يغتروا بذكائهم ومواهبهم، فيخوضوا ذات اليمين وذات الشمال معرضين أنفسهم للفتن والانسلاخ من الدين، إما بإدمانهم العكوف على كتب أهل الضلال والحيرة والشك، أو بمصاحبتهم وألفتهم بمن يشككهم فى دينهم، ويهون عليهم الطعن فيه، أو التحرر من بعض شرائعه..

وإسماعيل أدهم مجرد أنموذج سقته للاعتبار بحاله حيث ارتد على دبره بعدما جاءه الهدى، واستبدل الذى هو أدنى بالذى هو خير"[٢٧].

المثال الثانى: عبارة عن محاضرة ألقاها الدكتور قدرى محمود حفنى تحت عنوان:" فى مهب رياح الثورة والهزيمة والبترول "ضمن ندوة" جدلية الذات والآخر فى الثقافة العربية " فى ١٠ أبريل ٢٠٠٣م بكلية الآداب جامعة عين شمس.

وقد ساق الدكتور فى محاضرته بعض المشاهد الدالة على الاختلاف الفكرى وليس الاختلاف الذى يأخذ منحى عرقيا أو جنسيا أو دينيا...إلخ، وقد اختار إسماعيل أدهم ليمثل المشهد الأول، وبعد أن عرض لتجربته الإلحادية بإيجاز ختمه بإبراز حرص محمد فريد وجدى على وصف ذلك الملحد بلقب "حضرة الدكتور"، ثم عقب على ذلك المشهد بقوله: "ها نحن إزاء من يعلن عن إلحاده فى مقال منشور يحمل اسمه دون مواربة، بل ويحاول تعميم دعوته بأن يحول مقاله إلى كتيب منشور، فإذا بمجلة الأزهر ترد عليه مفندة آراءه، مخاطبة إياه بلقبه العلمي مسبوقا بكلمة "حضرة الدكتور".

ويبدو أنه لم يرد فى ذهن أحد من مثقفى الأمس فكرة اللجوء إلى السلطة والمطالبة على الأقل بحرمان إسماعيل أدهم من الكتابة أو إغلاق الجريدة التى نشرت له، بل لقد ظل إسماعيل أدهم حيا إلى أن انتحر"[٢٨].

وهذا يذكرنا بمنطق التباكى على المناخ السابق الذى أشرنا إليه فيما سبق عند د.عصفور، وغيره بدليل اختياره لنماذج أخرى مثل: نصر حامد أبو زيد، وحيدر حيدر، وفرج فودة، وغيرهم.

وتمضى الأيام ويأتى عام ٢٠٠٦م حاملا معه ضراوة رياح التطاول على الدين ورموزه، والتصريح بالتباكى على حرية القرن السابق، ففى مقال منشور بموقع حركة " كفاية" يعزف نفس النغمة النشاز التى مضمونها الانبهار بنشر كراسة الإلحاد، ولكن صاحب هذا المقال جهول؛ حيث اعتبر نشر تلك الكراسة فى عقد الأربعينيات، وهذا خطأ يضاف إليه خطأ ثان وهو نسبة بحث "لماذا أنا مؤمن؟" لمحمد فريد وجدى فى حين أنه لأحمد زكى أبو شادى، وخطأ ثالث وهو نسبة بحث "لماذا هو ملحد؟" لأبى شادى بينما هو لوجدى، ولا يعنينا ذلك بقدر ما تصدمنا وقاحته فى تصدير مقاله بالهجوم على الأزهر الشريف الذى قال عنه: "الأزهر يؤكد عمليا وجود ما يمكن أن يسمى بالكهنوت الدينى الإسلامى، وإن كان لا يستطيع الاعتراف بذلك صراحة، بل ويعلن أن وجود مثل هذا الكهنوت مناف لطبيعة الإسلام، وأنه أمر خاص بالتفكير الكنسى فى العصور الوسطى.

لكن هناك فرقا بين ما يقال وما تتم ممارسته على أرض الواقع؛ لأنه لو كانت هناك قناعة حقيقية من جانبهم بما يقولون فكيف نفسر هذا التاريخ الطويل من المصادرات والتكفير وإثارة الناس ضد الكتاب والمفكرين باسم الدين، والتشهير بهم على المنابر، وهو مناخ يمهد تلقائيا إلى قتلهم كما حدث، وكما نتوقع أن يحدث إذا ما استمرت هذه الحملات غير المسئولة من التكفير والتشهير"[٢٩].

تذكرنا هذه الاتهامات التى ساقها هذا الكاتب الحقود ضد الأزهر الشريف بما ينادى به أولئك الذين فى قلوبهم مرض بين الحين والحين، ولعل أحد روادهم فى هذا كان من مشاهير الأدباء وهو توفيق الحكيم الذى كتب قائلا: "وقد آن الأوان لنواجه الأمر فى صراحة فيما يتعلق بتدخل الأزهر المتكرر فى شئون الدولة الفكرية، وأن نتدبر من الآن الخطر الذى يهدد حرية الكتابة، وخطر التأليف ونهضة العلوم إذا سيطر على الحياة الفكرية فى هذا البلد العصرى بمثل هذه الروح، فالمعروف عن ظلام القرون الوسطى أن الكنيسة كانت هى التى تتحكم فى عقول المفكرين مما أدى إلى شل حركة العلوم والفنون"[٣٠].

ولا يمل أنصار هذا التيار المعادى للأزهر من الربط بين الإسلام والنصرانية، والمقاربة بين الأزهر والكنيسة دونما يعتمد ذلك الربط وتلك المقاربة على أسانيد علمية أو دينية أو تاريخية، وقد تأكد بطلان هذا الخلط المتعمد بين الأوراق من خلال الطرح الإسلامى ذاته للقضايا المرتبطة بالعلم وطلبه والحض عليه، والتفكير عموما، وإعمال العقل وتوظيفه، وعدم إهدار طاقته بأى شكل من الأشكال، وعدم تعطيله بأية صورة من الصور، ونصوص الإسلام ذاتها من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة تؤكد صدق هذا الرأى[٣١]، بالإضافة إلى امتلاء أرفف المكتبات بمئات الدراسات التى تعطى المصداقية لما نقول، ولكن ما حيلتنا إزاء هؤلاء الكتاب الذين تمتلئ بهم ساحات ومنابر توجيه الرأى العام الذين يصرون على عنادهم وعدائهم للأزهر، والجماعات الإسلامية، مع دوام التحذير من الدولة الدينية، وأقرب الأمثلة الدالة على ذلك ما نشرته جريدة الأهرام الآن أثناء كتابة هذه السطور لأحد كبار كتابها فى مقاله بصفحة قضايا وآراء تحت عنوان "التطرف الأيديولوجى ومخاطر الدولة الدينية" قال فيه:

"التطرف – أيا كانت نوعيته– هو المقدمة الضرورية للسلوك الإرهابى، وذلك على أساس أن العقل الدينى التقليدى الذى عادة ما يفرز التطرف الأيديولوجى هو المرحلة الأساسية فى بناء العقل الإرهابى.

والعقل الإرهابى تبدو خطورته فى أنه يبيح لأنصاره تأويل النصوص الدينية من آيات قرآنية وأحاديث نبوية لكى تتفق مع أهداف الجماعات الإرهابية، وهذه الأهداف تتمثل فى هدف أسمى وهو الانقلاب على الدولة العربية المعاصرة، وإنشاء دولة دينية على أنقاضها، بالإضافة إلى الهيمنة على المجتمع من خلال تشكيل فرق خاصة للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر تقوم على قمع الجماهير، وإجبارها على تطبيق ما تراه من سلوكيات تتفق مع رؤيتها للعالم التى تتسم بالتشدد والانغلاق والرجعية.

إن الفارق الجوهرى بين الدولة الدينية والدولة المدنية أن الأولى تقوم على الفتوى التى يصدرها رجال الدين، وأن الثانية تقوم على التشريع تحت رقابة الرأى العام.

والدولة المدنية هى فى الواقع الدولة الحديثة التى شهدتها المجتمعات المتقدمة، والتى تم تأسيسها فى ضوء موجات الحداثة الأوروبية أساسا.

وهذه الحداثة كان لها شعار شهير هو "أن العقل محك الحكم على الأشياء" بعبارة أخرى: إن النص الدينى المسيحى أزيح من مكانه المركزى بعد قيام أوروبا بثورتها الثقافية ضد الكنيسة نتيجة لتعسفها وسيطرتها الرجعية على مجمل الفضاء العام، وتمت هذه التحولات الكبرى تطبيقا لمبدأ العلمانية"[٣٢].

ولن نكلف أنفسنا مشقة الرد على هذه الرؤية القاصرة بيد أن لنا بعض الملاحظات عليها نجملها فيما يلى:

أولا: حساسية هذا الكاتب من التدين التى تبدو من خلال نظرته لما أسماه "العقل الدينى التقليدى"، وهو يفرز التطرف الأيديولوجى الذى يشكل الأساس لبناء العقل الإرهابى على حد تعبيره.

ثانيا: اتهامه للعقل الإرهابى -حسب وصفه- بتأويل النصوص الدينية من آيات قرآنية وأحاديث نبوية لكى تتفق مع أهداف الجماعات الإرهابية، وهو هنا ساوى بين جميع الإسلاميين، ولم يستثن منهم أحدا، بدليل انطلاقه من توجيه النقد للعقل الدينى التقليدى وهو سبب المصائب كما يرى، فإذا كان هذا ما يراه فى هذا العقل فما هو العقل الدينى غير التقليدى؟، وأين هو؟ ومن هم ممثلوه؟، وإذا وجدوا هل سيوافقهم على تدينهم؟ أشك فى ذلك.

ثالثا: الصراخ والضجيج خوفا من الانقلاب على الدولة الحديثة وإنشاء الدولة الدينية على أنقاضها، والتحذير من الهيمنة على المجتمع من الفرق الخاصة التى تقوم على قمع الجماهير... إلى آخر هذه الإطلاقات التى نشم منها رائحة كريهة!!

رابعا: التذكير بما حدث فى أوروبا من إقصاء الدين عن كل أوجه الحياة فيما عدا الدور الباهت الذى تقلص فى جانب العبادة فقط من خلال إزاحة النص الدينى المسيحى من مكانه المركزى – حسب تعبيره– فهل هذا ما يريده للنص الدينى الإسلامى؟، إنه بعقده هذه المماثلة غير الصادقة لا يمثل ذاته بقدر ما يمثل تيارا فاعلا فى الساحة الثقافية المصرية، ألم يطالب نصر حامد أبو زيد وهو الأكاديمى المتخصص بالتحرر من سلطة النصوص حيث يقول بالحرف الواحد:" وقد آن أوان المراجعة والانتقال إلى مرحلة التحرر لامن سلطة النصوص وحدها، بل من كل سلطة تعيق مسيرة الإنسان فى عالمنا، علينا أن نقوم بهذا الآن وفورا قبل أن يجرفنا الطوفان"(٣٣).

خامسا: زعمه بأن الدولة الدينية تقوم على الفتوى التى يصدرها رجال الدين وهذا جهل فاضح لأن الدولة تعتمد الشريعة الإسلامية مصدرا للتشريع، وهى تستمد مرجعيتها من القرآن الكريم والحديث الشريف وليس من فتاوى العلماء.

سادسا: ميل هذا الكتاب صراحة إلى اختيار العلمانية التى يزينها للقراء بأنها ليست فصل الدين عن المجتمع بل فصل الدين عن الدولة، فهل نفهم من هذا قبوله للحضور الدينى فى المجتمع بينما يستنكر حضوره فى الدولة؟، وهل يريدها دولة بغير دين؟!، وهل رجال الدولة ينتمون لعالم آخر غير المجتمع الذى هم جزء منه؟ ولعلنا ما زلنا نذكر أن العلمانية كانت من أهداف موقع " الملحدون العرب"!!

ولا نريد أن يخرجنا الاستطراد لمناقشة هذه الأفكار البالية التى تتسربل بين الحين والحين بزى جديد لسهولة تسويقها والترويج لها فى مجتمع متدين لن تنطلى عليه ألاعيب الحواة!! والذى نود التأكيد عليه الآن فيما يشبه العناوين دون الدخول فى التفاصيل هو ضرورة التفرقة بين الإسلام والنصرانية وخصوصا فى القضايا التى تهتم بالعلم والمدنية مثلما صنع الإمام محمد عبده الذى نختاره

نموذجا فى سياقنا هذا، ومن ناحية أخرى ضرورة التفرقة بين الكنيسة والأزهر لا سيما فيما يخص حرية الفكر، فإذا كان الحجر على الفكر مطلبا من مطالب الكنيسة خاصة فى العصور الوسطى باعتراف أتباعها أنفسهم فإن الأمر على العكس من ذلك تماما بالنسبة للأزهر الشريف وتحت يدى عشرات الشهادات صادرة عن حكام دول عربية وإسلامية وعلى رأسهم رئيسنا محمد حسنى مبارك، ورؤساء حكومات، ووزراء، وعلماء من كل أقطار الأرض، ومنهم غير المسلمين كلها تقر للأزهر بكل الفضل فى حراسة الإسلام، والدفاع عنه، والدعوة إليه بالحكمة والموعظة الحسنة، من خلال منهج وسطى أجمع على الاعتراف به خصومه قبل أنصاره اللهم باستثناء البعض ممن فى قلوبهم مرض، ولن نستطيع فى مقامنا هذا الإكثار من الاقتباس من هذه الشهادات بل نكتفى بنموذج واحد يدل على صدق تحليلنا، وهو ما قاله الإمام المراغى: "إن الناس فى مصر يخشون خطر الأزهر على الحياة العامة فهم يقولون: إن الأزهر إذا قوى واشتدت عزيمته يدخل فى الحياة الاجتماعية فيكدر هذه الحياة إذ يحظر حرية الفكر، ويقف حجر عثرة فى طريق الأفكار العلمية الحرة.

أما الحياة الفكرية فلا أظن بحال أن الأزهر خطر عليها؛ لأن الأزهر يساير أسلافه من العلماء الأجلاء، ومن الأئمة الذين كان عندهم من سعة الصدر ما احتمل هذه المذاهب المتعددة التى نقرؤها فى علم الكلام، وقد حمى الإسلام أديانا تخالفه، وحمى علماء الإسلام مذاهب غير صحيحة، واجتهدوا أن يردوا عليها بالدليل، فليس الأزهر من المعاهد التى تكره حرية الرأى، ولكن الأزهر يكره شيئا واحدا هو تعمد الاستهزاء بالدين، وتعمد الاستهزاء بأئمة المسلمين، يكره هذا، ويكره أن يشكك العامة فى دينهم، وأن يشكك النشء فى عقائدهم.

أما الآراء العلمية فى حدود العلم ودائرته فإنها تدرس فى المعاهد الكبرى دون أن يخطر للأزهر ببال أن يقاومها"[٣٤].

وما أشبه الليلة بالبارحة فلقد وقع ما حذر الإمام المراغى من حدوثه منذ أكثر من ستة عقود من الاستهزاء بالدين، وأئمة المسلمين، وتشكيك العامة والناشئة فى عقائدهم، وهو ما نجد له حضورا واضحا محليا وعالميا.

أليس الترويج للكفر وإعادة إنتاج الإلحاد والتبشير به مما يشكل قمة الاستهزاء بالدين الإسلامى بالذات، وهو ما يدور على الساحة الفكرية المعاصرة من خلال هؤلاء المارقين الذين يخرجون على الناس خلف أقنعة عديدة، فتارة خلف قناع البهائية، وأخرى خلف قناع الماركسية، وثالثة خلف قناع العلمانية، ورابعة خلف قناع الليبرالية. ..إلى آخر هذه الأقنعة التى يجمعها رباط غير مقدس، وهو العداء للدين، وخصوصا الإسلام.

وفى هذا السياق نستأنس بوجهة نظر الدكتور محمد عمارة فى قوله: "لقد رأينا أغلب الذين ضلوا عن سبيل الله فألحدوا فى الواقع الإسلامى المعاصر أكثر الناس جهلا بالإسلام، ورأينا صفوفهم قد خلت من أهل الفكر والاجتهاد والتأمل والنظر الفلسفى، فكان إلحاد "المثقفين" منهم "تقليدا" لمفكرى الغرب الذين تتلمذوا عليهم دون غيرهم عندما رأوا الإسلام وكأنه المسيحية الغربية كما رآها أئمتهم وأسلافهم الغربيون، يستوى فى ذلك "الليبراليون"، "والشموليون" من هؤلاء الماديين الملحدين!، أما إلحاد "عامتهم" من أشباه المتعلمين وأنصاف المثقفين فهو إلحاد "تقليد" أو "مجون" و "تحلل من التكاليف" قلدوا فيه "مثقفيهم"...

فلا الإسلام بمقيم أمام العقل عقبة تبرر الإلحاد، ولا الذين ألحدوا قد خبروه حتى تكون لهم حجة فى استعارة هذه الآفة الغريبة إلى عالم الإسلام والمسلمين"[٣٥].

ونختم هذا الفصل باقتباس عن الشيخ محمد الغزالى يقول فيه تحت عنوان: "لا مكان للإلحاد بيننا"، وكأنه يقصد هؤلاء الناس الذين روجوا للكفر، وأعادوا إنتاجه ونشره، وهيأوا المناخ لظهوره، ومهدوا التربة لاستنبات بذرته الخبيثة: "ما هؤلاء الناس؟...

إنهم مسخ غريب الأطوار، صفيق الصياح، بليت به هذه البلاد إثر ما صنعه الاستعمار بها، وترك بذرة فى مشاعرها وأفكارها.

فهم – كما جاء فى الحديث– من جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا.

بيد أنهم عدو لتاريخنا وحضارتنا، وعبء على كفاحنا ونهضتنا، وعون للحاقدين على ديننا، والضانين بحق الحياة له ولمن اعتنقه.

إن هؤلاء الناس الذين برزوا فجأة، وملأت ضجتهم الأودية كما تملأ الضفادع بنقيقها أكناف الليل يجب أن يمزق النقاب عن سريرتهم، وأن تعرفهم هذه الأمة على حقيقتهم حتى لا يروج لهم خداع، ولا ينطلى لهم زور"[٣٦].

وهذا ما نحاوله فى هذا الكتاب ذودا عن ديننا، ودفاعا عن عقيدتنا، ضد هؤلاء المارقين أعداء الوطن والدين، وبالله نستعين.

هوامش الفصل الأول

١- جريدة الأهالي: الأربعاء ٤ أبريل ٢٠٠٧م.
٢- جريدة الدستور: الأربعاء ١٨ يوليو ٢٠٠٧م.
٣- د. جابر عصفور: التنوير يواجه الإظلام ص٢٣.
٤- السابق: ص٢٦، ولنا تعليق في سؤال: هل أعاد الحوار العقلي المدعوم بالاحترام الملحد إلى الإيمان؟ وهل استمال منهج وجدي الملحد إسماعيل أدهم فتراجع عن إلحاده؟ والإجابة معروفة ويعرفها عصفور قبل غيره!!
٥- مع الله: دراسات في الدعوة والدعاة ص ٣٠١
٦- محمد فريد وجدي: رائد التوفيق بين العلم والدين، ولكنني مندهش لأن الأستاذ أنور الجندي لم يشر من قريب أو بعيد في هذا الكتاب عن هذا السجال الفكري الذي دار بين وجدي وبين أدهم رغم وجود موضوعات يستدعي سياقها ذكر هذا السجال، وخصوصا في الباب الثالث الذي خصصه لمساجلات محمد فريد وجدي ومعاركه وذكر منها مواجهته كل خصوم الدين والروحية وما وراء المادة من أمثال شبلي شميل، والدكتور صروف، إلا أنه لم يورد في السياق أي ذكر للملحد إسماعيل أدهم. انظر الباب الثالث ص ١٤١ ص١٨٧.
٧- التنوير يواجه الإظلام ص٣ ص٢٧.
٨- جريدة الأهالي: الأربعاء ٤ أبريل ٢٠٠٤م.
٩- د. عبد الرحمن بدوي: من تاريخ الإلحاد في الإسلام ص٢٦٣.
١٠-د.حسن حنفي: الفيلسوف الشامل: مسار حياة وبنية عمل ص٧٧ ضمن الكتاب التذكاري عن د. بدوي.
١١-السابق: ص ٧٨، ومن الملاحظ أن كتاب بدوي عن الإلحاد طبع ثلاث مرات حتى الآن: الأولى في عام ١٩٤٥م، والثانية في عام ١٩٩٣م، والثالثة في عام ٢٠٠٧م.
١٢-نقلا عن موقع http://ar.wikepedia.org/wiki

١٣- من ١٣ إلى ١٨ فقرات مقتبسة من موقع
http://www.arabatheist.humanists.net/final

١٩- نقلا عن موقع: http://www.ladeeni.net

٢٠- السابق: نفس الموقع.

٢١- الفيلسوف الشامل: مسار حياة وبنية عمل، ص٣٩

٢٢- جريدة الشرق الأوسط الخميس ٣١ مايو ٢٠٠٧م.

٢٣- نقلا عن موقع: http://www.ladeeni.net.

٢٤- الموقع السابق: نفسه.

٢٥- جريدة الأهرام: الثلاثاء ١٢ يونيو ٢٠٠٧م.

٢٦- نقلا عن موقع: http://www.islamway.com.

٢٧- الموقع السابق: نفسه.

٢٨-نقلا عن موقع: http://www.arabpsy.net.com.

٢٩- نقلا عن موقع: http://www.Kefaya.org.

٣٠-د. محمد رجب البيومي: الأزهر وحرية الفكر ص١١٤٤ مقال بمجلة الأزهر يونيو ١٩٧٩م نقلا عن: وثائق من كواليس الأدباء لتوفيق الحكيم ص١٢٠.

٣١-انظر لكاتب هذه السطور: اهتمام الخطاب القرآنى بقوى الإدراك الإنسانى وأثره فى الفكر الإسلامى بحث منشور بحولية كلية أصول الدين/ القاهرة/ العدد الثانى عشر، سنة ١٩٩٥م.

٣٢- جريدة الأهرام: الخميس ٢٠ سبتمبر ٢٠٠٧م.

٣٣- د. محمد بن سعيد السرجانى: الاتجاهات الحديثة للمستشرقين ومن تابعهم فى تفسير القرآن الكريم ص ١٥٧. نقلا عن: الإمام الشافعى وتأسيس الأيديولوجية الوسطية ص١٤٦ لنصر حامد أبو زيد بحث بمجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة الكويت، سبتمبر ٢٠٠٧م.

٣٤- الأزهر وحرية الفكر ص١١٤٨، ١١٤٩ نقلا عن مجلة الرسالة، نوفمبر ١٩٤٧م.

٣٥- الغزو الفكرى وهم أم حقيقة ص ٣٤.

٣٦- مع الله: دراسات فى الدعوة والدعاة ص٢٣٨.

الفصل الثانى

إسماعيل أدهـــــم

ملامح شخصيته وأضواء على تجربته

الفصل الثانى

إسماعيل أدهم: ملامح شخصيته وأضواء على تجربته

١- أدهم بين حديث المراجع عنه وحديثه عن نفسه:

لم يتيسر لنا – للأسف– من المصادر العدد الكافى الذى يتيح لنا إمكانية التعرف على ملامح إسماعيل أدهم الشخصية، وقد كانت هذه إحدى الصعوبات الواضحة التى اعترضت خط سير هذا الكتاب، بيد أننا عثرنا على ترجمة موجزة له فى كتاب الأعلام يمكننا توظيفها بالإضافة إلى ما كتبه عن جوانب من حياته الشخصية فى رسالة "لماذا أنا ملحد؟"، واستخدامها فى تكوين صورة أقرب ما تكون إلى الواقع ولنبدأ بما ورد فى الأعلام، ونقتبس هذه الفقرة التى جاء فيها:

"إسماعيل بن أحمد بن إسماعيل بن إبراهيم باشا أدهم: عارف بالرياضيات، له اشتغال بالتاريخ، شعوبى، تركى الأصل، أمه ألمانية، كان أبوه ضابطا فى الجيش التركى، وجدّه معلما للغة التركية فى جامعة برلين، وجد أبيه مدير ديوان المدارس المصرية فى عهد محمد على.

ولد إسماعيل بالإسكندرية، وتعلم بها وبالآستانة، ثم أحرز " الدكتوراه" فى العلوم من جامعة موسكو سنة ١٩٣١م[١]، وعين مدرسا للرياضيات فى جامعة سان بطرسبرج، وانتخب عضوا أجنبيا فى أكاديمية العلوم السوفيتية، وعهدت إليه جامعة فريبورج بالإشراف على طبع كتاب المستشرق سبرنجر عن حياة محمد ﷺ، وانتخب وكيلا للمعهد الروسى للدراسات الإسلامية، وانتقل إلى تركيا فكان مدرسا للرياضيات فى معهد أتاتورك بأنقرة...، وعاد إلى مصر سنة ١٩٣٦م فنشر رسالة بالعربية" من مصادر التاريخ الإسلامى" صادرتها الحكومة، و"الزهاوى الشاعر"، وكتابا وضعه فى "الإلحاد"... وأصيب بالسل فتعجل الموت، فأغرق نفسه بالإسكندرية منتحرا"[٢].

ورغم اقتضاب هذه العبارة إلا أنها مليئة بالحقائق ذات الدلالة فى تكوين صورته، والتعرف على ملامح شخصيته من خلال تدرجه فى الوظائف، وتقلبه

فى البيئات المتعددة، مع محاولة استنباط الخيوط الرفيعة الرابطة بين هذه البيانات وبين اتخاذ قرار الإلحاد، ونستطيع التركيز على ما يلى:

١- انتخابه عضوا أجنبيا فى أكاديمية العلوم السوفيتية، ثم انتخابه وكيلا للمعهد الروسى للدراسات الإسلامية، كما عهدت إليه إحدى الجامعات السوفيتية بالإشراف على كتاب عن حياة الرسول ﷺ، فإذا لاحظنا أن عمره عند حصوله على الدكتوراه كان اثنين وعشرين عاما فقط استطعنا التعرف على علل اختياره لعضوية هذه الأكاديمية، ووكالته لذلك المعهد، بجوار الأعمال الأخرى؛ ونستطيع استنتاج أن هذه الهيئات كانت تعد إسماعيل أدهم إعدادا خاصا لحمل لواء الإلحاد ورفعه فى التوقيت المرسوم فى قلب العالم العربى والإسلامى النابض مصر المحروسة، فأية عبقرية تمتع بها هذا الشاب؟ سوى جاهزيته واستعداده للقيام بهذا الدور الشائن، ولدينا من القرائن ما يعطى مصداقية عليا لهذا الاستنباط.

٢- لم يشر الزركلى إلى إلحاده الشخصى، ولم يتطرق إلى عقيدته الذاتية، بل اكتفى بالإشارة إلى كتاب وضعه فى الإلحاد، وهذا كلام تنقصه الدقة، ولا نريد اتهام الزركلى فى أمانته، وختام الترجمة يحتم علينا وضع علامات استفهام جديدة عن الربط بين حالته المرضية وبين اتخاذه قرار الانتحار بما يجعل القارئ يربط بين مرضه وبين انتحاره، يقول الزركلى: "وأصيب بالسل فتعجل الموت...إلخ" والحقيقة غير هذا، فكم من المرضى عاش صابرا على مرضه إلى أن وافته منيته، والواقع أنه انتحر لزهده فى الحياة وكراهيته لها وهذه بعض سمات الملحدين، وسنتعرف فيما يلى من الفقرات على تفصيل أوفى عن هذه الأمور وخصوصا فى الفقرة الأخيرة من هذا الفصل.

٣- نعود إلى الملاحظة الأولى حول تدرجه فى المناصب فى الاتحاد السوفييتى بعد حصوله على الدكتوراه من جامعة موسكو، لنعلم أن ذلك البلد البعيد كان وما يزال معقل الإلحاد فى العالم، ومن البدهى معاداة الشيوعية للأديان

وخصوصا الإسلام ومن المعلوم استحالة المصالحة أو التعايش فيما بينهما، وقد كان لذلك أعظم الأثر فى نزوعه نحو الإلحاد.

٤- انتقاله إلى تركيا وقد كان ذلك فى الفترة المنحصرة بين عامىْ ١٩٣٣م وبين عودته إلى مصر ١٩٣٦م، بيد أن هناك إشارة أخرى صادرة عن إسماعيل أدهم نفسه تفيد أنه زار تركيا قبل هذا التاريخ، وعاش فيها من عام ١٩١٩م حتى عام ١٩٢٣م، كما تعرفنا على إشارة ثالثة تنص على اعترافه بمغادرة مصر سنة ١٩٢٧م متوجها إلى تركيا حيث أقام فيها ثلاث سنوات أسس فيها جماعة لنشر الإلحاد، وقد قام أعضاؤها بالاتصال بجمعية نشر الإلحاد الأمريكية، وما لبثوا أن انضموا إليها وغيروا اسمها إلى "المجمع الشرقى لنشر الإلحاد"(٣).

وبتأمل هذه التواريخ نستطيع الحكم بأنه بدأ رحلته مع الإلحاد فى منتصف العقد الثانى من عمره، ولا نستطيع إغفال ما كان عليه المناخ التركى فى هذا التوقيت الذى كان يساعد على التحرر من الدين، والانسلاخ من العقيدة؛ حيث أعلن مصطفى كمال أتاتورك الجمهورية التركية فى عام ١٩٢٣م، وأقامها على أسس علمانية صرفة تعادى الدين الإسلامى.

وقد تحول هذا العداء إلى عدوانية فاجرة أدت إلى إلغاء الخلافة فى مارس سنة ١٩٢٤م، وإغلاق التكايا والزوايا، وإلغاء الطرق الصوفية بالإضافة إلى التدخل فى إقامة شعائر الدين بالتضييق على المسلمين، والحيلولة بينهم وبين الاستعلان بدينهم بإلغاء الأذان، ومحاربة اللغة العربية إلى غير ذلك من الإجراءات المعادية للإسلام، وتعلق العالمة الفاضلة الدكتورة هدى درويش على ذلك بقولها:" وبهذه الخطوات التى قام بها أتاتورك من إلغاء الخلافة، وإلغاء الشريعة، ومحاربة الدين، والقضاء على اللغة العربية وتتريكها استطاع مصطفى كمال أتاتورك الإجهاز على كل أصول الدولة وتراثها من مظهر وشكل وأسلوب ولغة، وأصبحت تركيا هى الدولة الإسلامية الوحيدة فى الشرق التى اتخذت العلمانية منهجا وأساسا لسياستها"(٤).

وبهذا نستطيع استيعاب سهولة الانخلاع من ربقة الدين الإسلامى فى ظل هذا الجو المشحون بالعداء للإسلام، المسكون بالرغبة المحمومة للقضاء عليه وعلى مظاهره فى المجتمع التركى فى هذا التوقيت الكئيب.

ونحن فى سياقنا هذا نعلن اهتمامنا بإعلان موقفه الرافض للإيمان والذى تجلى فى مشهدين:

الأول: إعلانه عن تكوين جماعة نشر الإلحاد بتركيا، وذلك قبل سفره إلى موسكو.

الثانى: اعترافه بخروجه عن الأديان، وتخليه عن كل المعتقدات، وإيمانه بالعلم وحده وبالمنطق العلمي، وقد جاء هذا الاعتراف بعد سفره إلى موسكو وحصوله على درجتى الدكتوراه فى عام ١٩٣٣م.

علما بأننا لا نستطيع عزل هذين المشهدين عن نوازع الإلحاد المتجذرة داخل نفسه منذ طفولته، والتى كانت لها تجلياتها الواضحة المتمثلة فى إعلان سخطه على القرآن الكريم رغم زعمه بأنه أتمه حفظا وتجويدا وهو فى سن العاشرة، وتمرده على ممارسة الشعائر الإسلامية من صلاة وصيام التى كان يجبر على القيام بها مما جعله يعترف بأن هذه الأمور كانت من أسباب التمهيد لثورة نفسية على الإسلام وتعاليمه(٥).

وربما يكون مرد هذه الثورة النفسية ضد الإسلام هو ذلك التمزق الذى ران على حياته فيما بين الخضوع لزوج عمته المكلف من قبل والده لإجباره على القيام بممارسة التعاليم الإسلامية، والانصياع لشقيقتيه – بعد وفاة أمه – اللتين كانتا تصطحبانه إلى الكنيسة كل يوم أحد، وتقومان بتلقينه تعاليم المسيحية، وفيما يبدو أنهما كانتا غير صادقتين فى صنيعهما هذا معه، بل لعلنا لا نعدو الحقيقة إذا حكمنا بضعف إيمانهما؛ لأنهما على حد تعبيره " لا تثقلان عليه بالتعليم الدينى المسيحى، بل لقد درجتا على اعتبار أن كل ما تحتويه التوراة والإنجيل ليس صحيحا، وكانتا تسخران من المعجزات ويوم القيامة والحساب؛ وكان لهذا كله أثر فى نفسيتى"(٦)، فأختاه إذن كانتا ضمن العوامل المساعدة على تهوين أمر الدين لديه.

ويبدو لنا من خلال اعترافاته فى صدر رسالته الإلحادية أنه كان ذا قدرات عقلية خاصة، ولم يكن طفلا عاديا حيث بدأ القراءة فى مكتبة والده منذ طفولته، وشرع فى تعلم عدة لغات أجنبية، وفى تطور لاحق بدأ قراءة الكتب التى تؤدى إلى الإلحاد، وكانت قراءاته متنوعة تتراوح بين الأدب التركى والعالمى، وبين الفلسفة والعلوم البيولوجية والطبيعية حيث انتهى إلى الانسلاخ من الإيمان شيئا فشيئا.

بيد أن هناك أمرا فارقا فى حياته عندما أعلن الثورة على أبيه الذى فرض عليه الإسلام والقيام بشعائره فرضا، فامتنع عن الصلاة، وقال لأبيه بالحرف الواحد: "إنى لست بمؤمن، أنا داروني أؤمن بالنشوء والارتقاء".

وهذه العبارة الموجزة ترد أبلغ رد على الناعقين بانعدام التعارض بين ابتغاء الإسلام دينا وبين اعتناق المذاهب الفلسفية الإلحادية كالماركسية أو الوجودية أو العلمانية، أو مذهب دارون فى التطور وغيرها، فهذا المرتد نفى الإيمان بالله عن نفسه وأثبت ضده وهو الإيمان بمذهب النشوء والارتقاء، مما يؤكد استحالة الجمع بين العقيدة الإسلامية وبين هذا المذهب الإلحادى...

ويجب أن لا يغيب عن أذهاننا الخلفية الإسلامية لهذا المرتد، والتى تجلت فى ديانة أبيه، ورغبته فى تنشئة ابنه الوحيد عليها للإفلات به من مصير شقيقتيه اللتين ورثتا النصرانية عن أمهما مما حدا بالوالد إلى المبالغة فى قهر ابنه على الإسلام، وتعلمه، وممارسة شعائره منذ طفولته الباكرة التى أكمل فيها حفظ القرآن الكريم وتجويده وهو فى العاشرة من عمره، وقد أدى ذلك إلى نتائج عكسية بدأت بسخطه على القرآن الكريم على حد تعبيره ثم بامتناعه عن الصلاة، وانتهاء بكفره الصريح، والمجاهرة به، وإعلان الارتياح إليه.

٢- البيئات التى تقلب فيها وآثارها على اتجاهه الإلحادى:

تعرفنا فى الفقرة السابقة إجمالا على بعض البيئات التى تقلب فيها، حيث تعددت هذه البيئات بانتقاله بينها، ومن أشهرها مصر، وتركيا، وروسيا، مصر التى شهدت بدايته بالميلاد ونهايته بالانتحار، وكانت شاهدة على جهره بالكفر

بنشر كراسته الإلحادية فى خواتيم حياته، وتركيا التى عاش فيها فترات متقطعة من حياته كون فى إحداها جماعة لنشر الإلحاد، والاتحاد السوفييتى الذى حصل فى عاصمته على أعلى الشهادات العلمية كما عرفنا فيما سبق.

بالنسبة لمصر رغم فخرنا بتدين شعبها منذ فجر التاريخ[٧] إلا أننا لا يمكن إلا أن نبدى أسفنا للمناخ الذى أفرز هذا المرتد، ولم يحاسبه على ردتـــه، وقـــد علمنا فى الفقرة السابقة أنه لم يكن مصريا، وأن إقامته فى مصر كانت عارضة ولم تكن تتسم بالاستقرار، فما كان أيسر أن يلفظ لفظ النواة إلا أنه لم يجد غيوراً على الإسلام يحيله إلى المحاكمة، ولا قيمة عندى – الآن – لردود الأفعال التى ستثار ضد وجهة نظرى هذه، بل إننى حزين لفرط أدب الـــذين احترمـــوا هـــذا المرتد الذى لم يكن يستحق الاحترام، واللغة التى تحدثوا عنه بها لم تكـــن فـــى محلها على الإطلاق، وإننا لا نجد حرجا، ولا نخشى بأسا من الحديث عنه بمـــا يستحقه من أوصاف الردة والإلحاد والمروق من الدين، يقـــول إمامنـــا الأكبـــر الدكتور عبد الحليم محمود: " ... إن من أقدس مقدسات الأمة الإسلامية عقيدتها.

فلنرجع بها إلى جو الفطرة الطاهرة، والشعور الصافى، والبداهة الواضحة وإذا "شذ" عن ذلك "شاذ" فليكن فى " القانون" ما يمكن " القضاء من "ردعه"!![٨]، وهذا ما كنا نتمناه للتعامل مع هذا " الشاذ" وأمثاله من المارقين من الدين.

وغنى عن الذكر أن الحرية المرادة عند جل المثقفين المصـــريين قـــديما وحديثا هى حرية المروق من الدين، أو على الأقل حرية الهجوم عليه، وهذا أحد أسرار تناديهم بها، وتباكيهم على ما كان متاحا منها فى القرن الماضى!!!.

أما تركيا وهى المحطة الثانية فى حياة " حضرة الدكتور المرتـــد"، فقـــد زارها فى طفولته وعاش فيها فترات متقطعة من حياته كانت كمـــا ذكرنـــا قـــد انخلعت من محيطها الإسلامى، بتبنيها الخط العلمانى على يد الطاغية مصـــطفى كمال أتاتورك، فانهارت الخلافة، وحورب الإســـلام والمســـلمون، ولا مجـــال لتفصيل القول فى ذلك، ولكن النتيجة المستخلصة من هذا التغير الجـــذرى فـــى التاريخ التركى أنه كان يساعد على المجاهرة بالكفر، بل ويتيح تكوين جماعـــة لنشر الإلحاد على يد حضرة المارق إسماعيل أدهم!!!.

أما الاتحاد السوفييتى الذى كان المحطة الثالثة فى حياته فقد كان بمثابة عامل من عوامل تثبيت الإلحاد داخل صدره؛ لأن كل مظاهر الحياة داخل الاتحاد السوفييتى كانت تعادى الدين، وتحارب غريزة التدين، بل كانت هناك مدارس ومعاهد ومطبوعات للإلحاد، وبين أيدينا تجربة شاهد على ذلك العصر، عاش هو الآخر فى الاتحاد السوفييتى ، ورصد ما فيه من مظاهر إلحادية واضحة، وهو الدكتور سعد عبد العزيز مصلوح، ونلتقط سطورا من شهادته، حيث يقول: "إن القول بأن "الدين أفيون الشعوب" ليس قولا مغرضا نسبه أعداء الماركسية إلى ماركس، بل هو قول صحيح النسبة إليه، ويقول مؤلفو كتاب "الإلحاد: تاريخه ونظريته" الصادر فى موسكو عام ١٩٧٤م: "إن قول ماركس بأن الدين أفيون الشعوب يحدد جوهر موقف الأحزاب البروليتارية بالنسبة لقضية الدين"، وهذا القول الواضح ينفى بذاته أى دعوى لتغير موقف الماركسية من الدين.

وقد أكد ماركس على أن "أى دين ما هو إلا انعكاس زائف فى أدمغة الناس للقوى الخارجية المتحكمة فى حياتهم اليومية، وأنه انعكاس تتخذ فيه القوى الأرضية شكل قوى غير أرضية".

ويلخص كراسيكوف – من وجهة نظره- خطر الدين على المجتمع السوفييتى فيقول :"إننا مع تحطيمنا لاستغلال الإنسان للإنسان فى الاتحاد السوفييتى وهو الجذر الأصيل للدين فى المجتمع الطبقى نجد أن بقايا التدين فى وعى الكادحين تقوم بدور هائل فى عرقلة تطور مجتمعنا الشيوعى"(٩).

ونواصل الاستماع إلى شهادة الدكتور مصلوح المدعومة باستنتاجاته المهمة ومنها قوله عن الدستور السوفييتى: إنه "يقوم على فصل الدين عن الدولة، وقد يحتج هنا بأن علمانية الدولة مبدأ معترف به فى معظم بلدان العالم الرأسمالى والعالم الثالث، وأن الاتحاد السوفييتى ليس بدعا من الدول فى هذا الشأن.

غير أننا نرى أن ثمة فرقا كبيرا بين فصل الدين عن الدولة على أساس مبدأ علمانية الدولة وبين الفصل على أساس مبدأ إلحادية الدولة.

فالدول الغربية العلمانية لا تحارب المسيحية؛ ولهذا فإن الخطر على الدين في البلدان الشيوعية حيث يقوم الفصل بين الدين والدولة على أساس إلحادى هو أبعد أثرا وأعمق غورا[١٠]".

وشهادة الدكتور كلها فى غاية الأهمية، وليتنا نستطيع اقتباس فقرات مطولة منها ولكن المقام لا يساعدنا على ذلك؛ ولهذا سنقوم باختيار ما نحتاجه منها للدلالة على المناخ العام الذى كان يسود هذا البلد الذى حصل منه هذا المرتد على أعلى الشهادات.

مع الأخذ بعين الاعتبار أن إسماعيل أدهم حاول تبرير اختياره لموقفه الإلحادى بإسناده إلى قاعدة علمية، وربما يكون ذلك أثرا من آثار إقامته فى الاتحاد السوفييتى والدراسة الخاضعة للمناهج الشيوعية التى تؤدى حتما إلى الإلحاد حيث " ترى الماركسية أن النظرة العلمية مادية إلحادية بالضرورة، وأن المزيد من العلم طريق موصل إلى نبذ الألوهية، والإيمان بسيطرة الإنسان على الكون، وإلى اكتشاف القوانين المتحكمة فى حركة ظواهر الطبيعة والمجتمع حيث لا مكان – فى زعمهم– لإرادة الله سبحانه.

وقد أدى ذلك عندهم إلى ضرورة دراسة جميع العلوم من منطلق إنكار وجود الله تعالى، ورفض التفسير الدينى لظواهر الطبيعة والمجتمع، ومحاولة إثبات بطلانه فى مواجهة حقائق العلم.

وبذلك أخذت علوم كثيرة مثل الجيولوجيا والفلك والكيمياء والطبيعة والأدب وغير ذلك منحى إلحاديا صرفا فى دراستها وتدريسها بحيث أصبحت أداة لتمكين الإلحاد فى نفوس التلاميذ على مختلف المستويات والأعمار"[١١].

بل إن الأمر تجاوز ذلك إلى إنشاء مؤسسات للإلحاد مثل: معهد الإلحاد العلمى بأكاديمية العلوم الاجتماعية، وقسم الإلحاد العلمى فى معهد جرتن للتربية، وإنشاء دور للطباعة تحت أسماء تعمل فى نفس الإطار مثل دار "الملحد" للنشر، ودار " الكافر" للنشر، وصحيفة "الكافر"، والمؤسف بل والمحزن أن الإسلام قد نال الجانب الأكبر من الهجوم عليه داخل هذه المنظومة الإلحادية الجائرة

بالتجرؤ والافتراء عليه بزعم التناقض بين الإسلام وبين العلم والحضارة، وإثارة الشك فى إلهية النص القرآنى، واستخدام الفنون فى الهجوم على الإسلام والترويج للإلحاد، وقطع الصلة بين الإسلام والأخلاق، وتقديم بدائل للجانب الاجتماعى من شعائر الإسلام.... إلى آخره[١٢].

وهذا ما أدى إلى ترسيخ الإلحاد داخل تكوين إسماعيل أدهم، وقد صرح هو بذلك فى قوله: " إنى خرجت عن الأديان وتخليت عن المعتقدات، وآمنت بالعلم وحده وبالمنطق العلمي...، وقد مكن ذلك الاعتقاد فى نفسى الأوساط الجامعية التى اتصلت بها"، ثم يسترسل قائلا..." أنا ملحد، ونفسى ساكنة لهذا الإلحاد ومرتاحة إليه، فأنا لا أفترق من هذه الناحية عن المؤمن المتصوف فى إيمانه.

نعم لقد كان إلحادى بداءة ذى بدء مجرد فكرة تساورنى ومع الزمن خضعت لها مشاعرى، فاستولت عليها، وانتهت من كونها فكرة إلى كونها عقيدة. [١٣]"

وإننى أرى أن تحول الإلحاد عنده وتطوره من فكرة إلى عقيدة قد تم فى المرحلة الزمنية الثالثة من عمره، وهى تلك التى قضاها فى الاتحاد السوفييتى يؤكد ذلك ما ورد فى اعتراف أحد الشيوعيين المصريين فى قوله عن الحكومة الأفغانية قبل الغزو السوفييتى لأفغانستان: إنها "حاربت المتدينين حربا شعواء، وأقحمت نظما تقدمية على شعب قبلى يعيش حالة من التخلف، وقمعت كل العناصر الديموقراطية، ثم جاء وقت اضطرت فيه إلى الاستعانة بالقوات السوفييتية...

وهناك أشياء وظواهر كثيرة كنا نراها، ومع ذلك لا نكتشف حقيقة الخطأ والانحراف، بل نجد المبررات دائما، ونظل فى حالة رضاء عن الذات لحد حجب بعض ما شاهدناه عن القارئ، وهذا خطأ مهنى وسياسى معا؛ لأن من حق القارئ أن يعرف ما الذى جعل مثل تلك " الآفة" تتمكن فى معظم الكتاب والمثقفين الماركسيين؟

أعتقد أنها تعود إلى أنهم تعاملوا مع تلك النظرية كأنها دين من الأديان السماوية لايأتيها الباطل من خلف أو أمام أو شمال أويمين.

وأصبح الارتباط بها نوعا من اعتناق عقيدة دينية، وكما حدث في كل الأديان وجد متعصبون متطرفون كذلك وجد في الماركسية المتعصبون المتطرفون الذين نسميهم بالنصوصيين الذين يصرون على تجاهل حقائق العصر ويصرون على تطبيق النص بالحرف:

قال ماركس، قال لينين، وقال ستالين، وقال ماوتسي تونج... وهكذا، ومن يخرج على هذه النصوص فهو مرتد.." [١٤].

ومما يؤكد هذا الاستنتاج أيضا قول الدكتور سعد مصلوح تحت عنوان "التعميد الشيوعى لشخصية الفرد": "هذا المصطلح من صنعنا نطلقه على ما يسميه الكتاب السوفييت خلق إنسان جديد مقطوع الصلة تماما بماضيه الدينى وانتمائه القومى.

لا إيمان له إلا بالوطن السوفييتى "المجيد"، ولا تقديس إلا للعمل الشيوعى، ولا مطمع له فى ملكية خاصة.

أقوال زعمائه هى كتابه المقدس.

والزعماء أنفسهم هم رسله وأنبياؤه، والذين يقتلون تحت ألويتهم هم قديسوه وأولياؤه، وهكذا يتم تعميد الفرد، ودخوله فى الدين الجديد" [١٥].

٣- مفتاح شخصيته، وصفاته، وعلاقة ذلك بتحوله إلى الإلحاد:

سنتعرف فى هذه الفقرة على بعض صفاته، وعلاقتها بإلحاده، ومفتاح شخصيته الذى نلتقى به فى آخر هذه الفقرة، ونحاول من خلال هذه المعالجة الربط بين ما يمكننا استنباطه من هذه الصفات من خلال مطالعة الأسباب التى أعلنها للتبرير لإلحاده، حيث نطالع معا ما قاله بنصه: "إن الأسباب التى دعتنى للتخلى عن الإيمان بالله الكثير منها ما هو علمى بحت، ومنها ما هو فلسفى صرف، ومنها ما هو بين بين ، ومنها ما يرجع إلى بيئتى وظروفى، ومنها ما يرجع إلى أسباب سيكولوجية.

وليس من شأني في هذا البحث أن أستفيض في ذكر هذه الأسباب، فقد شرعت منذ وقت أضع كتابا عن عقيدتي الدينية والفلسفية، ولكن غايتي هنا أن أكتفي بذكر السبب العلمي الذي دعاني للتخلي عن فكرة " الله" (١٦)".

ونلاحظ هنا أنه تحدث كثيرا بينما لم يقل شيئا مفيدا، اللهم إلا حديثه عن السبب العلمي الذي برهن به على موقفه الإلحادي، وهو ما سنحاول مسايرته فيه فيما يلي من صفحات هذا الفصل، ولكننا قبل الشروع في ذلك نركز على أحد الأسباب التي ذكرها وهو ما يتعلق بالجانب النفسي، وهو ما أشار إليه باقتضاب في قوله: "ومنها ما يرجع إلى أسباب سيكولوجية"، وإن كان هو لم يفصح عنها فإننا نحاول إلقاء الضوء عليها من خلال بعض الإشارات الواردة في حديث من تناولوه بالذكر، فها هي الأستاذة صافي ناز كاظم تصفه "بالمخبول"، وها هو الأستاذ فتحي محمود يصفه بأنه " مضطرب نفسيا" كما ذكرنا في المبحث السابق، كما يقول عنه الأستاذ رجاء النقاش: "المعروف عن "إسماعيل أدهم" أنه كان كثير الأوهام، وأن الغموض يملأ حياته الشخصية وحياته العلمية، وقد ادعى أنه حائز على شهادة الدكتوراه من روسيا، وأنه أستاذ في الجامعات الروسية، وأنه عضو بالأكاديميات العلمية في عدد من عواصم أوروبا، ويرى كثير من الباحثين أن هذه الدرجات والمناصب العلمية التي ادعاها لنفسه كانت أوهاما في أوهام، وأنها جميعا لا أصل لها من الحقيقة، وأنه كان كاذبا "ونصابا" فيما نسبه إلى نفسه من ألقاب علمية مختلفة (١٧) ".

ولأستاذنا الدكتور محمد إبراهيم الفيومي نظرة جديرة بالتسجيل للإنسان الذي اختار عدم الإيمان نقتبس منها هذه السطور التي تصلح للإشارة بها إلى موقف إسماعيل أدهم وفيها يقول: " ...فعدم الإيمان على المستوى النفسي: يؤدي إلى تشويش في الرؤية نحو غد الآخرة، هذا من حيث مستوى الإنسان النفسي.

ومن ناحية عضويته في الهيئة الاجتماعية: فهو مهدد بالطرد منها، وغير مشهود له بالعدالة، وقد تنادى بعض الهيئات الاجتماعية بحل دمه، فلا رفق ولا لين مع مريض الإيمان؛ لأن هذا المرض الذي يلم بصاحبه تنتشر عدواه في

المجتمع، وهو من الأمراض الخبيثة التى يرى المجتمع أنه يجب عليه مكافحتها، ويحجر على من فى قلوبهم زيغ مخافة الفتنة.

أما من حيث صلته بتراثه التاريخى: فهو بموقفه الرافض للإيمان يشق عصا طاعة تراثه، وتلك وصمات سياط قاسية يتعرض لها من يزور عن الإيمان ويجهر بازورراه"[١٨].

ونستأنس فى سياقنا هذا بشهادة الشيخ محمد الغزالى التى يقول فيها: "إن غرور الجاحدين بما لديهم من ظاهر العلم لا يلقى لدى إلا الاحتقار والمقت، وما أعد منكرى الألوهية إلا أشباه دواب مهما كانت حصيلتهم من العلوم، ومكانتهم على هذا التراب.

وإذا كان الإلحاد عاهة تزرى بصاحبها على هذا النحو فكيف إذا كان صاحبها داعية لجهالته متحمسا لها[١٩] ".

ثم يشخص الإلحاد من جديد فى سياق آخر بقوله:" الإلحاد يوجد على أنه عوج فكرى، أو خلل نفسى، أو انحراف فردى، أو جهل موقوت، أو غفلة عامة على أسوأ الأحوال"[٢٠].

وليس بعيدا عن هذه الصفات ما ارتآه الأستاذ العقاد فى الإنسان غير المؤمن بأنه إنسان "غيرطبيعى" فيما نحسه من حيرته واضطرابه ويأسه وانعزاله عن الكون الذى يعيش فيه، فهو الشذوذ وليس هو القاعدة فى الحياة الإنسانية، وفى الظواهر الطبيعية[٢١].

فإذا عدنا من هذه الشهادات الصالحة للتطبيق على الملحدين بصفة عامة إلى الملحد الذى نتعامل معه الآن وجدنا أنه من السهولة بمكان تنزيلها عليه، والتعرف من خلالها على مفتاح شخصيته، وهو الغرور الذى ليس له ما يبرره سوى أوهامه التى سيطرت عليه، وظل طول عمره خاضعا لها، ولنقرأ ما كتبه عن نفسه فى معرض نقله عبارة لهنرى بوانكاريه عن الصدفة يقول فيها: "إن الصدفة تخص جهلنا بالأسباب، والركون للمصادفة اعتراف بالقصور عن تعرف هذه الأسباب، ثم يعلق عليها قائلا: "والواقع أن كل العلماء يتفقون مع بوانكاريه

في أعتقاده منذ تفتح العقل الإنساني، غير أني من وجهة رياضية أجد للصدفة معنى غير هذا معنى دقيقا بث للمرة الأولى في تاريخ الفكر الإنساني، وهذا المعنى لا تؤتيني الألفاظ العادية للتعبير عنه"[٢٢].

فهذا المغرور يرى اتفاق كل العلماء حول معنى الصدفة إلا أنه وجد لها معنى آخر للمرة الأولى في تاريخ الفكر الإنساني ثم أفلت من ذكره صراحة لأن الألفاظ العادية لا تمكنه من التعبير عنه كما يزعم، وهي سمة ماركسية أشار إليها الدكتور يحيى هاشم بقوله عن الماركسيين: "إن عبيد المادة عندما يجدون صعوبة في التعبير عن إلههم يعتذرون بمثل ما يعتذر به المؤمنون بالله من ضيق وعاء اللغة البشرية عن استيعاب حقائق الألوهية[٢٣]"، وما زلنا مع الإطلاقات العريضة التي تشي بتضخيم الذات عند هذا المرتد، وفي ذلك نقرأ سطورا يقف فيها موقفاً عدائيا من سنة سيدنا رسول الله ﷺ، وفي ذلك يقول: "الاختلاق وصل فعلا إلى الإسناد، فكم من حديث نطمئن إليه بدعوى صحة سنده، وفي الواقع إن هذا الاطمئنان ضعف في النظر، فمن يدريني أن الاختلاق لم يصل إلى الإسناد؟ ومن يدريني أن الحديث ليس مختلقا مع إسناده؟

مسألة هامة كل الأهمية لم تطرأ على بال أحد، وبقيت في جوف الزمان إلى اليوم[٢٤]" أرأيت إلى أي مدى وصل غروره؟ وصل إلى الادعاء باختلاق الحديث سندا ومتنا أو رواية ودراية ولم يكتشف ذلك إلا هو بعبقريته الباهرة، أو عدائيته الفاجرة إن أردنا الوصف الدقيق.

٤- أسرة إسماعيل أدهم:

رغم معرفتنا بمكان ولادته بالإسكندرية إلا أنه لم يكن مصرياً ولا عربياً، فأبوه تركي وأمه ألمانية، فهو يقول عن أبيه: " ...أتى والدي إلى الآستانة وقد وضعت الحرب أوزارها، ودخل الحلفاء الآستانة، ولكن لم يبق كثيرا حيث غادرها مع مصطفى كمال إلى الأناضول ليبدأ مع زعماء الحركة الاستقلالية حركتهم"[٢٥]، ونحن ما زلنا نذكر من حديث الزركلي عن أبيه أنه كان ضابطا بالجيش التركي، وهذا يفسر سر انتقاله مع أتاتورك إلى الأناضول، فإذا عدنا إلى

الوراء للبحث في جذور العائلة لم نجد أمامنا إلا المعلومات القليلة التى أوردها الزركلى عن أجداده، فجده لأمه كان معلما للغة التركية فى جامعة برلين، ومن هنا لا ندرى كيف التقى أبواه، هل جاء جده مع أسرته إلى تركيا بحكم تخصصه فى لغتها وتم اللقاء؟ أم سافر أبوه إلى برلين والتقى بأمه وتزوجها هناك؟ لا علم لنا بذلك فالمسألة داخل دائرة الاحتمالات والفروض.

أما عن سر ارتباط هذه الأسرة بمصر فيفسره المنصب الرفيع الذى شغله جد أبيه كمدير لديوان المدارس المصرية فى عهد محمد على، وإننا نتساءل: ألم يكن من بين المصريين من لديه الكفاءة لشغل هذا المنصب؟ أم أن قدر المصريين أن يتولى أمورهم أغراب عنهم وخصوصا فى أخطر دوائر الحياة وهو حقل التعليم؟ وكان ذلك واضحا أيام تبعية مصر للخلافة العثمانية، والاستعمار الإنجليزى، وحتى هذه اللحظة رغم حرية مصر واستقلالها يحاول الغرب التدخل لإصلاح مناهج التعليم فيها لتتناسب مع الرؤية الغربية وخصوصا فى دائرة الصراع بين المسلمين وبين بنى إسرائيل حول القضية المحورية فلسطين.

وإننا لم نبرأ بعد من التفسير الماركسى للتاريخ حتى يراد منا الإيمان بالتفسير الغربى له؛ لطمس الهوية واجتثاث الجذور، وتوجيه المستقبل لصالح أعدائنا.

ونعود إلى أسرة إسماعيل أدهم لنعلم أنه كان الابن الثالث لأبويه بعد شقيقتيه، ونأتى على أخطر ميراث للأبناء عن الآباء، فقد ورث إسماعيل الإسلام عن أبيه، بينما تابعت الابنتان ديانة أمهما، وكان أبوه دائم الأسفار؛ ومن هنا فقد عهد به إلى زوج عمته؛ ولهذا كان يعانى من ازدواجية دينية، ومما أدى إلى هذه الازدواجية فى شخصيته أنه كان بالإضافة إلى التردد على الكنيسة مع أختيه كل أحد كان يذهب إلى المسجد مع زوج عمته لأداء صلاة الجمعة، وصلاة التراويح فى شهر رمضان، فضلا عن صيام هذا الشهر الكريم، وفيما يبدو أنه كان يصنع ذلك كله مضطرا دون اقتناع بدليل الإسراع بالمروق من الإسلام، والاستعلان بإلحاده.

٥- إلمامه باللغات الأجنبية:

يعترف إسماعيل أدهم بأنه تعلم اللغة العربية على يد زوج عمته، وتعلم الألمانية والتركية على يد شقيقتيه[٢٦]، وقد جاء اعترافه هذا في رسالة "لماذا أنا ملحد؟"، وتاريخ نشرها ١٩٣٧م، بيد أنه ذكر في مؤلف آخر نشره قبل هذه الرسالة بعام أنه يعرف عددا أكبر من اللغات، وفي ذلك يقول بالحرف الواحد: "... فدققت معظم المصادر العربية والتركية والفارسية مخطوطة ومطبوعة في دور الكتب بمختلف أمصار أوروبا وآسيا وأفريقيا، وراجعت جل ما كتبه المستشرقون بالألمانية والروسية والإيطالية والإنجليزية والفرنسية..."[٢٧]، وقد جاء في البرنامج الإذاعي الذي سبقت الإشارة إليه أنه يحسن التحدث بست لغات[٢٨]، وربما يأتي هذا التضارب بسبب اتصافه بالكذب، وقد وصمه بذلك رجاء النقاش كما استشهدنا فيما سبق برأيه في هذا الملحد الذي لعله لم يع الحكمة العربية التي تقول: إذا كنت كذوبا فكن ذكورا.

٦- مطالعاته ومؤلفاته:

لا أستطيع كتمان دهشتي من هذه الشخصية العجيبة، وقد ذكرنا في الفقرة السابقة زعمه بالقيام بتدقيق معظم المصادر باللغات: العربية والتركية والفارسية، سواء أكانت مخطوطة أم مطبوعة في أمصار ثلاث قارات: أوروبا وآسيا وأفريقيا كما راجع جل إنتاج المستشرقين باللغات: الألمانية والروسية والإيطالية والإنجليزية والفرنسية، فهل يمكننا تصديق هذه الادعاءات من شخص لم يقدر له أن يعيش سوى تسعة وعشرين سنة فقط، في أسرة غير مستقرة لأبوين مختلفين في الديانة، والأب دائم السفر، والأم غادرت الدنيا ورضيعها في عامه الثاني من العمر غير المبارك، فإذا أضفنا إلى ذلك أنه كان دائم التنقل وذكر لنا ثلاث محطات في حياته: مصر وتركيا، وروسيا، مع ملاحظة حصوله على درجتين للدكتوراه في عام واحد ١٩٣٣م كما ذكر ذلك في رسالة "لماذا أنا ملحد؟"، وليس في عام ١٩٣١م كما جاء في الأعلام للزركلي، وموضوع الرسالة الأولى

في الرياضيات البحتة، وموضوع الرسالة الثانية في الطبيعيات النظرية، وقد حصل عليهما وهو في الثانية والعشرين، فإذا صح هذا فنحن إذن أمام ظاهرة من الظواهر غير المعتادة، وهذا ما لا أصدقه، ولا يطمئن إليه قلبي، لماذا؟

لأنه وصل موسكو في عام ١٩٣١م أي أنه مكث طالبا في جامعتها حولين كاملين أنجز فيهما رسالتين في موضوعين من أعقد الموضوعات، فهل هذا معقول؟!!

فأين الدراسات التمهيدية للتسجيل لدرجتي الدكتوراه؟، وما هو المدى الزمني الأدنى لمناقشة الرسالة بعد إعدادها؟، وما هي القواعد الأكاديمية المنظمة لذلك كله؟

لابد من التذكير بسماته الشخصية التي سبق أن نوهنا بها من أنه كان كثير الوهم، وكان كذابا ومغرورا، والذي يضيف مزيدا من التأكيد على هذه السمات قوله عن نفسه: " فكرت أن أضع كتابا عن حياة محمد ونشأة الإسلام، وبالفعل مضيت في المشروع إلى حد ليس باليسير، وبان لي أن الكتاب الذي فكرت في وضعه لن يخرج في أقل من ستة مجلدات ضخمة في نحو الثلاثة آلاف صفحة، وما انتهيت إليه مجلد ضخم في خمسمائة صفحة"[٢٩]، ثم انتهى به الأمر إلى القيام بنشر أقل من أربعين صفحة مليئة بالافتراءات والحقد على الإسلام الذي تمثل في الطعن في السنة النبوية المطهرة وهي الرسالة التي نشرها تحت عنوان "من مصادر التاريخ الإسلامي"، وقد صادرتها الحكومة[٣٠]، فأين مناخ الحرية الذي يتباكى عليه المغرضون؟، ولكن الأمر المثير للاستغراب هو تراخي الحكومة عن مصادرة الرسالة الأخطر لذلك المرتد، وهي التي نشرها بعد الرسالة المصادرة بعام أي في ١٩٣٧م، فهل تعرضت الحكومة لضغوط خارجية لإغماض الأعين والتغاضي عن نشر الإلحاد والترويج له؟، لا نملك الإجابة اليقينية على ذلك، ولكن كل الاحتمالات واردة، وخصوصا وقد كانت مصر آنئذ خاضعة للاستعمار الإنجليزي، ومن شأن الاستعمار في كل زمان ومكان التشجيع على وأد العقيدة الدينية، وقتل الحمية الوطنية، فضلا عن طمس الهوية، ونشر

الفتن الطائفية، وإحياء النعرات القومية.. إلى غير ذلك من الدواهي والرزايا، ومما يساعد على بلوغ هذه الأغراض، وتحقيق هذه الأهداف أو بعضها ترك الساحة مفتوحة، والمناخ متاحا للترويج للإلحاد، وربما يكون هذا هو سر ترك رسالة "لماذا أنا ملحد؟" دون مصادرة.

وقد دلنا الدكتور إبراهيم عوض على أبحاث أخرى لهذا الملحد عن أدب توفيق الحكيم، وعن جميل صدقي الزهاوي، وعن خليل مطران[٣١]، والآن من حقنا أن نتساءل ما علاقة تخصصه في الرياضيات البحتة والطبيعيات النظرية بالكتابة في الإسلام؟! وكيف وجد الوقت الكافي لكثرة الأسفار في مختلف الأمصار، والخروج بهذا القدر الضخم من المطالعات والمراجعات والمؤلفات الموسوعية ؟

وقد استرعى انتباهي أنه كان يقوم بالترويج لبيع مؤلفاته بنفسه من خلال التنويه بطباعتها وكيفية الاشتراك لشرائها على أقساط شهرية ترسل على عنوانه بالإسكندرية، والملاحظ في هذه الإعلانات المبالغة القريبة من ضفاف الكذب، ومن ذلك ما أورده تحت عنوان: حياة محمد ونشأة الإسلام ٦ أجزاء في ٣٠٠٠ صفحة عن قريب (يناير ١٩٣٧م) الجزء الأول في ٥٠٠ صفحة من القطع الكبير، ثم يذكر نبذة عن موضوع الكتاب، نلتقط منها هذه السطور: ".. يدحض الكاتب فكرة ذهاب إبراهيم إلى الحجاز مع ابنه إسماعيل ونشأة العرب المستعربة من نسله.

ومن كل هذا يتطرق إلى مصادر حياة الرسول بالنقد ويكشف عن اضطراب أصول علم الحديث، وقواعد السيرة ويتناول القرآن ببحث ضاف في جمعه وترتيبه وتدوينه.

ويبحث في علم الأنساب من وجهة عامة، ثم ينقد نسب الرسول ويكشف على أنه لم يكن من نسل عبد المطلب[٣٢]".

فإذا كان الإعلان عن الجزء الأول من كتاب حياة محمد يحتوي على مثل هذه الافتراءات والأكاذيب المفضوحة فماذا عما ورد في الكتاب نفسه؟ فلقد

تعرفنا فى هذا الاقتباس الموجز على إنكاره لذهاب أبى الأنبياء إبـــراهيم وابنـــه إسماعيل عليهما السلام إلى الحجاز وفى هذا تكذيب صريح لما ورد فى القــرآن الكريم حول هذه الأحداث، وعلى زعمه باضطراب أصــول الحــديث، وعلـــى تشكيكه فى نسب الرسول ﷺ، مما يؤكد حقده على الإسلام، وعداوته له.

والذى يعنينا الآن هو غزارة إنتاجه بصورة تبعث على الريبة، وتدفع إلى الشك، وخصوصا ونحن نفتقد هذه المؤلفات، ونكرر التساؤل: هل قام بطبع هذه المجلدات فعلا ولكنها لم تصل إلينا؟ أم لم يقم بطباعتها؟ واكتفى فقط بالإعلان عنها.

ومهما يكن من أمر فإن الذى يستريح إليه الصدر، ويطمئن إليه الفؤاد أن هذا الشاب كان يعد إعدادا واضحا لأداء دور مشبوه فى الكيد للإسلام، وليس أدل على ذلك من تقلبه فى هذه البيئات وتركه بصمة سوداء فى كل منها:

_ ففى تركيا قام بتأسيس جماعة للترويج للإلحاد، وحاول ربطها بما يناظرهـــا فى أمريكا.

_ وفى روسيا قام بنشر بحثه "الحديث والروايـــة" بمجلـــة المعهـــد الروســـى للدراسات الشرقية، كما أعاد نشره باللغة التركية، ثم باللغة الفرنسية بمجلـــة أورينت التى كانت تصدر فى موسكو فى ذلك الوقت.

فما علاقة روسيا مهد الإلحاد الحديث فى العـــالم بالدراســـات الإســـلامية وخصوصا ما يتعلق منها بالحديث الشريف؟

العلاقة أيها القراء الكرام تأتى من خلال التعرف على أفكـــاره المجنونـــة المبثوثة بين سطوره الملعونة، من ذلك قوله مثلا:" اقترنت نشأة المدينة الإسلامية بخلافات داخلية فتحت أبواب الانتحال أمام رجال ذلك الـــدين فـــانغمر التـــاريخ الإسلامى بعشرات الألوف من الروايات الكاذبة بل والمئات المؤلفة من الأحاديث المختلقة على الرسول[٣٣] "إلى أن يقول:" وظهر لى من خلال بحثى أن الحـــديث مختلق جله إن لم يكن كله على الرسول، وأن السيرة معظمها أقاصـــيص، وأن القرآن هو المصدر الوحيد الذى يمكن الاعتماد عليه والاستدلال بآياته على وقائع التاريخ[٣٤]" إلا أنه يتناول القرآن الكريم تناولا ماديا خاضعا لمنهج البحث عنـــد

الماركسيين، ومن ناحية أخرى هو كاذب فى ادعائه هذا؛ لأنه أنكر ذهاب إبراهيم وابنه إلى الحجاز، وهو فى ذلك شريك لطه حسين، أو تابع له؛ لأن طه حسين نشر الطبعة الأولى من كتابه فى الشعر الجاهلى قبل كتاب أدهم بعشر سنوات، ومما جاء فيه قوله:" للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل وللقرآن أن يحدثنا عنهما أيضا، ولكن ورود هذين الاسمين فى التوراة والقرآن لا يكفى لإثبات وجودهما التاريخى، فضلا عن إثبات هذه القصة التى تحدثنا بهجرة إسماعيل بن إبراهيم إلى مكة ونشأة العرب المستعربة"[٣٥]، وتجدر الإشارة إلى أن إسماعيل أدهم قد اتهم طه حسين بالإلحاد والثورة على الأديان كما صرح بذلك أنور الجندى فى كتابه طه حسين فى ميزان الإسلام[٣٦]، ولا يعنينا هنا سوى المشابهة فى هذه الجزئية بين طه حسين وإسماعيل أدهم التى قام الاثنان فيهما بتكذيب القرآن الكريم الذى أشار إلى الحقيقة فى قول الحق تبارك وتعالى على لسان إبراهيم عليه السلام وهو يخاطب ربه قائلا: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾[٣٧]، وقوله تعالى: ﴿ وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ....﴾[٣٨] إلى آخر الآيات.

واللافت للنظر أنه فى الفترة التى أقامها فى روسيا وفى عام ١٩٣٥م بالتحديد قام بالاشتراك مع اثنى عشر مستشرقا بنشر مجموعة بحوث حول تراث الإسلام[٣٩]، وقد تعرفنا على بعض افتراءاته هو فيما سبق فماذا إذن عن رؤية المستشرقين الروس للإسلام ولتراثه؟ إننى أرى أننا بأمس الحاجة إلى إعادة نظر فى إنتاج المدرسة الروسية للاستشراق، وليس هذا فحسب بل إننا أحوج ما نكون إلى نبش سيرة هذا الملحد لبيان دوره المشبوه فى الهجوم على الإسلام من خلال

الأدوار المرحلية المتتالية، من تأسيس جماعة تدعو للإلحاد في تركيا، ثم الهجوم على السنة في روسيا، ثم المجاهرة بالإلحاد والدعوة إليه في مصر، ثم نهايته بالانتحار الذى نرجئ الحديث عنه قليلا.

أما بصمته فى مصر فقد تمثلت فى محاولته الفاشلة لتأسيس جماعة تدعو للإلحاد، وفى ذلك يقول: "كان صديقى البحاثة إسماعيل مظهر فى ذلك الوقت يصدر مجلة "العصور" فى مصر، وكانت تمثل حركة معتدلة فى نشر حرية الفكر والتفكير والدعوة للإلحاد، فحاولنا أن نعمل على تأسيس جماعة تتبع جماعتنا فى مصر وأخرى فى لبنان..، ولكن فشلت الحركة"(٤٠).

إلا أنه لم ييأس فقام فى عام ١٩٣٦م بنشر بحثه عن الحديث الذى سبق له نشره فى موسكو باللغات: الروسية والتركية والفرنسية ثم أعاد نشره باللغة العربية فى مصر كما ذكرنا، وبعد عام واحد قام بنشر كراسته " لماذا أنا ملحد؟" فى عام ١٩٣٧م.

٧- خلفيته الثقافية:

لا غنى لنا فى مطلع هذه الفقرة عن التذكير بما ورد من معلومات بشأن أسفاره، ومطالعاته، ومؤلفاته، واللغات التى كان يتقنها، وذلك كله ييسر لنا الولوج فى خلفيته الثقافية لإلقاء الأضواء على مكونات شخصيته، وروافدها، وما دور هذه المكونات فى وصوله إلى الإلحاد، كما أننا نعتذر مقدما عما يصادفه القارئ من تداخل بين هذه الفقرة وبين الفقرة السابقة.

ولا مفر من العودة إلى كلام إسماعيل نفسه للتعرف على بدايته مع القراءة فى مكتبة والده التى كانت مشحونة بآلاف الكتب على حد تعبيره لنعلم أنه بدأ المطالعة فى سن مبكرة، حيث طالع وهو ابن الثامنة إنتاج الشعراء والروائيين الأتراك وخصوصا المشاهير منهم، ثم قرأ لبلزاك وجى دى موباسان وهيجو من الغربيين، ثم ينتقل بنا إلى تركيا لتبدأ فترة أخرى من حياته يقول عنها: "...ظللت أربع سنوات من سنة ١٩١٩م إلى ١٩٢٣م فى الآستانة... وفى هذه الفترة قرأت لداروين: أصل الأنواع وأصل الإنسان، وخرجت من قراءتهما مؤمنا بالتطور"(٤١).

قد تكون هذه هى البداية الرئيسية لقصة مروقه من الدين، وهو ما يزال غضا طريا ضعيف التكوين، ولكن اللافت للنظر هو مطالعته لكتب دارون مما يجعلنا نتساءل: هل كانت قراءته لكتب دارون من اختياره هو؟ أم فرضت عليه؟

فإذا لاحظنا أنه بدأ هذه المطالعة وهو فى الثامنة من عمره فكيف يستقيم لنا فهم أنه أتم حفظ القرآن وتجويده وهو فى العاشرة؟، وهل توازت قراءته لإنتاج دارون مع تلاوته لكتاب الله؟

ما علينا من ذلك فنحن على يقين من كذبه كما أسلفنا، فإذا عدنا إلى أقواله عن قراءاته فى هذه الفترة ألفيناه يذكر أنه قرأ لكثير من كبار الفلاسفة والطبيعيين الغربيين، ومن أشهرهم: هكسلى وهيكل، وديكارت وهوبس وهيوم وهو فى الثالثة عشرة، ثم قرأ لبوانكاريه ولوباشفسكى وهو فى الرابعة عشرة من عمره.

وسنقوم بعد قليل بإلقاء الأضواء على أفكار بعض هؤلاء الأعلام، ولكن بعد أن نعرف القارئ باللحظة التى أعلن فيها الثورة على الدين، وكانت أمام والده المتهم عنده بالتعصب للإسلام، وفى ذلك يقول: ..."توقف خط دراستى برجوع والدى من الآستانة ونزوحه إلى مصر واصطحابه إياى، وهنالك فى الإسكندرية خطوت أيام مراهقتى، ولكن أبى كان لا يعترف لى بحق تفكيرى، ووضع أساس عقيدتى المستقلة، فكان يفرض على الإسلام والقيام بشعائره فرضا، وأذكر يوما أنى ثرت على هذه الحالة، وامتنعت عن الصلاة وقلت له: إنى لست بمؤمن، أنا داروني أؤمن بالنشوء والارتقاء"[٤٢].

وعلى طريقة كتاب السيناريو: اختار هذا الابن العاق أباه ليعلن عن إلحاده أمامه، ثم اختار مصر ليجاهر بكفره فيها، هذا عن المكان فماذا عن الزمان؟!

الزمان يقع فيما بين عام ١٩٢٣م تاريخ عودته من تركيا إلى مصر وعام ١٩٢٧م تاريخ عودته إلى تركيا لاستكمال دراسته الجامعية بما يفيد أنه أعلن إلحاده فى منتصف العقد الثانى من عمره، ولا مفر لنا من الاستنتاج لعدم قيامه

بذكر تاريخ إعلان ثورته على الإسلام فى حضرة أبيه رغم ولوعه بتسجيل الأحداث باليوم والشهر والسنة فى كثير من كتاباته.

٨- أهم الذين قرأ لهم إسماعيل أدهم أو تأثر بهم:

فى بداية هذه الفقرة نعترف بعدم إمكانية المسح الشامل لإنتاج العلماء والفلاسفة الذين ساهموا بشكل أو بآخر فى التكوين الثقافى لإسماعيل أدهم، لاستحالة ذلك ، ورغم ذلك فإننا سنقوم بإلقاء بعض الأضواء الكاشفة على أهم الأفكار وأخطرها والتى من شأنها التأدى بالمتأثرين بها إلى المروق من الدين، وسنختار نماذج ممن طالع إنتاجهم وتأثر به فى مسيرته الفكرية على النحو التالى:

أولا: دارون:-

هو تشارلز دارون عالم الطبيعة الإنجليزي المشهور الذى ولد فى عام ١٨٠٩م وتوفي عام ١٨٨٢م، هو الذى أقام مذهب التطور، وتكفل بشرحه وبسطه حتى نسب إليه، ولما كان أدهم قد اعترف بأنه قرأ كتابيه " أصل الأنواع" و "أصل الإنسان" فى طفولته فإننا نقوم الآن بالتعريف بأهم الأفكار الواردة فى كل منهما:

أ- **أصل الأنواع:** أخرج دارون كتابه هذا فى عام ١٨٥٩م، وضمنه أربعة قوانين طبيعية هى:

- تنازع البقاء.
- تكون التباينات أو تغير الأفراد.
- الوراثة، وبواسطتها تنتقل هذه التغيرات أو التباينات فى النسل.
- الانتخاب الطبيعى، بمعنى أن الطبيعة تنتخب المتغير من هذه الأفراد والذى يكون له بعض أفضلية(٤٣).

ب- **أصل الإنسان:**

لم يتعرض دارون فى كتابه " أصل الأنواع" لأصل الإنسان ونشأته إلا على سبيل التلميح والإشارة فى آخر فصل فيه، ثم أخرج كتابه الذى تناول فيه

أصل الإنسان فى عام ١٨٧١م، وحدد هدفه فى مقدمته التى أراد منها: النظر فيما إذا كان الإنسان كبقية الأنواع قد تسلسل من صورة كانت موجودة من قبل ثم انقرضت، ثم قام بتطبيق نظريته على الإنسان حيث أعلن صراحة أن الإنسان تطور من نوع سابق له من الكائنات، وقال: إن الفرق بين الإنسان والحيوان فرق بالكم أو بالدرجة فقط[٤٤].

ولا يسعنا المقام أن نفصل القول فى هذا المذهب الذى كانت له آثاره التدميرية على عقائد أهل الأديان السماوية، بل كان معول هدم لضرب عقائد المتدينين، وكما يقول أستاذنا المرحوم الدكتور صلاح عبد العليم: " لقد كان مذهب التطور صيدا ثمينا اتخذت منه الفلسفات المادية سلاحا خطيرا باسم العلم تهاجم به الأديان السماوية وما جاءت به من عقائد، وتهدم به الأخلاق الإنسانية، وتجعل من المجتمع الإنسانى غابة بشرية يسودها الصراع وتحكمها أساليب البطش والقوة[٤٥]".

بل إن الأمر أخطر من هذا بكثير؛ لأن مذهب التطور كان " تعبيرا متفجرا عن منهج فى البحث بلغ من قوته أنه أحل أيديولوجية هى العلم المادى الميكانيكى محل أخرى هى الله"[٤٦].

وهذا بالضبط ما فعله إسماعيل أدهم حينما أعلن أنه ليس مؤمنا إلا بالنشوء والارتقاء، ولم يكتف بهذا بل تطاول على الذات الإلهية مما سنعرض له فى سياقه من هذا الكتاب.

ثانيا: هكسلى:

يعتبر جوليان هكسلى الذى ولد فى عام ١٧٦٠م وتوفى عام ١٨٣٥م أشد تأثيرا، وأعظم خطرا من دارون فى تكوين شخصية إسماعيل أدهم وتهوين أمر الدين لديه، وتيسير المروق منه عليه لأنه كان فاجرا فى إلحاده فاسقا فى سلوكه، بل كان يجاهر بآرائه الإلحادية، ويفاخر بأنه كافر ملحد، بل كان يزعم أن العلم ينكر وجود الله محاولا دعم آرائه الإلحادية بمزاعم علمية؛ ولهذا ألف كتابه: "الإنسان يقوم وحده"؛ ليوهم القراء بأن العلم والإيمان نقيضان لا يجتمعان[٤٧]، بيد

أننا تعرفنا على هكسلي آخر هو توماس (١٨٢٥م-١٨٩٥م) الذي يعتبر من أشهر القائلين بالتطور، وأكثرهم ضجيجا ومهاترة، فقد كان يؤمن بالتولد الذاتي إيمانا قويا حيث زعم أنه توصل إلى مادة تعد حلقة الانتقال من الجماد إلى عالم الحياة ثم أعلن عن تراجعه لأنه تسبب في تضليل الكثيرين من الذين اعتمدوا على شهرته[٤٨]، وسواء أكان هكسلي هذا أم هكسلي ذاك حيث لم يحدد لنا لمن قرأ منهما ذلك الملحد فتأثيرهما واضح عليه لكفرهما الصريح.

وقد قام العلماء بالرد على جوليان هكسلي، ومن أبرزهم كريسي موريسون الذي وضع كتابا في الرد عليه جعل عنوانه " الإنسان لا يقوم وحده" أثبت فيه بمختلف العلوم أن الله بارئ الكون وهو خالق كل شئ[٤٩].

ثالثا: هيكل:

أرنست هيكل الذي ولد في عام ١٨٣٤م وتوفي عام ١٩١٩م الذي يزعم أن الحياة ترجع إلى أصل واحد هو "المونيرا" التي تركبت اتفاقا من الآزوت والهيدروجين والأوكسجين والكربون ثم تطورت على التوالي حتى تكونت جميع الكائنات الحية، وقد حول نظرية دارون إلى نظرية مادية إلحادية متطرفة[٥٠]، ومن أخطر الأفكار التي تبناها هيكل فكرة التولد الذاتي التي قال بها توماس هكسلي وهي فكرة مرفوضة؛ لأنها تصطدم مع الرؤية الدينية لبدء الحياة وخصوصا في الطرح الإسلامي، حيث تقوم هذه الفكرة التي يزعمون علميتها بالقطع بين انبثاق الحياة وبين مصدرها الأصيل وهو الحق تبارك وتعالى، وهو أحد الأهداف الرئيسة عند التطوريين، وقد بلغ من فجور هيكل هذا أن قال: "أعطني هواء ومواد كيماوية ووقتا وأنا أصنع إنسانا"، ولكنه أغفل وحدات الوراثة "الجينات"، وأغفل الحياة نفسها.

لقد كان عليه – لو استطاع – أن يجد وينظم الذرات غير المرئية والجينات ويمنحها الحياة، وحتى في هذه الحالة كانت النتيجة بنسبة ملايين إلى واحد، إنه كان يأتي بوحش لا مثيل له... [٥١].

هؤلاء أهم ثلاثة قرأ لهم إسماعيل أدهم آمنوا بالتطور وأحلوه محل الدين، ومن الواضح أنه تأثر بأفكارهم الإلحادية، ولا نجد تعليقا على مذهب التطور إلا أن نقول مع يوسف كرم: "وقد نسلم بالتطور ثم نرانا مضطرين إلى اعتبار الإنسان نوعا قائما بذاته بسبب ما يختص به من علم ولغة وفن وصناعة وخلق ودين، وهى مظاهر للعقل لا نظير لها ولا أصل فى سائر الحيوان.

وقد نسلم بالتطور ثم نرانا مضطرين إلى الإقرار بموجد للمادة موجه لها لقصور المادة عن تنظيم نفسها، ولكن من العلماء والفلاسفة من يفكرون كالعامة بالمخيلة دون العقل فيسيغون المحالات"(٥٢)، فإذا كان التعليق صادقا على التطوريين فإنه أكثر صدقا على إسماعيل أدهم الذى سوغ المحال بإنكاره وجود الله عز وجل.

<u>رابعا: ديكارت:</u>

يعتبر ديكارت من أشهر من قرأ لهم إسماعيل أدهم إلا أنه للأسف لم ينتهج منهجه الذى توصل من خلاله إلى الاعتراف بوجود الله عز وجل حيث استخدم منهج الشك الذى تدرج من الشك فى الحواس إلى الشك فى الاستدلال العقلى ثم يصل إلى اليقين من خلال البرهنة على وجود الله وصدقه(٥٣).

ومن أدق الدراسات التى عالجت الشك عند ديكارت الدراسة التى قام بها أستاذنا الدكتور محمود حمدى زقزوق فى مقارنته الرائعة بين الإمام الغزالى وبين ديكارت والذى يعنينا هنا هو ذلك التشابه المدهش بين الفيلسوفين، والذى نستطيع من خلال معالجة أستاذنا وضع أيدينا على حركة الشك عند ديكارت الذى قرأ له أدهم فيما ذكر لنا فى رسالته الإلحادية، يقول الدكتور زقزوق: "والبناء الأساسى لحركة الشك عند الغزالى وديكارت واحد؛ فنحن نتبين عند كل منهما مراتب مختلفة للشك، وهى:

الشك فى المعارف الحسية.

ثم الشك فى المعارف العقلية الأولية.

ثم – فى النهاية – الشك فى الواقع كله على الإطلاق، وما يتعلق بذلك من حجة المنام، وتصور شيطان مخادع أو إله مضل.

إنه الشك المطلق فى كل شئ وفى معرفة كل شئ، وفوق ذلك فى وجود كل شئ، إنه الشك الذى لا يبقى فى أثناء الشك إلا على الشاك نفسه فقط.

والصورة التى عرض بها كل من الغزالى وديكارت الشك المنهجى ليست بالتأكيد من قبيل المصادفة، بل إنها تسمح باستخلاص نتائج معينة، فقد عرضا شكهما فى صورة إخبار عن تجربة شخصية"[٥٤].

وبعد أن يعرض الدكتور زقزوق مراحل الشك عند الغزالى وديكارت يقوم بإيراد الحل عند كل منهما، ونقتصر هنا على التركيز على خاتمة المطاف عند ديكارت التى وصل من خلالها إلى معرفة وجود الله، وفى ذلك يقول: " ونتيجة بحث ديكارت أو بتعبير أدق ختام بحثه يتمثل فى معرفة ليست نتيجة برهان منطقى، كما لا يمكن أن يبرهن عليها منطقيا، وإنما هى معرفة مدركة إدراكا مباشرا، وتلك هى معرفة وجود الله[٥٥] " ولم يكتف ديكارت بذلك بل أقام الأدلة على وجود الله تعالى، والسؤال الآن لماذا لم يتأثر إسماعيل أدهم بالمنهج الديكارتى الذى أوصله إلى معرفة وجود الله تعالى بدلا من الطريق المظلم الذى سلكه ووصل فى نهايته إلى الإنكار بدلا من الإقرار؟

خامسا: هيوم:

يعتبر هيوم الذى ولد فى عام ١٧١١م وتوفى عام ١٧٧٦م أحد الذين تأثر بهم إسماعيل أدهم بل قال عنه: إنه كان أقرب الذين قرأ لهم إلى نفسه، ولعل مطالعة آراء هيوم تضع تعليلا لاعترافه بهذا القرب، ونكتفى منها بقيامه بنقد الأدلة على وجود الله فيقول:

"إن دليل الغائية المشهور قائم على تمثيل الكون بآلة صناعية وتمثيل الله بالصانع الإنسانى، ولكن الصانع الإنسانى علة محدودة تعمل فى جزء محدود، فبأى حق نمد التشبيه إلى هذا الكل العظيم الذى هو الكون، ونحن لا ندرى إن كان متجانسا فى جميع أنحائه؟

ولو سلمنا بهذه المماثلة لما انتهينا حتما إلى الإله الذى يقصده أصحاب الدليل، إذ يمكن أن نستدل بما فى الكون من نقص على أن الإله متناه كالصانع الإنسانى، وأنه ناقص يصادف مقاومة، أو أنه جسمى يعمل بيديه.

أو يمكن أن نفترض أن الكون نتيجة تعاون جماعة من الآلهة....

أما دليل المحرك الأول: فليس هناك ما يحتم تسليمه ونبذ المذهب المادى إذ قد يمكن أن تبدأ الحركة بالثقل أو بالكهرباء مثلا دون فاعل مريد.

وأما دليل الموجود الضرورى فلا يستند إلى أصل فى تجربتنا من حيث إن التجربة لا تعرض علينا انفعالا ضروريا، وأن المخيلة تستطيع دائما أن تسلب الوجود عن أى موجود كان.

إن معنى الموجود الضرورى ثمرة وهم المخيلة التى تمد موضوع تجاربنا إلى غير نهاية، فلم لا نمد المادة نفسها إلى غير نهاية فنعتبرها الله؟

وبأى حق نفترض الكون كلا محدودا حتى نبحث له عن علة مفارقة؟

وأخيرا إن وجود الشر يعارض القول بالعناية الإلهية"(٥٦).

وبهذه الأضاليل التى نعق بها هيوم للتشكيك فى وجود الله تعالى عن طريق قيامه بالتعرض بالنقد لأدلة وجوده يستبين لنا الدافع الذى أعلنه أدهم عن قرب هيوم من نفسه؛ لأنه كان محركا قويا لاستنبات بذور الإلحاد داخل تكوينه، علما بأن هناك آخرين من علماء الطبيعة والرياضيات والفلاسفة غير هؤلاء كان قد أعلن أنه قرأ لهم إلا أننا اكتفينا بهؤلاء رغبة فى الإيجاز، وفيما ذكرناه ما يفى بالغرض الذى نتوخاه من هذه اللمحات السريعة عن اتجاهاتهم الرئيسية وأهم أفكارهم، والذى نختم به هذه الفقرة هو ما ذكرناه فى ثناياها من انحيازه إلى الذين تبنوا الاتجاه الإلحادى فى مذاهبهم، فاختار الكفر على الإيمان، وأعلن الإلحاد مذهبا له، بل زعم ارتياحه إليه، واطمئنانه به كما يطمئن المؤمنون إلى إيمانهم.

٩- الإلحاد عند إسماعيل أدهم: تعريفه وبواعثه:

بعد أن أعلن إسماعيل أدهم عن إلحاده، واطمئنانه إليه شرع يتساءل:

ما معنى الإلحاد؟

ثم قال في معرض الإجابة على هذا السؤال:" يجيبك لودفيج بخنر زعيم ملاحدة القرن التاسع عشر: "الإلحاد هو الجحود بالله، وعدم الإيمان بالخلود والإرادة الحرة"، والواقع أن هذا التعريف سلبى محض، ومن هنا لا أجد بدا من رفضه"(٥٧).

ورغم فجور بخنر في إلحاده وتفوقه على داروين باتهام مذهبه بالنقص إلا أن تعريفه لم يرق للملحد المغرور، فبخنر "هذا الملحد كشف لنا كيف نفذ بمذهب داروين إلى إنكار الخلق والخالق سبحانه وتعالى بركونه إلى نزعته المادية الإلحادية حيث قام بإسناد الحياة في "الكرية الأولى" إلى ما يسميه بالتولد الذاتي"(٥٨)، وقد كانت الفكرة مطروحة بقوة في أوساط التطوريين.

وإذا كان أدهم قد أعلن رفضه لتعريف بخنر للإلحاد فما هو التعريف الذى ارتضاه؟، لنستمع إليه وهو يقول مختالا بإلحاده: "والتعريف الذى أستصوبه وأراه يعبر عن عقيدتي كملحد هو: الإيمان بأن سبب الكون يتضمنه الكون في ذاته، وأن ثمة لا شئ وراء هذا العالم.

ومن مزايا هذا التعريف - فيما يزعم- أن شقه الأول إيجابى محض، بينما لو أخذت وجهته السلبية لقام دليلا على عدم وجود الله، وشقه الثانى سلبى يتضمن كل ما في تعريف بخنر من معاني"(٥٩).

ولعل الملاحظة الأولية على تعريفه هذا التناقض الواضح في بدايته حيث يقول: " الإلحاد هو: الإيمان...."، ورغم هذه الملاحظة الشكلية إلا أنها تخفي وراءها شيئا آخر وهو قيام التيارات المنحرفة بتبنى لون من ألوان الاعتقاد، هكذا صنعت الماركسية، والعلمانية، والوجودية، وأسوأ ما في هذا الاعتقاد الفاسد هو إحلاله العلم محل الدين، والإنسان محل الله، يقول فيليب موريس هاوزر - أستاذ الاجتماع بجامعة شيكاغو-:

"العلم نوع من الأديان، والعالم رجل دين وهب نفسه للقيم التى آمن بها من البحث عن المعرفة، وأنت تجد فيه نفس التعصب الذى تجده في المبشر أو القسيس"، يقول أستاذنا الدكتور يحيى هاشم تعليقا على هذه المقولة التى قام

باقتباسها: " إن هذا الإلحاد إنما يدعو إلى دين جديد، يستبدل فيه الذى هو أدنى – ديانة بشرية وضعية– بالذى هو خير – الديانة الإلهية–.

وهذا القدر من الإثبات كاف فى حد ذاته لإظهار الخديعة التى ينطوى عليها هذا الإلحاد وهو يدعو إلى إسقاط الدين"(٦٠).

فإذا عدنا إلى تعريفه وجدنا أنه يتضمن بشطريه الكفر الصريح:

- فالشطر الإيجابى رغم اعترافه بالسببية إلا أنه يجعلها داخلية، وينفى بذلك السبب الخارجى لخلق العالم؛ وبذلك يقطع الصلة بين المخلوق والخالق، بل ينفى الخالق عز وجل، ولم يأت المغرور الكاذب فى ذلك بجديد فهذه هى وجهة نظر الفلسفة المادية منذ فجر التاريخ وحتى الآن.
- والشطر السلبى الذى ينكر فيه عالم الغيب أو الميتافيزيقا لم يأت فيه بجديد كذلك؛ لأن أنصار المدرسة الحسية يدينون بذلك ويتنادون به.

والآن نرى أن من حق هذه الدراسة علينا أن نعرف بالإلحاد فى سياقنا هذا، وفيما يلى نورد فكرة موجزة:

الإلحاد:

ألحد فلان: عدل عن الحق، وأدخل فيه ما ليس منه.

ألحد فى الدين: طعن.

الملحد: الطاعن فى الدين المائل عنه.

الجمع: ملحدون وملاحدة(٦١).

وفى القرآن الكريم: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ﴾(٦٢)، "فهم مكشوفون لعلم الله، وهم مأخوذون بما يلحدون مهما غالطوا والتووا، وحسبوا أنهم مفلتون من يد الله كما قد يفلتون بالمغالطة من حساب الناس"(٦٣).

وللشيخ محمد الغزالى تعريف طريف للإلحاد يقول فيه متسائلا: "أتعرف ما هو الإلحاد؟ أن يسفه المرء نفسه، ويركب رأسه، ويغمض عينيه عن كل ما حوله، ثم يصدر الأحكام جزافا لا تخضع لمنطق ولا يربطها فكر سليم"(٦٤)، وهذا ما صنعه إسماعيل أدهم بنفسه، أما بواعث الإلحاد عنده فهى لا تختلف كثيرا عن

بواعثه عند كافة الملحدين فى كل عصر ومصر، وفى مقابلة رائعة بين الإيمان والإلحاد، وبين المؤمن والملحد يقوم أستاذنا الدكتور يحى هاشم بـذكر بواعث الإيمان فى مقابل بواعث الإلحاد بين ثنايا سطور هذه المقابلة التى يقول فيها: "إن الإنسان بقصوره العقلى يجهل أصول المشكلات التى يواجهها:

- مشكلة الوجود: بدايته ونهايته وغايته.
- مشكلة المعرفة: إمكانها وطبيعتها وأدواتها.
- مشكلة القيم: الحق والباطل، والخير والشر، والنفع والضر، والشقاء والسعادة.

وهو مع هذا الجهل يتطلع فى شوق إلى معرفة الحقيقة التى يجهلها.

وعند هذه النقطة يفترق الحال بين المؤمن المتدين بدين الله، وبين الملحد (المتدين – رغم أنفه– بدين وضعى).

فالمتدين بدين الله يتلقى المعرفة والتوجيه من الله سبحانه وتعالى مؤمنا بما يتلقاه مسلما به متبعا له.

والملحد لا يرضى بهذا التلقى والاتباع، وإنما يبتدع المعرفة والتوجيه، ويحاول أن يصل إليها بنفسه – مع قصوره– أو أن يصل إليها عن غير طريق الله. وخلاصة القول فى بواعث الإيمان بالله: أنها شعور بالجهل إزاء المشاكل الكبرى، وتطلع إلى حلها، واتباع الحل الذى يأتى من الوحى الصحيح.

وفى المقابل فإن خلاصة القول فى بواعث الإلحاد: أنها شعور بالجهل إزاء المشاكل الكبرى، وتطلع إلى حلها، وابتداع الحل من مصدر غير الوحى الصحيح.

وإذن فمركز الدائرة فى التفرقة بين الإيمان بالله ورسوله وبين الإلحاد هو: عنصر الاتباع لله ورسوله فى جانب الإيمان، وعنصر الابتداع والغرور والاستقلال الكاذب نجده فى جانب الإلحاد(٦٥)".

وهذا ينطبق بكل دقة على الموقف الإلحادى لإسماعيل أدهم، وقد سبق لنا إيراد أسباب إلحاده فى الفقرة الثالثة من هذا الفصل؛ ولكن لا مانع من التذكير بها فى سياقنا هذا حيث يقول: "إن الأسباب التى دعتنى للتخلى عن الإيمان بالله كثيرة، منها:

_ ما هو علمي بحت.

_ ومنها ما هو فلسفي صرف.

_ ومنها ما هو بين بين.

_ ومنها ما يرجع لبيئتي وظروفي.

_ ومنها ما يرجع لأسباب سيكولوجية..."[٦٦]

حيث أفلت من تفصيل القول فيها، ورغم ذلك فقد ركز على السبب العلمي الذى دعاه للتخلى عن فكرة الله، وإننا نلاحظ أنه لا يتحدث عن الله عز وجل إلا مضافاً لكلمة فكرة، وهو حديث لا يدل إلا على فجوره فـي إلحـاده، ووقاحتـه وسوء أدبه مع رب العزة سبحانه وتعالى، وتطاوله على مقام الألوهية، وقد سبق لنا التعليق على السبب المرتبط بنفسيته، والآن نود التعليق على السيب المـرتبط بظروفه وبيئته، بينما الأسباب العلمية أو الرياضية أو الفلسفية سنرجئ الحـديث عنها إلى الفصل القادم.

عزا إسماعيل أدهم بعض أسباب إلحاده إلى بيئته وظروفه، وهو فى هـذه الإشارة المقتضبة جعلنا ننتبه إلى الوجه المستور فى حياته، أو المسكوت عنه فى خطابه، ولعلنا نحاول تجلية هذه الغوامض دون الافتراء عليه، ودون التفتيش فى نواياه كما يحلو للعلمانيين وأذناب الماركسيين رفع هذه التهمة فى وجه كل مـن رغب فى تحليل مفردات خطابهم، وتفكيك محتوياته كما يصنعون مع خصومهم فى الفكر، ومخالفيهم فى الثقافة.

أما عن بيئته فقد علمنا أنه نشأ فى أسرة فقدت كل مقومـات الاسـتقرار، ونستطيع القول بكل اطمئنان: إن هذا المارق مع أختيه عاشـوا أغلـب فتـرات حياتهم بغير أبوين، لدوام أسفار الأب، وموت الأم؛ ولهذا فقد افتقروا إلـى كـل ضوابط التربية، وافتقدوا كل مظاهر الرعاية والرقابة على صعيد واحد.

بالإضافة إلى اختلاف الأبوين فى الدين، فالأب مسلم والأم مسيحية، ورغم أن هذا الزواج تتوفر له كل مقومات الشرعية لجوازه شرعا، إلا أنه لا يصـمد غالبا أمام هزات الحياة، فمن المتوقع بل من المنتظر أن يتبع الأبناء أباهم فـى

الإسلام؛ إلا أن كل ما نتج عن هذه الزيجة الفاشلة من ذرية لم يرثوا الإسلام عن أبيهم، بل ورثت الشقيقتان دين أمهما، وسقط الابن فى مستنقع الكفر، وإننا هنا نحذر من زواج المسلمين بكتابيات لخطورة ذلك على عقائد الأجيال القادمة، وخصوصا إذا كانت الكتابية غير مصرية، وهنا يتضاعف الخطر لجمعها بين اختلاف الدين والوطن واللغة والثقافة، وأحيانا تكون على حالة عداء مع المكونات الشخصية لزوجها أو على الأقل تكون بمعزل عن خلفيته الدينية، وموروثاته الثقافية. وكثيرا ما رصدنا حالات هروب لبعض هاتيك الزوجات بأطفالهن من مصر دون علم الزوج المخدوع الذى أساء الاختيار منذ البداية، وفى النساء المسلمات اللائى يشتركن مع الراغب فى الزواج فى الدين والمعتقد كل الغناء وكل البركة، وأشير فى سياقنا هذا إلى نقطة فى منتهى الخطورة وهى قابلية النار الساكنة تحت الرماد للاشتعال بصفة دائمة كلما تزوج شاب مسلم بفتاة مسيحية مما يهيئ لفتنة طائفية نحن فى غنى عنها، وفى المقابل اشتعال النار بالفعل إذا تزوج شاب مسيحى بفتاة مسلمة؛ لانعدام مشروعية مثل هذا الزواج أصلاً!!.

إذن نشأ إسماعيل أدهم بغير أم دائما، وبغير أب أحياناً، فافتقد حنان الأم، وعاش محروما من عاطفتها، وحرم من توجيه الأب وتقويمه، وفى الوقت الذى التأم فيه الشمل فيما بينهما ثار فى وجه أبيه، وتمرد عليه، ورفع راية الإلحاد السوداء، فما كان من أبيه إلا أن تخلص منه بإزاحته من حياته، وترحيله من الإسكندرية، وإلحاقه بمدرسة داخلية بالقاهرة، وهى نقطة ليست فى صالح الأب لفراره من المسئولية التربوية إزاء ابنه فى هذا المنعطف الخطير من حياته، وخصوصا بعد سقوطه فى مستنقع الإلحاد، كما أنها ليست فى صالح الابن أيضا لأنه بدأ يعيش على هواه أكثر من ذى قبل، ثم نال حريته الفكرية الكاملة التى تأدت إلى قيامه بخلع ربقة الإسلام من عنقه، وإخلاء قلبه من العقيدة.

أما عن ظروفه فقد تناولناها كثيرا على مدار صفحات هذا الكتاب، ولكننا فقط نذكر بالدور المشبوه الذى كان أدهم يعدّ له ويجهز لأدائه، وما زالت

علامات الاستفهام ترفرف فوق رؤوسنا: من الذى كان يقف وراءه؟، ومن الذى كان يمده بالمال؟ ومن الذى أعد المسرح له للاستعلان بإلحاده وإعانته على نشر رسالته؟ إننا لا نستطيع وضع إجابات حاسمة على هذه الأسئلة اللهم إلا في الحقبة الروسية التى عاش فيها فى الاتحاد السوفييتى حيث نشر بحثه الذى تطاول فيه على الإسلام بالادعاءات والافتراءات المتعددة والتى كان زعمه باختلاق الحديث سندا ومتنا من أخطرها على الإطلاق، وقد كانت هذه الفترة واضحة خالية من الغموض؛لأن الإلحاد من أبجديات الحياة اليومية فى البيئة الروسية حتى الآن، وخصوصا فى التجمعات التى تدين بالماركسية بمعزل عن الديانات السماوية والوضعية.

١٠- عداوته للدين وخصوصا الإسلام، وخصومته مع الوطنية، واستعلاؤه على العرب:

قد يظن القارئ أننا نفترى على هذا الملحد بهذا العنوان العريض، ولكننا سنضع أمامه ما يبدد ظنه من كلام أدهم نفسه.

فبالنسبة لعداوته للدين وخصومته مع الوطنية نكتفى بإيراد الإهداء الذى وضعه فى الصفحة الأولى فى رسالته المصادرة التى نشرها هنا فى مصر حيث يقول بالحرف الواحد:

" إلى أحرار الفكر إلى الذين حرروا الفكر من قيوده، وجاهدوا فى سبيل تحرير العقل الإنسانى من تأثير الأساطير الدينية والمزاعم الوطنية، والذين أخذوا بيد الجماعات الإنسانية إلى الحياة الصحيحة أهدى هذا الكتيب لعلهم يجدون فيه نظرة حرة بعيدة عن تعصب الدين وجموده! (٦٧)".

فتحرير العقل الإنسانى هدف يستحق الجهاد من أجله، ولكن تحريره من ماذا؟ من تأثير الأساطير الدينية والمزاعم الوطنية، ولعلنا نذكر القراء الكرام بأنه نشر هذا اللغو فى مصر، فماذا كان يريد من المصريين، ونكرر السؤال بصيغة أخرى: هل كان يريد إفساد عقائدهم، وقتل شعورهم الوطنى؟، ومن الذى كان يدعمه فى هذا التوجه الخبيث؟

ولعلنا إذا سرنا بعض الخطوات، واسترسلنا فى مطالعة كلامه عرفنا أن المقصود الأول بعداوته هو الإسلام، وليس الدين بإطلاق، أو لعله تكتيك مرحلى يهاجم فيه الإسلام أولا، ثم يهجم على فكرة الدين عموما؟!

وقد شاء الله تعالى أن يكون هذا المسخ مفضوحا من صفحة عنوان كتيبه هذا حيث يقول فيها عنه: " يبحث فى ماهية الحديث والرواية ونشأتها، وحلقات تطورهما من عصر الرسول إلى القرن الثالث الهجرى، ويخرج من ذلك بأدلة قاطعة على انتحال الأحاديث والأسانيد"(٦٨).

أرأيت إلى نزقه وتهوره فضلا عن حمقه وسفاهته حيث كشف نفسه منذ البداية، فكان بذلك تلميذا صغيراً خائبا للمستشرقين الروس الذين استكتبوه هذا اللغو الفارغ، هل تحتاج منى عزيزى القارئ إلى أدلة أخرى لإثبات عداوته للإسلام، إليك هذه العبارة المباشرة التى لا يقل إعلانها فى سياقها سفاهة عن الهدف الذى أشرنا إليه آنفا حيث يقول فيها: "وإذا تضافرت كل هذه الريوب العقلية والدلائل التاريخية كان لا مندوحة لنا من رد الحديث كله.

وأنت ترى من هذا البحث أن بحثنا مخالف كل المخالفة لما اتفق عليه المحدثون إذ أن كثرة الحديث فى نظرنا: ما بين مرفوض ومشكوك فيه.

وهكذا يتزلزل علم الحديث من أساسه وينهار تحت ضربات البحث التاريخى المقارن(٦٩)".

وقد حكم بانهيار علم الحديث بعد ممارسات فجة للشك الذى استخدمه بسذاجة مضحكة، اقرأ معى قوله:" الاختلاق وصل فعلا إلى الإسناد، فكم من حديث نطمئن إليه بدعوى صحة سنده، وفي الواقع إن هذا الاطمئنان ضعف فى النظر، فمن يدرينى أن الاختلاق لم يصل إلى الإسناد؟، ومن يدرينى أن الحديث ليس مختلقا مع إسناده؟

مسألة هامة كل الأهمية لم تطرأ على بال أحد، وبقيت في جوف الزمان إلى اليوم(٧٠)".

والآن نتساءل: أبقى هذا الخرف فى جوف الزمـان إلـى اليـوم حتـى استخرجته أنت؟ حقا إنه استخراج الجيف المنتنة والجثث المتعفنة!!

ائذن لى أخى القارئ أن أزيدك اطلاعا علـى افتـراءات هـذا الملحـد، واعذرني لو سببت لك ضيقا، أو تسببت فى إغاظتك، اقرأ معى ما يفيد إصراره على هدفه، وهو الهدف الخبيث الحقير الذى وضعه فى خندق واحـد مـع مـن أطلقوا على أنفسهم لقب " القرآنيين" انتسابا إلى القرآن الكريم وهو برئ مـنهم، وفى ذلك يقول: " الكثرة المطلقة من الحديث ليست من كلام الرسول فى شـئ، وإنما هى منتحلة بعد وفاة الرسول بنصف جيل على أقل تقدير، فالحديث يمثـل حياة المدينة الإسلامية، وميول المسلمين وأهواءهم فى القرن الأول أكثر ما يمثل حياة الرسول.

وأكاد لا أشك فى أن ما بقى من الحديث قليل جدا لا يتجاوز أصابع اليـد عدا، ولا يمثل شيئا ولا يدل على شئ، ولا ينبغى الاعتماد عليه فـى اسـتخراج التاريخ الصحيح للرسول، وكل ما تقرؤه فى كتب الحديث على أنه كلام النبى أو روايات تكلم بها صحابى عن الرسول فإنها ليست منه فى شئ، وإنما هو انتحال الرواة، واختلاق بعض الصحابة، أو صنعة التـابعين، أو اختـراع القصـاص والمفسرين والمتحدثين"[٧١].

وبذلك أمسك هذا المغرور بقلمه الأحمر وقام بتجريح الجميع، يستوى فى ذلك الصحابة والتابعون وأهل التفسير، ورجال الحديث، وقد ساوى بينهم وبـين القصاص!!؛ وبذلك يجب أن لا نستغرب إذا قام بالتشكيك فى نزاهة الصـحابة، واعتبرها زعما حيث يقول: " ونحن إذا رفضنا زعم علمـاء الحـديث بنزاهـة الصحابة وأجرينا عليهم ما نجرى على غيرهم كنا أقرب إلى المنطق والعقل فى عملنا هذا ، وكنا لم نفعل أكثر من السير ومقتضيات علم النقد الحديث"[٧٢].

أما نظرته التى اتسمت بالاستعلاء على الجنس العربى فقد جـاءت مـن خلال رؤيته للرسول الخاتم ﷺ باعتباره زعيما قوميا وليس باعتباره رسولا نبيا، وهى نظرة ماركسية تولى كبرها أذنابهم فى مصر بالإضافة إلى اعتبار الإسلام

ثورة تهدف إلى إعادة توزيع الثروة، وفي ذلك يقول: "جاهد النبى جهاد الأبطال فى لم شعث القبائل العربية وإخضاعها لسلطانه، وكان توحيد العرب ضربة أليمة لخصائص هذا الشعب، وكبتاً لطبيعته الهمجية التى لا تعرف غير التشتت والتفرق سلطانا على نفسه وغير القتال والطعان والسلب والنهب طبيعة له"[٧٣]، كما كان يقول: "الغزو عند العرب هو الوسيلة الرئيسية لتوزيع الثروة[٧٤]".

ومما يؤكد ذلك الذى ذهبنا إليه من التنبيه على الخلفية الماركسية لهذا الملحد هو ما ذكره الكاتب الماركسى بندلى جوزى عن الكتب التى ظهرت فى عصره فى روسيا وفى أوروبا الغربية - قبل عام ١٩٢٨م عندما نشر كتابه "من تاريخ الحركات الفكرية فى الإسلام" - وهذه الكتب تحاول أن تجعل من النبى العربى رجلا مثريا قام للمدافعة عن حقوق أصحاب الثروة والسلطة فى بلاده ومصالحهم[٧٥]، وقد تأكد لنا اطلاع هذا الملحد على هذه الكتب، وكان كتاب بندلى جوزى هذا ضمن مراجعه لأحد مؤلفاته[٧٦]، ومما يزيدنا اطمئناننا لهذه الخلفية الماركسية التى جعلت هذا الملحد يفترى على العرب والمسلمين بهذا الزعم قول أستاذنا الدكتور محمد عبد الفضيل القوصى: "الماركسية لم تر من الإسلام - عقيدة وشريعة وسلوكا وأخلاقا- سوى تلك الجحافل الظافرة التى خرجت من شبه الجزيرة لتنداح فيما حولها من أصقاع، بل لم تر فى هذه الجحافل الظافرة إلا ما يقع فى أيديها من الغنائم، بل لم تر فى هذه الغنائم نفسها سوى استلاب ونهب مصدره الحسد وحده، ومبعثها الطمع والبربرية"[٧٧].

أرأيت إلى هذه اللغة الراقية التى تحدث بها أحد علماء المسلمين الكبار فى هذا العصر، وكيف استعلت على لغة موازية لأحد ذيول الماركسية وفضلاتها العفنة فى مصر حيث تصف الفتوحات الإسلامية الأولى بأنها " الغزو النهبوى الاستيطانى الذى مارسه هؤلاء العربان المستبدون على دول الجوار الباذخة فى الحضارة، فنهبوا خيراتها، واستذلوا شعوبها، واستمتعوا بنسائها وفتياتها، واستوطنوا أراضيها رغما عنها، وفرضوا لغتهم وثقافتهم عليها"[٧٨]، ويشير فضيلة الشيخ محمد الغزالى إلى هذا المسخ وأمثاله، ورؤيتهم السقيمة للإسلام

بقوله: "فهم ملحدون مجاهرون بالكفر، يقولون فى صراحة: إن الإسلام ليس إلا نهضة عربية فار بها هذا الجنس العظيم فى القرون الوسطى، واستطاع فى فورته العارمة أن يجتاح العالم بقيادة رجل عبقرى هو الزعيم الكبير محمد ﷺ ، أى أن هذا الدين الجليل نبت من الأرض، ولم ينزل من السماء، وأنه انطلاقة شعب طامح فاتح وليس هداية جاءت من عند الله"(٧٩).

أما المؤسف حقا فهو ما طرحه الدكتور عبد الرحمن بدوى حول نفس الموضوع بأسلوب يفتقر إلى الدقة، ويفتقد المصداقية حيث يقول:" أما السياسة فقد برز العرب فى ميدانها العملى لا النظرى أعظم تبريز؛ وذلك لأن السياسة العملية بمعنى الغزو والفتوح هى الميدان الحقيقى لنشاط الإرادة، ومن هنا نستطيع أن نفسر إلى حد كبير هذه السرعة الهائلة التى تمت بها الفتوح العربية، فهى لا تفسر إلا بهذه الإرادة الجامحة القوية.

أجل كان نشر الدين عاملا مهما من بين العوامل التى أنتجت هذه السرعة، ولكن نصيب الإرادة العربية كان أكبر من نصيب الدعوة الدينية"(٨٠).

ولم يكتف بدوى بعدم الإشارة إلى الإسلام بالاسم، بل رفع الإرادة العربية فوقه، ثم قام بحرمانها من التوجيه العقلى، ولم يشر إلى الأهداف الرئيسية من هذه الفتوحات وهو رفع الظلم عن أصحاب البلاد المفتوحة، ونشر الإسلام فى ربوعها، يقول فى لهجة تدعو للأسى: "الطريقة التى سار عليها هذا الفتح تدل على ما فى هذه الإرادة من عدم توجيه من ناحية العقل؛ لأن غزو الممالك لم يأت عن خطة مرتبة نفذت أجزاؤها الواحد بعد الآخر بطريقة منطقية، وإنما اندفع الغزاة نحو الشرق والشمال والجنوب دفعة واحدة كالسيل الجارف(٨١).

ولا يمكننا ترك التهمة الماركسية المشرعة ضد الجيل المثالى فى الجنس البشرى، بل لابد من الرد عليها لإحقاق الحق، ووضع الأمور فى إطارها الصحيح، ومن هنا نقول مع أستاذنا الدكتور عبد الفضيل: ".. لو كان للمقولة الماركسية أدنى اقتراب من الواقع التاريخى المشهود لاقتصر الإسلام على أولئك

البدو وحدهم، ولم يتعد دائرتهم إلى سواهم من سكان المدن المتحضرة المفتوحة الذين لم ينهض هذا الدين – طبقا للمقولة الماركسية- إلا لاستلاب ثـروانهم، أو لكان الدين الإسلامى- على أكثر تقدير- محصورا فى الجنس العربى لا يعدوه إلى غيره من الأجناس الأخرى.

وهذا ادعاء لا يستأهل ردا ولا تكذيبا سواء على عهد ماركس وإنجلـز أو قبله أو بعده، وحسبهما وحسب أشياعهما مجرد النظرة العـابرة إلـى روسـيا – القيصرية أو السوفييتية- وقد عمرت بالمسلمين الذين لا يمتون إلى العنصـر العربى إلا بصلة " العقيدة" وحدها، وحسبهما، وحسب أشياعهما مـا أسـهم بـه المسلمون – من غير العرب- من دور بارز فى نشر الدعوة الإسلامية فى كـل مكان حطت فيه أقدامهم، وفى ازدهـار الحضـارة الإسـلامية ثقافـة وعلمـا، وعمرانا ومدنية.

ولو كان للمقولة الماركسية أدنى اقتراب من الواقع التاريخى المشهور لما انضم إلى الجيوش الإسلامية الظافرة – فى أية غزوة من غزواتها- جندى واحد ينتمى إلى واحدة من تلك الحواضر أو المدن(٨٢).

وتستمر نظرة الاستعلاء إلى الجنس العربى، ومما يدل عليها أيضاً قولـه عن أهل الأمم المفتوحة: إنهم كانوا "أبناء تاريخ مجيد، وحضارات تليـدة فـى مجدها فسرعان ما رأيناهم قادة المدنية الإسلامية فى ساحات التفكير والحضارة؛ ذلك لأن أهل هذه الأمم أقدر على التفكير من العـرب، وأعـرق فـى الثقافـة والحضارة، والظروف المواتية لتأسيس الحضارات كانت متوافرة بينهم(٨٣)، وهو فى هذه النظرة شريك لقطاع من المستشرقين غير المنصفين.

بيد أن الذى تعامى عنه هو انصهار الحضارات السابقة على الإسلام فـى حواضر البلدان غير العربية فى الحضارة الإسلامية، واصـطباغها بصـبغتها، ونوالها شرف النسبة إلى الإسلام، ولكن ذلك يشكل غصة فى حلقة لا يقوى على التعبير عنها للحقد الذى يحتل قلبه.

١١- نهايته بين لغز انتحاره ورجع أفكاره:

مما يسترعى الانتباه قيام أحد مواقع الشبكة الدولية للمعلومات فـــى هــذه الأيام بنشر كراسة "لماذا أنا ملحد؟" للمرتد إسماعيل أدهم، وهو موقع " اللادينيين العرب"، وقد جاء النشر مصحوبا بإعادة تذكير متصفحى الموقع برحيله منتحرا، مع الاستشهاد بآراء بعض كبار كتاب ومفكرى عصره ممن قاموا بالثناء عليـــه، وقد قام هذا الموقع بالتقديم لنشر رسالة إسماعيل أدهم بصياغة أقرب إلى كتابـــة سيناريوهات الأفلام والمسلسلات نلتقط منها هذه السطور رغبة منا فى إشـــراك القارئ فى الفرجة على هذه المشاهد الهزلية التى لا تخلو من لمسة درامية، حيث جاءت بداية المقدمة على هذا النحو:

المكـــان:

الإسكندرية، شاطئ "جليم"

الموج يلطم الشاطئ، والقمر ينظر من عليائه، يطل فيرى على الشـــاطئ إنسانا صامتا ساهما يفكر فيطيل التفكير، وتندفع الموجة فى عنف تحاول أن تنبه هذا المفكر الساهم ثم تتكسر على الشاطئ، وفى صدر هذا الصامت أمواج مثلها تجيش وتتكسر وهو هو حيث يقف.

ويستمع إلى نداء الأمواج الصاخبة ليلقى الهدوء والعزاء فوق صدرها، ثم تصطخب الأمواج عاليا، وتتكسر أشعة القمر، ويهبط الظلام.

الزمـــــان:

فى الساعة السابعة من مساء يوم الثلاثاء، الثالث والعشرين مـــن يوليـــو ١٩٤٠م لفظ البحر على ساحل "جليم" بالإسكندرية جثة كانت فى رونق العمـــر، وإن بدت عليها مسحة من شفوف الهم، وشحوب الألم.

لم يكد يلقيها الموج الصاخب المتعاقب بالرمل المستوى حتى أخذتها عيون الحرس الساحلى فظنوها لأول وهلة ضحية من ضحايا الحرب، ولكنهم علمـــوا من البذلة والمعطف، وسلامة بدنه أنه مدنى سقط فى البحر أو ألقى فيه...[٨٤].

بعد هذا المقطع من السيناريو الذى جاء فى صدر التقديم لرسالة المرتد إسماعيل أدهم "لماذا أنا ملحد؟" نغض الطرف عن هذا التدافع اللغوى والتلاعب الشعورى ونكتفى بعدة ملاحظات:

١- نهاية المرتد بقضاء نحبه منتحرا فى عام ١٩٤٠م.

٢- الاعتراف له بسلامة البدن مما يذكرنا بما جرى لفرعون حيث يقول رب العزة تبارك وتعالى عنه : ﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَـٰتِنَا لَغَـٰفِلُونَ ﴾ (٨٥)

٣- قيام كاتب السيناريو بوصف الجثة بظهور" شفوف الهم وشحوب الألم" عليها؛ مما يؤكد على أنه:

- لم يكن شخصا سويا، بل كان مخبولا، ومضطربا نفسيا.

- لم يكن صادقا فيما ادعاه من أنه " وجد نفسه أسعد حالا، وأكثر اطمئنانا من حالته حينما كان يغالب نفسه للاحتفاظ بمعتقد دينى"، وقد سبق إيراد وصف أحد الكتاب له بأنه " كذاب ونصاب" فيما يدعى، كذلك لم يكن صادقا فى ادعائه بسكون نفسه وارتياحها لهذا الإلحاد، بل أمعن فى نزقه وهو يشبه نفسه بالمؤمن المتصوف.

ولعل هذه الاستنتاجات تجعل التساؤل الذى أطلقه موقع من المواقع الإلحادية عديم الجدوى؛ لوضوح الإجابة عليه، وصيغته هى: " فهل كان شقيا تعيسا إلى الدرجة التى لم تعد لديه مقدرة على التحمل والاستمرار فى الحياة فبخع نفسه بيده وانتحر؟" (٨٦)، وهل هذا يحتاج إلى سؤال؟!!، وخصوصا بعد الاطلاع على الخطاب الذى سطره بخط يده لرئيس النيابة، وعثر عليه فى جيب معطفه حيث اعترف بأنه قتل نفسه بالغرق يأسا من الدنيا، وزهادة فى العيش، وأوصى بتشريح رأسه، وحرق جثته، وعدم دفنه فى مقابر المسلمين.

ولعل فى انتحار هذا الملحد ما يجعلنا نحكم بكل ثقة بأنه كان منسجما مع خلفيته الماركسية التى تنتشر فيها ثقافة الانتحار بالخلاص من الحياة، وفى ذلك

يقول الأستاذ عامر العقاد: "ومن يتتبع الحركة الفكرية والأدبية في الاتحاد السوفييتي يجد أن هناك أدباء قد فضلوا الانتحار على الحياة، وحسبنا أن نذكر من هؤلاء على سبيل المثال لا الحصر الشاعر الروسي "مايكوفسكي" الذي بخع نفسه وهو في السابعة والثلاثين من العمر، والشاعر الروسي "سرجي إيسنين" الذي بخع نفسه كذلك وهو في الثلاثين"، ثم يتساءل قائلا:" فإذا كان الانتحار هو سبيل الخلاص أمام رجال الفكر في الاتحاد السوفييتي فأين هي حرية التعبير التي يتشدق بها دعاة الشيوعية في العالم؟ (٨٧)"، ولعلنا لاحظنا تقارب الأعمار عند الانتحار بين النموذجين اللذين اختارهما الأستاذ العقاد، وبين إسماعيل أدهم.

ونحن في غنى عن التأكيد على المشاعر النفسية السلبية التي تغطي حياة الملحدين، وامتلائها بكل ألوان القلق والعجز والخوف واليأس مما يؤدي حتما إلى اتخاذ القرار الصعب وهو الانسحاب من الحياة، ومما يؤكد ذلك ما جاء في طرح المفكر العربي الكبير الدكتور رشدي فكار في تعليقه على خواء المذاهب الوضعية من وجودية وفرويدية وماركسية ومعاناة أتباعها قائلا: "إن مسلسل الانتحار لديهم أكد لنا حقيقة هذه المعاناة، كما يجعلنا نذهب إلى حد القول – وبلا مجازفة– إن المجتمعات البشرية وفي كل عصورها التاريخية ما عرفت مثل ما تعرفه الآن من انتشار للمعاناة النفسية والقلق والاضطرابات العصبية نتيجة ليس فقط لتلوث البيئة، وتزييف العلاقات الإنسانية وإنما لتلوث الأفكار والقيم الروحية والمبادئ الأخلاقية والتشكيك في صلاحية كل شئ من أجل لا شئ"(٨٨).

بيد أننا لوعدنا إلى نهاية إسماعيل أدهم وجدنا أنفسنا مضطرين لإبداء بعض علامات الاستفهام حول كيفية نهايته، هل هي نهاية طبيعية اختارها بنفسه لإنهاء حياته يأسا من الدنيا، وزهدا في العيش كما يذكر؟، وبذلك يكون قراره شخصيا في المقام الأول تأسس على عوامل داخلية ومشاعر نفسية، أم أن هناك قوى خارجية أجبرته على هذه النهاية المفجعة؟ بعد ما أدى دوره وختمه بنشر رسالته " لماذا أنا ملحد؟"، فلم تعد له فائدة كشأن الخونة والعملاء، وضرورة التخلص منهم بعد انكشافهم.

ومهما يكن من أمر فإن القضية ما تزال رغم مرور هذا الزمن بحاجة إلى التنقيب فى صحافة عصره بحثا عن المزيد من البراهين لإيضاح الحقيقة وكشف لغز نهايته المبكرة مع الأخذ بعين الاعتبار إعلان هذا المارق الكذوب عن اطمئنانه إلى إلحاده كما يطمئن المؤمن الصوفى إلى إيمانه، فهل يقدم المطمئن المستريح على الانسحاب من الحياة بهذه الكيفية؟

والآن وفاء بمنهجية البحث نسوق الشهادات التى سيقت فى معرض الثناء عليه، ومنها وصف جابر عصفور له " بالعالم الرياضى والفيلسوف والناقد الأدبى اللامع"[٨٩]، أما الدكتور أحمد زكى أبو شادى فقد قال عنه: "شهد جميع من عرفوا أدهم، بأنه لم تكن فى أخلاقه غير نزاهة الرجل، وجرأة الشجاع، وإخلاص الوفى، وأنه كان عفيف النفس يقنع بميسور الرزق، ويترفع عن طلب المعونة ولو كانت جزاء على عمله، وإذا صح عن أديب شرقى أنه لم ينتفع مطلقا انتفاعا ماديا بكتاباته، وتشبث بآرائه جملة وتفصيلا إلى النهاية، وعد ذلك ثروته التى ينتفع بها فذلك هو إسماعيل أدهم"[٩٠].

ويستمر الموقع الإلحادى فى نشر الشهادات لصالح أدهم، فيقول نقلا عن الزيات وصفه لهذا المرتد بأنه: "كان شديد الذكاء، أصيل العقل، رياضى الفكر، واسع الثقافة، لا يؤمن إلا بالعلم والمنطق، قوى الحجة إلى درجة تدهش من يعرف سنه، صلب الرأى وإن لم يعارض ذلك سعة صدره إزاء النقد، سريع الخاطر يكتب رسالتين فى وقت واحد[٩١]، وفى ختامه لهذه النقول المقتبسة للثناء على المارق إسماعيل أدهم، والتى وضعها كاتب المقدمة التى مهدت لنشر رسالة "لماذا أنا ملحد؟" بالموقع الإلحادى المشار إليه يقول:

"نحن إذن أمام عقلية متميزة، وكان هو يدرك ذلك بالطبع حتى أنه طالب بتشريح عقله (كذا) كى يعرف سبب تميزه، طالب بذلك لهدف إنسانى، فهو الملحد الذى لا ينتظر حياة أخرى، لكنه صاحب ضمير محب للإنسانية، ذو قلب مرهف، وطبع حساس، فكيف إذا وجد أمرا قد يضيف شيئا للبشرية أن يبخل به رغم يقينه بعدم استفادته منه"[٩٢].

ومما يؤكد على أن صاحب هذا التقديم يقف مع هذا المرتد في خندق واحد إعجابه به، وقيامه بنشر كراسته الإلحادية، وإقراره بعبثية الحياة على حد تعبيره، وفي هؤلاء وأمثالهم يقول الله عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ۙ ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴾ (٩٣).

والحمد لله تعالى على هلاك هذا الملحد بهذه الكيفية التي اختارها – أو اختيرت له– ليجمع بين جبن المواجهة، وحقارة الكفر، وفظاعة الانتحار، وإصراره على الضلال حتى النفس الأخير، ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾(٩٤).

هوامش الفصل الثاني

١- هذا التاريخ يخالف ما ذكره إسماعيل أدهم في رسالة " لماذا أنا ملحد؟" حيث ذكر أنه حصل على درجتي دكتوراه في عام ١٩٣٣م، وليس عام ١٩٣١م كما ورد في الأعلام.

٢- الزركلي: الأعلام ٣١٠/١.

٣- إسماعيل أدهم: لماذا أنا ملحد، كراسة منشورة بالموقع:

.http://www.ladeeni.net

٤- د. هدى درويش: الإسلاميون وتركيا العلمانية: نموذج الإمام سليمان حلمي ص١٣٦.

٥- لماذا أنا ملحد ص٣.

٦- السابق: نفسه.

٧- انظر حول تدين مصر منذ فجر التاريخ:

- ديانة مصر القديمة: أدولف إرمان، ترجمة عبد المنعم أبو بكر، ود. محمد أنور شكري.
- الدين: الدكتور محمد عبد الله دراز.
- فجر الضمير: جيمس هنري برستيد، ترجمة د. سليم حسن.
- الإسلام السياسي في مصر: الدكتورة هالة مصطفى.
- مصر عرفت التوحيد من قبل إخناتون: الدكتور محمد رجب البيومي، مقال بمجلة الأزهر سبتمبر ٢٠٠٢م.

٨- د. عبد الحليم محمود: الإسلام والعقل ص١٠٤.

٩- د. سعد عبد العزيز مصلوح: المسلمون بين المطرقة والسندان ص ٣٩، ٤٠ نقلا عن مراجعه الروسية،ومن المضحكات المبكيات قيام أحد الأكاديميين المصريين بالدفاع عن ماركس الذى نسبت إليه هذه العبارة والتماس المبررات له كما سنرى في الفصل القادم.

انظر مزيدا من التفاصيل فى:

- إفلاس الفكر الماركسى: محمد عبد الفضيل القوصى.
- سقوط الحلم الشيوعى: عبد الستار الطويلة.
- تجربتى مع الماركسية: طارق حجى.
- أكذوبة اليسار الإسلامى: الدكتور مصطفى محمود.
- أبو ذر الغفارى و الشيوعية: الدكتور عبد الحليم محمود.
- المعبود الذى هوى (آراء فى الشيوعية) مجموعة من الكتاب.
- نهاية الشيوعية: مجموعة من الكتاب: ترجمة وائل غالى.

١٠- المسلمون بين المطرقة والسندان ص٤٩، ٥٠.

١١- السابق: ص٦٢، ٦٣.

١٢- نفسه: صفحات متفرقة.

١٣- لماذا أنا ملحد؟ ص٥.

١٤- عبد الستار الطويلة: سقوط الحلم الشيوعى ص٢٨٥، ٢٨٦.

١٥- المسلمون بين المطرقة والسندان ص٦٤.

١٦- لماذا أنا ملحد ص٥.

١٧- رجاء النقاش: طه حسين فى قفص الاتهام، ص١٦١، مقال منشور بمجلة الهلال مايو ١٩٧٧م.

١٨- د. محمد إبراهيم الفيومى: فى الفكر الدينى الجاهلى ص١٢.

١٩- الشيخ محمد الغزالى: الإسلام فى وجه الزحف الأحمر ص٦.

٢٠- السابق: ص٤٠.

٢١- الأستاذ عباس محمود العقاد: الله ص٢٤١.

٢٢- لماذا أنا ملحد: ص٧.

٢٣- د. يحيى هاشم حسن فرغل: حقيقة العلمانية بين الخرافة والتخريب ص٧٠.

٢٤- إسماعيل أدهم: من مصادر التاريخ الإسلامى ص٢٠، ٢١.

٢٥- لماذا أنا ملحد؟، ص٣.
٢٦- السابق: نفسه.
٢٧- من مصادر التاريخ الإسلامى ص٤.
٢٨- سليمان الخراشى: انتحار ملحد ص١.
٢٩- من مصادر التاريخ الإسلامى ص٤، ٥.
٣٠- الأعلام ٣١٠/١.
٣١- د. إبراهيم عوض: إسماعيل أدهم: ذلك المغرور المنتحر ص١٢، ١٣، نقلا عن موقع: http:// al-shaab.org.
٣٢- من مصادر التاريخ الإسلامى ص٥٠
٣٣- السابق: ص٤.
٣٤- السابق: ص٥.
٣٥- طه حسين فى قفص الاتهام ص ١٦٢، نقلا عن كتاب فى الشعر الجاهلى لطه حسين ص٢٦.
٣٦- السابق: ص١٦٠.
٣٧- سورة إبراهيم: الآية ٣٧.
٣٨- سورة البقرة: الآية ١٢٧.
٣٩- من مصادر التاريخ الإسلامى ص١٥ الهامش.
٤٠- لماذا أنا ملحد؟ ص٤.
٤١- السابق: ص٣.
٤٢- السابق: نفسه.
٤٣- د. صلاح عبد العليم: الإنسان فى القرآن الكريم: المبدأ والمصير ١٦٤/١.
٤٤- السابق: ص١٦٩، ١٧٠ بتصرف.
٤٥- نفسه: ص٢٠٠.
٤٦- ستيفن روز: علم الأحياء والأيديولوجيا والطبيعة البشرية ص٧٥، ترجمة د. محمد مصطفى فهمى.

٤٧- كريسي موريسون: العلم يدعو إلى الإيمان ص١٧ ترجمة محمود صالح الفلكي.

٤٨- د. أحمد عبده حمودة الجمل: في المذاهب المعاصرة ص١٨٦.

٤٩- العلم يدعو إلى الإيمان ص١٨ من مقدمة المترجم.

٥٠- في المذاهب المعاصرة ص١٨٦.

٥١- العلم يدعو إلى الإيمان ص ١٥٢.

٥٢- يوسف كرم: تاريخ الفلسفة الحديثة ص٣٥٥.

٥٣- السابق: من ص٦٥ حتى ص٧٠.

٥٤- د. محمود حمدى زقزوق: بين الفلسفة الإسلامية والفلسفة الحديثة ص٧٥، ٧٦.

٥٥- السابق: ص١٣٨.

٥٦- تاريخ الفلسفة الحديثة: ص١٧٨، ١٧٩.

٥٧- لماذا أنا ملحد؟ ص٥.

٥٨- الإنسان في القرآن الكريم: المبدأ والمصير ص١/ ٢٠١ .

٥٩- لماذا أنا ملحد؟ ص٥.

٦٠- حقيقة العلمانية بين الخرافة والتخريب، ص٥٦.

٦١- المعجم الوجيز: مادة "لحد".

٦٢- سورة فصلت: الآية ٤٠.

٦٣- الشيخ سيد قطب: في ظلال القرآن ٣/٣١٢٦.

٦٤- الشيخ محمد الغزالي: الشهادتان: التوحيد والنبوة ص٢٣.

٦٥- حقيقة العلمانية بين الخرافة والتخريب ص٢٣٠، ٢٣١.

٦٦- لماذا أنا ملحد؟ ص٥.

٦٧- من مصادر التاريخ الإسلامي ص٣.

٦٨- السابق: صفحة الغلاف.

٦٩- السابق: ص٢٨.

٧٠- السابق: ص٢٠، ٢١.

٧١- نفسه: ص٢٢، يأتى زعيم القرآنيين فى العصر الحديث المارق أحمد صبحى منصور فى هذا الزمان معلنا بوضوح عن رفضه للسنة الصحيحة مشتركا مع هذا الملحد فى منهج الدراسة، وأسلوب التناول، وكأنه اطلع على أفكاره المتهافتة، وفى ذلك يقول مثلا: "نحن نرى أن أحاديث البخارى وغيره مما يسمونها سنة ليست سوى ثقافة دينية تعبر عن عصرها وقائليها، وليس لها أى علاقة بالإسلام أو بنبى الإسلام؛ ولأنها ثقافة تعبر عن عصورها الوسطى، وتعكس ما ساد فى هذه العصور من ظلم باسم الدين، واضطهاد باسم الدين، وحروب باسم الدين، فإن الإصلاح اليوم لابد أن يبدأ بنفى تلك الأحاديث وثقافتها إلى العصور التى جاءت إلينا منها". انظر جريدة الدستور: الأربعاء ١١ يوليو ٢٠٠٧م. ولا تنتهى تقاليع هذا الضال إذ بينما نكتب هذه السطور تأتينا آخر ضلالته حيث تبجح بأنه قام بنفسه بتزويج ثلاث فتيات مسلمات من ثلاثة من الشبان النصارى وذلك في مؤتمر مشبوه عقد فى شيكاجو بالولايات المتحدة الأمريكية لمناصرة الأقباط فى مصر يومى ١٩، ٢٠ أكتوبر الحالى. انظر: جريدة الأهرام: الثلاثاء ٢٣ أكتوبر ٢٠٠٧م، مقال للأستاذ فتحى محمود تحت عنوان: ثورة الأقباط.

٧٢- من مصادر التاريخ الإسلامى ص ٢٣.

٧٣- السابق: ص٣٤.

٧٤- نفسه.

٧٥- بندلى جوزى: من تاريخ الحركات الفكرية فى الإسلام ص٥٤، وهى طبعة حديثة غير طبعة القدس التى رجع إليها إسماعيل أدهم.

٧٦- من مصادر التاريخ الإسلامى، ص٣٦.

٧٧- د. محمد عبد الفضيل القوصى: إفلاس الفكر الماركسى ص٢١٥.

٧٨- خليل عبد الكريم: إلا أمير المؤمنين (وهو كتاب مصادر، والاقتباس من جريدة الدستور: الأربعاء ١١يوليو ٢٠٠٧م).

٧٩- الشيخ محمد الغزالى: مع الله: دراسات فى الدعوة والدعاة ص ٢٣٩.
٨٠- د. عبد الرحمن بدوى: من تاريخ الإلحاد فى الإسلام ص٣٢.
٨١- السابق: نفسه.
٨٢- إفلاس الفكر الماركسى ص ٢١٧، ٢١٨.
٨٣- من مصادر التاريخ الإسلامى ص٣٧.
٨٤- نقلا من موقع: http://www.ladeeni.net
٨٥- سورة يونس: الآية ٩٢.
٨٦- ويكبيديا /الموسوعة الحرة.
٨٧- عامر العقاد: حرب الأكاذيب ص ٩١، ٩٢.
٨٨- د. رشدى فكار: لمحات عن منهجية الحوار والتحدى الإعجازى للإسـلام فى هذا العصرص٦٨.
٨٩- د. جابر عصفور: التنوير يواجه الإظلام ص٢١.
٩٠- نقلا عن موقع: http://www.ladeeni.net.
٩١- نفس الموقع
٩٢- الموقع نفسه.
٩٣- سورة محمد: الآية ٢٥.
٩٤- سورة يوسف: الآية ٢١.

الفصل الثالث

نقض تجربة إسماعيل أدهم الإلحادية

الفصل الثالث

نقض تجربة إسماعيل أدهم الإلحادية

مطالعة رسالة: "لماذا أنا ملحد؟" تيسر الحكم عليها، وعلى صاحبها من عنوانها، ومن سطورها الأولى، حيث لم يبدأ إسماعيل أدهم بداية تقليدية، وإنما اقتبس بيتين للشاعر جميل صدقي الزهاوي قال فيهما:

لما جهلت من الطبيعة أمرها	وأقمت نفسك في مقام معلل
أثبت ربا تبتغي حلاً به	للمشكلات فكان أكبر مشكل

فنحن أمام نص ناضح بالكفر منذ بدايته، ينطبق عليه قول القائل: أول القصيدة كفر، بل إن أدهم ذكر بين قوسين هذه العبارة التي أوردها قبل إيراد البيتين (كتبت على أثر مطالعة عقيدة الألوهية للدكتور أحمد زكي أبو شادي)، وكان الدكتور أبو شادي قد ألقى محاضرة بعنوان: "عقيدة الألوهية مذهبي" ضمن أحاديث رمضان عام ١٣٥١هـ اختتمها بهذه الأبيات:

يا كون أنت مثالي	وفي حياتي حياتك
ألست مرآة نفسي	وأنني مرآتك
ومن جمالك روحي	وملء روحي صفاتك
أراك سرا جميلا	تبثه آياتك[١]

وواضح من عبارة أدهم التي صدر بها رسالته في الإلحاد أنها جاءت كرد فعل لمحاضرة أبي شادي، يبدو هذا بالقراءة الأولى المتسرعة، ولكن الأمر من وجهة نظري أخطر من ذلك بكثير، والذي أطمئن إليه وأعلنه وأكرره أن أدهم كان يقوم بدور مرسوم، وما سقناه -ونسوقه- من الشواهد والقرائن يؤيد هذا، إلا أنه وجد الفرصة سانحة للجهر بإلحاده بعد المحاضرة المشار إليها.

والزهاوي هذا الذي اقتبس منه هذين البيتين الناضحين بالكفر قام أدهم بتأليف بحث عنه حسب إشارة الزركلي السالفة، يقول عنه الدكتور محمد رجب

البيومى: "كان أوسع من خاضوا فى هذه الأراجيف دون بصيرة، وقد زار مصر فى العشرينيات، وأفسحت له جريدة "السياسة" مجالا ممتدا لقصائده الإلحادية، ثم كانت الطامة حين نشر قصيدة تحت عنوان "الطبيعة" يقرر فيها أنها هى القوة الموجدة للكون، وقد دعاه الأستاذ محمد فريد وجدى لمحاورة علمية إلا أنه اعتذر عنها لمرضه[٢]".

واللافت فى سياقنا هذا هو الجرأة التى بلغت المنتهى فى الوقاحة، وهو يتحدث عن رب العزة تبارك وتعالى بأنه "أكبر مشكل"، والكفر ملة واحدة كما يقال، فهذا التناول له شبيه معاصر على موقع الملحدون العرب يقول فيه صاحبه: "عندما يعجز الإنسان عن التفسير العلمى والعقلى يلجأ إلى الخرافة، وقد اخترع الإنسان إلهه كى يفسر الوجود، لكن الله فى واقع الأمر لا يفسر الوجود بل يزيد فكرة الوجود تعقيدا.

إذ سيظل العقل يسأل: إذا كان لكل موجود موجد فمن الذى أوجد الله؟ وإذا كان هذا الكون بدقة نظامه وإحكام بنائه يستحيل أن يوجد صدفة وبدون موجد فماذا عن هذا الإله الذى صنع كل هذا الكون المعجز؟

كيف أصدق أنه وجد دون موجد؟؛ لماذا يفقد قانون السببية منطقيته وعقلانيته عندما يصل إلى وجود الله ذاته[٣]".

وغفل قائل هذا الكلام أو تغافل عن بداهة بطلان الدور والتسلسل، وفى الإسلام وحده الحل الأمثل لهذه التساؤلات، " فالشك الذكى إنما يدل على وجود يقين يحاول اكتشاف نفسه، بل إن الشك الذكى كثيرا ما يفجره زحام النفس باليقين"[٤].

بل إن "الشكاك الذين أصابتهم الوساوس فزعزعت قواعد إيمانهم إذاهم التمسوا سبل الهداية وأدلة اليقين لدى العلماء يعتبر مسعاهم هذا مما يدعو إليه الإسلام ويأمر به الله تعالى.

ولقد رأينا فى عهد رسول الله ﷺ حال ذلك النفر من الصحابة الذين أصابهم شئ من ذلك فذهبوا إلى رسول الله ﷺ يطلبون ويلتمسون سبل الهداية

واليقين، وحدثوه عما عرض ليقينهم من زلزال جعلهم يبلغون حالا قالوا: إنهم يتعاظمون أن ينطق به لسانهم فأهون عليهم أن يلقوا فى النار من أن يتلفظوا به - وما نراه إلا الإلحاد- فتلقاهم الرسول ﷺ لقاء البشير، وحدثهم عن أن شك البحث عن الحقيقة هو الطريق الآمن إلى اليقين.. قائلا لهم فيما رواه مسلم وأحمد: " ذاك صريح الإيمان" "ذاك محض الإيمان"(٥).

والآن، وقد انتهينا من التعليق على ملابسات ظهور رسالة لماذا أنا ملحد؟ فى زمنها الأول، وتعرفنا على سطورها الأولى، وبعد أن انتهينا فى الفصل السابق من التعرف على ملامح شخصية إسماعيل أدهم، وألقينا الضوء على تجربته الإلحادية، فقد آن لنا أن نتناول بصورة مفصلة نقض هذه التجربة من خلال مناقشة الأفكار الآتية التى أفردنا لها هذا الفصل رغبة فى تعميق المناقشة، وتجنبا للتكرار، وهذه الأفكار هى:

١- إعلانه عن إيمانه بالعلم بعد جهره بالإلحاد، واعترافه بخروجه عن الأديان.

٢- رؤيته للألوهية.

٣- فكرته عن السببية.

٤- إيمانه بالصدفة.

أولا: إعلانه عن إيمانه بالعلم بعد جهره بالإلحاد، واعترافه بخروجه عن الأديان:

تعرفنا فيما سبق على تقلب إسماعيل أدهم فى كثير من البيئات، ووقوف قطار عمره فى عدد من المحطات أهمها: مصر وتركيا، والاتحاد السوفييتى، ولئن كان مذهبه الإلحادى فى مصر وتركيا كان فى طور التكوين والإعداد سواء أكان ذلك بجهد شخصى أم بعوامل خارجية فإن فترة إقامته فى الاتحاد السوفييتى قد أنضجته، وصقلت تجربته ورسخت جذور الإلحاد داخل تكوينه، وفى مختتم كلامه عن هذه الفترة من حياته يقول: " وكانت نتيجة هذه الحياة أنى خرجت عن الأديان، وتخليت عن كل المعتقدات، وآمنت بالعلم وحده، وبالمنطق

العلمي، ولشد ما كانت دهشتي وعجبي أني وجدت نفسي أسعد حالا، وأكثر اطمئنانا من حالتي حينما كنت أغالب نفسي للاحتفاظ بمعتقد ديني.

وقد مكن ذلك الاعتقاد في نفسي الأوساط الجامعية التي اتصلت بها؛ إذ درست مؤقتا فكرتي في دروس الرياضيات بجامعة موسكو سنة ١٩٣٤م(٦).

ولا يحتاج الأمر منا إلى مضاعفة الجهد وإرهاق النفس في البحث لالتقاط الخيوط المحركة لهذا المسخ الشائه حتى يصل إلى ما وصل إليه من إلحاد، فهاهو يعترف بنفسه:

_ بأنه خرج عن الأديان نتيجة هذه الحياة.

_ وأن الأوساط الجامعية التي اتصل بها مكنت اعتقاد الإلحاد في نفسه.

_ وأنه لا يؤمن إلا بالعلم وحده وبالمنطق العلمي.

_ وأنه قد صار أسعد حالا وأكثر اطمئنانا بإلحاده، وأنه وجد نفسه أفضل مما كان عندما كان يغالب نفسه للاحتفاظ بمعتقد ديني.

ولعلنا لاحظنا أنه كان يغالب نفسه للاحتفاظ بمعتقده الديني، وهو ما يرجح تعرضه لضغوط خارجية إلى جوار الضغوط النفسية على فرض وجودها بدليل اعترافه بسعادته واطمئنانه بعد اتخاذ قرار الإلحاد، ورغم اقتضاب حديثه حول هذه النقطة التي كانت تحتاج منه إلى بسط القول فيها فإننا نجد أنفسنا مضطرين لتفكيك خطابه وتحليل رؤيته بنفس المناهج المستخدمة عنده وعند نظرائه ممن ينظرون للأديان نظرة عدائية.

ونبدأ بالتعليق عليه هو شخصيا قبل التعليق على المناخ الذي هيأ له الاستعلان بمروقه من الدين، وليس أمامنا سوى الانتحاء بالدراسة ناحية وضع بعض الفروض، مثل افتراض:

- أنه كان عاقلا، وكان ذكيا حاد الذكاء متزن التفكير.

- أو أنه كان عاقلا إلا أنه كان يمارس لونا من ألوان الشك.

- أو أنه كان مجنونا.

ولدينا من شهادات المعاصرين ما يميل بنا نحو هذا الفرض أو ذاك، فمنها من شهد له بالعقل، أو حدة الذكاء، أو الجنون...

فإذا أردنا الاحتكام إلى معايير عامة يخضع لها كافة البشر فلا مفر أمامنا من الاستئناس بآراء العلماء والمفكرين، وها هو الشيخ أحمد حسن الباقورى يصنف الضالين بقوله: " إن الذين ضلوا السبيل إلى الله أحد رجلين:

- رجل حرم نعمة العقل، ولم يؤت حظا من الفهم والإدراك فهو والسائمة سواء لا يلفته جمال، ولا يوقظ مشاعره مشرق صبح أو سدفة مساء ﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ (٧).

- ورجل خدعه ذكاؤه، وغره علمه، وخيل إليه أنه قادر على أن يخرق الأرض، أو يبلغ الجبال فمد بصره إلى ما وراء الأفق البعيد، وضرب فى بيداء التيه والضلال، فكان أشبه بالفراش غرق فى النور فاحترق بالنار"(٨).

فإذا طبقنا هذا المعيار على إسماعيل أدهم ففى أى الفريقين نضعه؟، فى واقع الأمر لا نجد له إلا التوصيف الثانى، وهو أنه كان يتمتع بالذكاء بالإضافة إلى غروره بالعلم للدرجة التى جعلته يعلن اكتفاءه به، بيد أن هناك معيارا ثالثا نجده عند جوزيف بوخينسكى الذى وضع اللاعقليين والملحدين فى صعيد واحد، ولكن ليس بمعنى أنهم لا عقول عندهم، ولكن بمعنى وجود أشياء فى العالم تستعصى على عملية التعقل، وهنا يقارن بوخينسكى بين وايتهيد- وهو من كبار أصحاب النظريات فى الألوهية فى القرن العشرين، وبين سارتر - أشهر الملحدين- حيث يعتقد وايتهيد بوجود الله بناء على الصيرورة المستمرة فى العالم، وهى مدفوعة بقوة أسماها " القوة الخالقة"، حيث "يتبين للمرء أنه يجب أن يكون هناك إله أى قوة فوق العالم تحدد سيره، وعلى وجه الدقة قوة لا متناهية، ويسميها وايتهيد " مبدأ التحديد" أى السبب الذى به تكون الأشياء كما هى على هذا النحو وليس على نحو آخر(٩)".

ثم يعقب على ذلك قائلا:" والواقع أن كل أولئك الذين ينكرون قيمة الدليل الذى عرضناه هنا باختصارهم لا عقليون فى صور مختلفة، وهذا يسرى على الوضعيين وبعض المثاليين، ويسرى أخيرا على الفيلسوف الذى اشتهر بإلحاده وهو سارتر.

لقد فهم سارتر ورأى عدم ضرورة كل ما نجده فى العالم، وعدم كفايته أو الرضا به، فكل هذا – كما يقول– ليس له ما يبرره، ولم تكن هناك حاجة على الإطلاق لوجوده، ومع ذلك فهو موجود...

فالموجود الواقعى فى العالم لا يمكن أن يفسر إلا عن طريق الله، ولكن سارتر لا يريد أن يعترف بالله، ويرى أنه يمثل تناقضا..، فالمرء يجب عليه – كما يقول– أن يختار بين الله وبين اللامعقول"[١٠].

ونحن – بدورنا– لا نريد الخوض فى مستنقع الوجودية الملحدة رغم التقائها مع إسماعيل أدهم فى النتيجة النهائية وهى الإلحاد؛ وذلك لأنه لا ينتمى إلى فلسفتها بقدر انتمائه إلى الفلسفة الشيوعية التى يمت لها بصلة الرحم الإلحادى – إذا صح التعبير– لاعتبارات عدة، قد نلتقى معها بعد قليل.

كما أننا نستبعد فرضية اتصافه بالجنون رغم ما وصفه به من تناولوا سيرته بأنه مخبول أو مضطرب نفسيا، أو أنه كان كثير الأوهام، فضلا عن وصمه بالكذب.

فلم تبق معنا إلا فرضية واحدة، وهى أنه قد مارس لونا من ألوان الشك، فما هى نسبة المصداقية فى هذه الفرضية، وقبل الإجابة نسوق قوله الذى استندنا إليه فيها، وهو يقص عن نفسه عندما كان فى الرابعة عشرة من عمره فيقول: "كنت كثير الشك والتساؤل، فلما بدأت بهندسة إقليدس وجدته يبدأ من الأوليات، وصدم اعتقادى فى قدسية الرياضيات وقتئذ فشككت فى أوليات الرياضيات منكبا على دراسة هوبس[١١] ولوك[١٢] وبركلى[١٣] وهيوم[١٤]، وكان الأخير أقربهم إلى نفسى[١٥].

وحاول الكثيرون إقناعى بأن أكمل دراستى للرياضة، ولكن حدث بعد ذلك تحول لا أعرف كنهه لليوم، فالتهمت المعلومات الرياضية كلها، فدرست الحساب والجبر والهندسة بضروبها، وحساب الدوال والتربيعات، ولكن الشك لم يغادرني، فسلمت جدلا بصحة أوليات الرياضة ودرست وما انتهيت من دراستى حتى عنيت بأصول الرياضة، وكان هذا الموضوع سبب نوال درجة الدكتوراه فى الرياضيات من جامعة موسكو سنة ١٩٣٣..."[16].

وظل يتحدث عن دراسته الممزوجة بالشك إلى أن وصل إلى الإعلان عن إلحاده والإيمان بالعلم وحده، وذلك فى العبارة الى أوردناها فى بداية هذه الفقرة.

والذي يعنينا هنا هو الإشارة إلى الحضور الواضح للشك فى مسيرته الدراسية، وخصوصا فى المرحلة الثالثة منها، والتى ختمها بحصوله على شهادتى الدكتوراه، بيد أن اللافت للنظر هو أنه لم يكن منهجيا فى شكه، وبعبارة أخرى لم يكن شكه إيجابيا يتم التدرج من خلاله للوصول إلى اليقين أو إلى الحقيقة التي يستوعبها العقل، ويستريح إليها الوجدان، وترسو سفينة الروح على شاطئها، مثلما انتهى الكبار الذين استخدموا الشك منهجا للوصول إلى الحقيقة كالغزالى وديكارت، وقد تكرر ورود كلمة الشك فى القرآن، الكريم خمسة عشر مرة، منها قوله تعالى: ﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[17]، وقوله تعالى:﴿ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴾[18]، وقوله تعالى:﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴾[19]، ويقوم الجرجانى بتعريف الشك بقوله:" هو التردد بين النقيضين بلا ترجيح لأحدهما على الآخر عند الشاك.

وقيل: الشك ما استوى طرفاه، وهو الوقوف بين الشيئين لا يميل القلب إلى أحدهما، فإذا ترجح أحدهما ولم يطرح الآخر فهو ظن، فإذا طرحه فهو غالب الظن، وهو بمنزلة اليقين"[20].

إن إسماعيل أدهم يعترف بأنه مارس الشك، فأوصله هذا الشك إلى الخروج عن الأديان، ومن سفاهة تناقضه إعلانه عن التخلي عن معتقداته، والإيمان بالعلم وحده، فكيف السبيل إلى التوفيق بين: التخلي عن المعتقدات، والإيمان بالعلم في آن واحد؟!!، وهل هناك تعارض بين الإيمان وبين العلم؟.

إن شك إسماعيل أدهم يمكننا وصفه بأنه الشك الأحمق الغبي في مقابل الشك الذكي الذي قال عنه الأستاذ خالد محمد خالد:" فالشك الذكي إنما يدل على وجود يقين يحاول اكتشاف نفسه، بل إن الشك الذكي كثيرا ما يفجره زحام النفس باليقين.

فلنسأل العقل إذن: هل هو مع قضية الإيمان بالله أم ضدها؟

أجل.. لنسأل العقل والعلم معا: هل ينفيان وجود الله؟

إن أحكام العلم والعقل تستمد صدقها من حواسنا، ومن التجربة العلمية التي نجريها في معاملنا، والأحكام التي تجيئنا عن هذا الطريق تكون موضع يقيننا ونسميها في إجلال: المعرفة، وأهم مميزات هذه "المعرفة" أنها ضد الأحكام النهائية.

فإذا جاءنا من يصدر في قضية الإيمان حكما نهائيا فيقول: ليس هناك إله فإن العلم نفسه يقول له: هذا غرور؛ لأن إصدار مثل هذا الحكم يتطلب أن تكون قد عرفت الحقيقة كلها، وعرفت جميع المجهول الذي سيظل سكان هذا الكوكب ملايين السنين يكشفونه جزءا فجزءا.

ويقول له العلم أيضا: إننا نستمد صدق أحكامنا من التجربة، والمعامل لم تشهد حتى اليوم تجربة مادية تنفي وجود الله.

فالمعرفة بمفهومها العلمي تتورع عن نفي الله؛ لأنه إذا كان العقل لا يؤمن إلا بما يثبت وجوده فواجبه أن لا يجحد إلا ما يثبت نفيه، فمتى أثبت العلم نفي الله؟

إننا نحتكم إلى العلم بتفكيره التجريبي الواقعي، وبالطريقة التي أثبت بها حركة الأرض وتحول المادة عليه أن يثبت نفي الله، وإذا لم يفعل فلا أقل من أن نحترم دوما ذلك الهاتف الأبدي الذي لا يفتأ منذ وجد الإنس على الأرض يصيح بنا: هناك إله"[٢١].

فهل صنع الهالك الضال إسماعيل أدهم شيئا من هذا؟ فى واقع الأمر نجيب بكل ثقة بأنه لم يصنع شيئا من هذا بل أبحر ضد التيار العقلى فأعلن إلحاده، وهو فى الحقيقة يعلن عن سفاهته وإفلاسه الفكرى وخوائه الروحى، وهزيمته النفسية.

إنه بإعلانه عن إلحاده يتسق مع خلفيته الماركسية، والمناخ الذى تربى فيه، والأوساط التى اتصل بها كما يقول، وقد كان بإمكانه الإفلات من هذه الدائرة الملعونة التى يقول أحد روادها وهو لينين: "إن البحث عن الله لا فائدة منه، ومن العبث البحث عن شئ لم يخبأ، وبدون أن تزرع لا تستطيع أن تحصد، وليس لك إله لأنك لم تخلقه بعد، والآلهة لا يبحث عنها، وإنما تخلق"[٢٢].

وسنتعرف بعد سطور قليلة على أن لينين هذا قد تحول عند أشياعه إلى معبود، وحل محل المطلق عند أهل الإيمان، ولكننا مازلنا نتساءل عن جرأة هذا المارق التى ليس بينها وبين الوقاحة سوى خيط رفيع، والأمر ليس مستغربا؛ لأن انتكاس الفطرة أمر وارد، وذلك الملحد له أشباه ونظراء على مدار التاريخ الإنسانى جهروا بإلحادهم، ومنهم هنرى لنك الذى يقول:" ولما تخرجت فى الجامعة كنت ملحدا عنيفا مقتنعا تمام الاقتناع بإلحادى والاستعداد لإقناع غيرى به، ومضيت على مدى العشرين سنة التالية أسرف فى احتقار التعاليم الكنسية مؤمنا بأن الدين هو ملجأ العقول الخاملة"[٢٣]، إلا أنه اشترى الضلالة بالهدى.

ولم يكتف هذا الملحد بالاعتراف بإلحاده وحده بل أعلن عن إلحاد كثير من الطلاب والأساتذة، بل أعلن أنه وهو وزوجته قد أصبحا من كبار الملحدين[٢٤]، إلا أنه عاد إلى واحة الإيمان كما سنعرف بعد قليل.

ومن هؤلاء الذين فجروا فى إعلان إلحادهم الطاغية الروسى ستالين الذى يقول بفخر: "نحن ملحدون.. ونحن نؤمن بأن فكرة الله خرافة، ونحن نؤمن بأن الإيمان بالدين يعرقل تقدمنا، ونحن لا نريد أن نجعل الدين مسيطرا علينا؛ لأننا لا نريد أن نكون سكارى"[٢٥] ، ولم لا؟ أليس الدين أفيون الشعوب؟. ولا غرابة فى ذلك لأن الإلحاد جزء من مفهوم الشيوعية حيث "يعتقد الشيوعيون أن الحياة

الإنسانية على ظهر الأرض هى الوجود البشرى كله، وأنه كما جاء الإنسان من عدم فهو صائر إلى عدم.

وأن فترة الإحساس من المهد إلى اللحد هى وحدها فترة العمل والجزاء ثم يتحول الكيان الآدمى كله إلى ذرات أخرى متلاشيا إلى غير عودة.

ويتبع هذه العقيدة أنه لا ألوهية بتاتا، وبالتالى فلا تـوراة ولا إنجيـل ولا قرآن، وليست هناك تعاليم تصح نسبتها إلى السماء.

ومن ثم فالوحى كله خرافة لا أصل لها!!.

والأنبياء عصابة من الكذبة!!!.

ولا مكان فى الفكر الشيوعى بداهة لصور العبادات، ولا لمعانى الحـلال والحرام، والفضيلة والرذيلة كما يقررها الدين.

كلا. ليس لهذا الوجود صاحب ولا من ورائه هدف!!.

لقد تخلق تلقائيا، ومضى إلى مستقبله المجهول عشوائى الخطـا معـدوم الوجهة"[٢٦].

ولم يكن الإلحاد قاصرا على الشيوعية فحسب؛ لأن كثيرا مـن المـذاهب والفلسفات تبنت الاتجاهات الإلحادية، بل كان الإلحاد جزءا من بناهـا الفكريـة وأنساقها العقلية؛ إلا أن الإلحاد فى الشيوعية كان أفجر أنواع الإلحاد لأنه كـان فلسفة نظام، وأساس حكم بلغ من الطغيان منتهاه، فقام بنشر الفكـر الشـيوعى بالحديد والنار، وحاول تصديره للعالم كله، ونحن لو حاولنا التذكير بمـا جـرى للمسلمين تحت الحكم الشيوعى فى كل أصقاع الأرض من إزهـاق لـلأرواح، وسجن وتعذيب وترويع وتجويع لاحتجنا إلى مجلدات، بالإضافة إلى شراء الذمم والضمائر لمرضى النفوس فى العالم الإسلامى للترويج للمـذهب الشـيوعى، والدعوة لنشر الفلسفة الماركسية، والمضحك فى سياقنا هذا زعم بعض أذنـابهم بانعدام التعارض بين الماركسية والإسلام، ومهما يكن من أمر فإن من أبجديات العمل الشيوعى فى البلاد الإسلامية "تشجيع الكتاب الملحدين، وإعطائهم الحرية كلها فى مهاجمةالدين والشعور الدينى، والضمير الـدينى، والعبقريـة الدينيـة،

والتركيز على أن الإسلام انتهى عصره، ولم يبق فيه إلا العبادات الشكلية..." [٢٧]، ومن ذلك أيضا: "نشر الأفكار الإلحادية بل نشر كل فكرة تضعف الشعور الديني والعقيدة الدينية، وزعزعة الثقة في رجال الدين في كل قطر إسلامي"[٢٨].

وقد حاولوا ذلك في مصر المحروسة في بعض العقود الماضية، ومازالوا يحاولون إلى الآن، وليس أدل على ذلك من هذه الهجمة الشرسة التي يتعرض لها فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر من عدد من الصحفيين ذوي الخلفية الشيوعية، وغيره من علماء الأزهر الكبار.

بل وصل الأمر ببعض الأكاديميين اليساريين في مصر إلى الدفاع عن ماركس، وفي ذلك يقول: "من المفيد أن نتوقف عند مقولة ماركس "الدين أفيون الشعوب" التي برر البعض بها اتهامهم الماركسية بالإلحاد.

ونحن نرى أن ماركس لم يقصد بذلك رفضه للدين؛ بل على العكس أبرز أثره الإيجابي في تطور حركة التاريخ، ونضيف بأن مسألة الدين لم تكن شاغلا لماركس في إطار هويته "الغيبية" الميتافيزيقية، وذلك لأن الماركسية خلو من أفكار عن الميتافيزيقا، بل هي نظرية وضعية تبحث وتحلل وتفسر الواقع المادي العياني والتاريخي"[٢٩].

ولم يكتف هذا المبشر بالماركسية في البيئة الإسلامية بالدفاع عن ماركس بل انبرى للهجوم على الدعوات المنادية بما يسمى بأسلمة العلوم، ونسبها إلى ما أسماه "مخططات امبريالية"، وحذر من "خطورتها على العلم والدين في آن"، ولن نكتفي بهذا الاقتباس الموجز بل سنسوق للقارئ عبارة أطول تكشف إلى حد كبير انحيازه للفكر الشيوعي مع ملاحظة الألفاظ والمصطلحات الماركسية المستهلكة التي أكل الزمان عليها وشرب، وفي ذلك يقول :" إن محاولة الاستشراق الامبريالي الجديد لتطويع الإسلام وتطويقه وتوظيفه في تكريس التبعية والتخلف كانت كذلك من وراء إصدار سلسلة من الكتب تقدم الإسلام بصورة شوهاء وإن غلفت بغطاء قشيب.

ولعل من أوضح الأمثلة الدالة فى هذا الصدد الدور الخطير الذى يقوم به المفكر الفرنسى "روجيه جارودى" الذى ادعى اعتناق الإسلام، وقوبل بحفاوة وتكريم من قبل الجهات الدينية التى روجت لكتاباته بعد ترجمتها إلى اللغة العربية، وتناقلت وكالات الأنباء وأجهزة الإعلام تصريحاته عن "الإسلام كدين للبشرية فى المستقبل"، ولم يفطن أحد إلى دوره الخبيث لهدم الإسلام من الداخل"[٣٠].

وكأنه بقوله هذا حريص على الإسلام، ويخشى عليه من جارودى وأمثاله ونحن لا نصدقه؛ لانحيازه الواضح للماركسية، ونستشهد هنا بوجهة نظر شاهد على العصر عاش التجربة الماركسية فى مصر بكل أبعادها وعاشر رموزها، وعاصر روادها إلا أنه لم يسقط فى مستنقعها، ولم يؤمن بها؛ لاستحالة الجمع بينها وبين الإسلام، وفى سياقنا هذا نستأنس برأيه فى أمور ثلاثة هى على الترتيب:

رأيه فى الدعوة للحياد بين الماركسية وبين الدين، ورأيه فى موقف ماركس من الدين، ورأيه الشخصى فى ذلك الأكاديمى المصرى الذى يتحدث بلسان ماركس، وذلك على النحو التالى من خلال أقواله:

١- "إن الدعوة للحياد بين الماركسية وبين الدين هى "تكتيك" سياسى وعمل أملته ظروف العالم الثالث، وقد يروج له الشيوعى "مرحليا"، وقد يؤمن به بعض أنصاف المثقفين وكل من تكونت معرفته الماركسية بواسطة كتيبات الدعاية السوفيتية الحمراء...

وإن جاز – أن يفترض جدلا- إمكانية الحياد بين الماركسية والدين (من وجهة نظر الماركسية) فإن نفس الافتراض (من وجهة نظر الدين عموما والإسلام خصوصا) مستحيل؛ لأن الإسلام طرح شمولى، ولا يمكن أن يسود سواه فى جماعة المسلمين، ولا حاجة له لنظم مكملة"[٣١].

٢- " إن دارسى ماركس لم يلتفتوا إلى حقيقة ثابتة جلية، وهى أن ماركس لم يطور بأى شكل من الأشكال الخطوط العامة لفلسفته منذ كان ما بين

العشرين والثامنة والعشرين من عمره، بل إنه حافظ على تلك الخطوط العامة، والتي تتمثل في هجومه الحاد السافر على الدين، وفي إيمانه بالمادية.

والملاحظ هنا أن كتابات ماركس الأولى كلها كانت في مجموعها كتابات تهكمية عن الدين تتسم بالسطحية والبعد الكامل عن التعمق والبحث الجاد المتأصل.

فماركس ابن ذلك الزمان والمكان اللذين كانت كل الأفكار فيهما تدور حول الدين ورفضه، والهجوم الساخر المرير عليه.

في هذا المناخ المتشبع إلى أقصى حد بروح وأفكار العداء للدين شب ماركس، وبفعل عقده الراجعة لظروفه الخاصة كابن ليهودي بدل دينه ليهرب من مساوئ الانتماء للأقلية اليهودية ببلده ولم ينجح.

وتلك بذرة فكرة ماركس في كتابه "المسألة اليهودية" بأن خلاص اليهودي لا يكون باعتناق المسيحية، وإنما بتدمير الدين كظاهرة، فالخلاف بين اليهودي والمسيحي خلاف ديني يزول بالقضاء على الدين برمته"(٣٢).

وفي سياق آخر في نفس الكتاب عاد الأستاذ طارق حجي لماركس ولكن بأسلوب أوضح وأكثر حدة حاكيا عن خلاصة تجربته الشخصية مع الماركسية، وأهم النتائج المستخلصة منها فيقول:" إن دراسة كل حرف خلفه أقطاب الشيوعية في العالم بأسره عن الماركسية داخل وخارج الاتحاد السوفييتي، ومتابعة السياسة الدولية عامة، والحركات الاشتراكية والشيوعية خاصة خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، والاتصال المباشر بأقطاب الحركات الشيوعية في أكثر من بلد، وعدم الانقطاع – لحظة– عن أحدث ما أنتجته دور النشر العالمية، والدوريات الأكاديمية أو المتخصصة عن الماركسية – إن ائتلافا أو اختلافا أو بين ذلك قواما– لا نخشى أن نقول: إن كل هذا قادنا للتيقن لا فقط من بطلان مذهب ماركس فلسفيا واقتصاديا واجتماعيا بطلانا مطلقا، وإنما أكثر من ذلك إلى التيقن من أن نصيب مذهب ماركس بكل جوانبه من "العلم" هو "العدم"، وأن العلمية كل العلمية، والموضوعية كل الموضوعية تقتضي النظر إلى ماركس برمته كطفح مرضي على بشرة التاريخ العقلي للإنسان، طفح أملته ظروف القرن التاسع

عشر الخاصة من جهة، كما أملته من جهة أخرى تكوينـــات كـــارل مـــاركس الخاصة، والناجمة عن طبيعة غير سوية يحكمها الحقد المرير، والمقت الشـديد لكل معالم المجتمع الذى حاصره بسبب يهوديته فأراد ماركس أن يحاصره بسيل عارم من الأفكار التى تهدمه وتقوضه تماما"(٣٣).

٣- يتحدث طارق حجى عن لطفي الخولى أحد أبرز قادة اليســار المصـرى قائلا عنه وهو حى أى قبل هلاكه: " إنه خاض حربا مبتذلة منذ سنوات ضد أحد أكبر الشخصيات الإسلامية فى مصر متعللا بأنه أكثر منه إســلاما(٣٤)، ولكنه إسلام تقدمى لا رجعى، وقد سمعنا بأنفسنا من هذا الأديب السياســى المفكر أن أقصى آماله أن يختفى الدين من الحياة المصرية تماما فلا يبقــى له أثر إلا تلك العلاقة الخفية بين المرء وربه، أما تغلغل الدين فى حياتنـــا العامة فلابد من القضاء عليه..." ،ثم يسترسل الأستاذ طارق حجــى فــى حديثه ليصل إلى ذكر ذلك الماركسى الحقود الذى لم يخف مشاعر الغضب من إسلام "روجيه جارودى"، وفى ذلك يقول: "وهذا المفكر الشاعر الأديب السياسى الذى أتحدث عنه هو نفسه الذى رأيته بعد ســنوات فــى أقصــى حالات السعادة والاستبشار، فقد عثر على شاب مصرى عبقرى حاصل على درجة الدكتوراه فى التاريخ الإسلامى، وفى نفس الوقت ماركسى لينينى من الطراز الأول، وهو – على حد تعبيره- اكتشاف لم يحلم به فى حياته.

وما كادت أسابيع تنقضى حتى كان الأديب الكبير الذى كان يرأس مجلس إدارة واحدة من أكبر دور الصحافة المصرية والعربية قد تبنى مدرس التـــاريخ الإسلامى الشيوعى بإحدى جامعات القاهرة، وطبع له عشرين ألف نسـخة مـــن كتابه (الفذ) عن " الحركات السرية فى الإسلام"، ولم يكتف الأديب الكبير بهـذا، بل وواصل تبنيه للكنز الذى عثر عليه على غير انتظار، ففتح له صفحات إحدى المجلات السياسية الأسبوعية ذائعة الانتشار ليطل منها علـــى النـاس بمقالاتـــه وأبحاثه الفريدة والتى تثبت من جهة أن الخوارج هم فريق تقدمى يســارى فــى الإسلام، وأن القرامطة هم فرقة يسارية من أكثر فرق الإسلام تقدميــة.... وأن

اختيار أبى بكر للخلافة قد جاء نتيجة مؤامرة من البرجوازية العربية (أبى بكر وعمر من كبراء الأنصار) ضد البروليتاريا العربية (على بن أبى طالب وأبى ذر الغفارى)" [٣٥].

ولا أستطيع كتمان استغرابى من قيام الداعين للماركسية فى الأقطار الإسلامية بالحديث عن الإسلام والكتابة فيه، مالهم وللأديان؟ بل ما لهم وللإسلام خاصة وهم يضمرون العداء له، ويمتلئون حقدا عليه، تفضحهم فلتات الألسن، وسقطات الأقلام، عليهم أن يحتفظوا بعلمهم لأشياعهم، وولائهم لأسيادهم، وعقيدتهم لروادهم، نعم هم أصحاب علم لكنه ضار غير نافع، وأهل ولاء ولكنه ليس لأوطانهم، وأتباع عقيدة ولكنها تصب فى اتجاه واحد هو الإيمان بأنبياء الشيوعية الكذبة؛ فـ "الشيوعيون لا يكتفون من الشيوعى بأن يبرأ من الدين بقلبه ولسانه بل يريدونه أن يعمل ما وسعه الجهد لرد المؤمنين بالله عن دينهم ليكون الناس جميعا شيوعيين على دين ستالين ولينين وكارل ماركس لا على دين نبى من أنبياء الله ورسله" [٣٦].

فالشيوعى فى إلحاده شأنه كشأن الملحدين فى كل زمان ومكان الذين قاموا بإحلال عقيدة فاسدة محل عقيدة صحيحة أو شبه صحيحة، والتزموا عقلا – رغم أنوفهم– بما أعلنوا الفرار منه، وما أصدق ما قاله كارل يا سبرز: "لقد زعم نيتشه أن "الإله قدمات"، ومهما يكن تفسيرنا لهذه العبارة – التى لم تكن بالنسبة لنيتشه نفسه سوى صرخة يأس– فإننا نواجه اليوم ملايين من البشريجهرون بالإلحاد دون اكتراث، ويطبقونه فى حياتهم بيد أن معظم الناس لا يطيقون الإلحاد، فحين يشعر الإنسان بنفسه شعوراً تاماً يأبى أن يخدع نفسه، ويدرك أنه لا غناء له بنفسه، فقد يقول: إنه ملحد، وقد يرغب فى ذلك، وقد يعلنه، ولكنه فى الواقع سرعان ما يسيطر عليه ذلك المعنى الذى حل فى نظره محل الإله.

وإن ضريح "لينين" حيث يعرض جثمانه، والاعترافات فى القضايا العلنية، والاستسلام لعنف الحاكم المطلق، كل هذه وجوه بسيطة للتعبير عن وضع لمعنى يحل محل المطلق، وهذا ما يحاول الملحد عبثا أن يتجنبه بعد أن أنكر وجود الإله" [٣٧].

وهذا التحليل يصدق كل الصدق، وينطبق تمام الانطباق على الملحد إسماعيل أدهم الذى آمن بالعلم وكفر بكل ما عداه، وإيمانه هذا هو لون من ألوان الاعتقاد الذى حاول عبثا أن يتجنبه على حد تعبير ياسبرز.

ولكن هل كان موفقا فى موقفه هذا؟، وبصيغة أخرى للسؤال: هل يمكن الاكتفاء بالعلم والاستغناء به عن الدين؟، وهل هناك تعارض بين العلم والدين؟

إن أدهم بزعمه الاكتفاء بالعلم والاطمئنان إليه لا يقف فى ساحة الإلحاد وحده بل إنه ﴿ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ ﴾[٣٨]، وزعم علمية الإلحاد فاسد مهما حاول أصحابه البرهنة عليه بالاحتيال والمخاتلة، اقرأ معى قول ذلك الضال المعاصر الدكتور صادق جلال العظم: " إن المفكر الذى لا يعتقد بوجود الله أو يعلق الحكم حول الموضوع بأسره قد لا يفعل ذلك من جهة تكوينه العاطفى.. إنه يفعل ذلك لأن القناعات الفكرية التى تشكلت لديه على أسس علمية واضحة لا تسمح له بأن يعتقد بوجود الله دون أن يقع فى تناقض ذاتى، ودون أن يضحى بوحدة تفكيره ومنطقه"[٣٩].

وما أصدق تعليق الشيخ محمد مهدى شمس الدين على هذا الرأى الأحمق حيث يقول: "إن الشك فى وجود علة نهائية المكون، أو الاعتراف بذلك والشك بأنها:

الله

أو المادة ينتج لدى رجل الفكر من أحد عاملين:

إما عن قصور فكرى

وإما عن سوء استخدام للفكر بالطريقة الصحيحة"[٤٠].

إننا نرفض رفضا قاطعا الزعم بوجود تعارض بين الدين وبين العلم، كما نرفض ادعاء استحالة الجمع بينهما، أو إحلال أحدهما محل الآخر، ونستشهد بالطرح الدقيق للدكتور رشدى فكار، والذى جاء فى قوله: "إننا نستبعد

الأطروحات المغشوشة أو المتعجلة، وهي أطروحات ما نسميها " بالإحلال أو التبرير"، والتي تسعى إلى إحلال العلم محل الدين أو العكس – إحلال الدين محل العلم–، أو تبرير العلم بالدين أو تبرير الدين بالعلم الدنيوى النسبي والمحدود دون وعي بتسامي الدين في كماله وشموله من منطلقه وعبر مسيرته وغائيته الخالدة عن العلم بجزئياته ومرحليته بين التخطئ والتصويب.

فإن كان ولابد من تبرير فالعلم هو الذى يبحث عن سند وتبرير له من جانب الدين ليميز بين علم بناء للإنسانية وعلم مدمر لها.

إنما الذى نسعى إليه هو المواجهة والحوار بهدف التحدى، مواجهة ما حققه العلم بعد أربعة عشر قرنا من ظهور الإسلام لنكتشف معه من خلال اكتشافاته وخطواته المتجددة هل فيها ما يخالف نص القرآن؟

هل استطاعت مسيرة العلم بعد أربعة عشر قرنا أن تسجل ولو إصابة واحدة تنال من مرمى قرآننا الخالد؟، وهو الذى نحتكم به كما كان شأننا دائما إلى جانب الصحيح من الأحاديث الشريفة"[٤١].

وأرجو أن نحتفظ فى ذاكرتنا بمصطلح "التبرير" الذى استخدمه فكار فى هذا النص الذى قمنا باقتباسه؛ لأننا سنحتاجه بعد قليل، وذلك عندما نتعامل مع معالجة الملحد لقضايا الألوهية.

وفى سياقنا هذا نحب أن ننوه بما خلص إليه الدكتور فكار من الإقرار بنسبية العلم، ومحدوديته فى مقابل كمال الدين وشموله؛ ولهذا فإن الزعم بأن العلم قادر على إيجاد حلول لجميع المشاكل زعم مرفوض؛ لافتقاده إلى المصداقية العلمية أولا قبل أن نشير إلى فقدانه للمقومات الأخرى التى تتيح لنا الاطمئنان إليه، وهى إن لم تكن مستحيلة التحقيق فهى على الأقل عسيرة التطبيق، وفى ذلك يقول أحد علماء البيولوجيا:

"ومن آن لآخر نقرأ قولا حماسيا بأن العلم قادر على إيجاد حل لجميع مشاكلنا، ولكن أى عالم حقيقى يعرف ما فى هذا القول من بطلان.

ومن المتفق عليه أن إجراء التجارب على الآنميين أمر غير مشروع من حيث المبدأ لمخالفته لمعاييرنا الأخلاقية بل ربما لمجافاته لأحاسيسنا الخلقية، وهذا أول سبب لمحدودية قدرات العلم مع حل مشاكلنا.

وهناك سبب ثان هو صعوبة الدعم المالى لارتفاع نفقات إجراء التجارب اللازمة لحل المشكلة برغم كونها مشروعة.

والسبب المهم الثالث يكمن فى صعوبة عمل الأجهزة البالغة التعقيد، والقائمة بالوظائف المتصلة بالمشكلة المراد حلها، وفى مقدمتها الجهاز العصبى المركزى، وعلى قمته الدماغ بخلاياه التى تفوق البليون عددا مما يجعل تحليل عملية التفكير مستعصية على الفهم فالصعوبة هناك ليست أخلاقية ولا اقتصادية، ولكنها صعوبة فى التنفيذ.

ومثل هذا يمكن أن يقال عن آلية عمل الجينوم genome (جهاز المورثات) بما فيه من شفرات عديدة يصعب فكها"[٤٢].

وبطبيعة الحال فإننا فى سياقنا هذا لن نناقش نظرة مؤسسى المدرسة المادية وأتباعها لمثل هذه الأمور الواردة فى هذا الاقتباس من خلال الطرح المادى البحت؛ لأن هذا الطرح المادى الفاسد لا يستحق منا مجرد الوقوف عنده فضلا عن مناقشته.

ولا نريد الاستطراد حول هذه النقطة فقد أفاضت المصادر ذات الصلة بالموضوع بالحديث حولها، ورغم ذلك فإننا نحيل القارئ إلى دراسة دقيقة أعدها أستاذنا الفاضل الدكتور طه الدسوقى حبيش تحت عنوان: "وهم التقابل بين العلم والدين"[٤٣] ففيها معالجة شاملة لهذا الموضوع الشائك.

ثانيا: رؤية إسماعيل أدهم لقضية الألوهية:

بعد أن قام إسماعيل أدهم بإيراد بعض أسماء لفلاسفة وعلماء صنفهم ضمن اللاأدريين، وهم كانت[٤٤]، وهربرت سبنسر[٤٥]، وتوماس هكسلى[٤٦] عقب على ذلك بهذا التساؤل : "هل عدم قيام الأدلة على عدم وجود الله مما يدفع المرء للا أدرية؟ [٤٧]"

ثم يتولى الإجابة بنفسه على سؤاله المطروح قائلا فى غرور الواثق أو ثقة المغرور: "الواقع الذى ألمسه أن فكرة الله فكـــرة أوليـــة، وقـــد أصـــبحت مـــن مستلزمات الجماعات منذ ألفى سنة؛ ومن هنا يمكننا بكل اطمئنان أن نقـــول: إن مقام فكرة الله الفلسفية أو مكانها فى عالم الفكر الإنسانى لا يرجع لما فيها مـــن عناصر القوة الإقناعية الفلسفية، وإنما يعود لحالة يسميها علماء النفس التبرير.

ومن هنا فإنك لا تجد لكل الأدلة التى تقام لأجل إثبات وجود السبب الأول قيمة علمية أو عقلية.

ونحن نعلم مع رجال الأديان والعقائد أن أصل فكـــرة الله تطـــورت عـــن حالات بدائية، وأنها شقت طريقها لعالم الفكر من حالات وهم وخـــوف وجهـــل بأسباب الأشياء الطبيعية.

ومعرفتنا بأصل فكرة الله تذهب بالقدسية التى كنا نخلعها عليها"(٤٨).

هذه الفقرة من رسالة "لماذا أنا ملحد؟" هى الوحيـــدة التـــى تنـــاول فيهـــا إسماعيل أدهم قضية الألوهية بأسلوب مباشر، وقبل التعرض لها بالتحليل والنقد نبدى الملاحظات الآتية:

١- جاء حديثه عن رب العزة تبارك وتعالى بصورة لا تليق بذاته العلية، وقـــد تكرر لفظ الجلالة فى هذه الفقرة أربع مرات مضافا إلى كلمة فكرة؛ وبهـــذا فقد حصر قضية الألوهية فى دائرة الفكر، واختزل الله عز وجل فى فكـــرة من الأفكار!!.

٢- اعتبر إسماعيل أدهم "فكرة الله" فكرة أولية، ولعلنا ما زلنا نذكر أنـــه قـــام بالشك فى أوليات الرياضيات، ولابد من ملاحظة أن الذى يمارس الشك فى الأوليات لابد أن يكون لديه خلل فكرى بشكل أو بآخر؛ لأن أوليات العلـــوم من القواسم المشتركة التى تلتقى عندها العقول،وتتوحد لديها الأنظار، ولـــم يشذ على هذا الخط الفكرى سوى السوفسطائيين، ومن سار علـــى دربهـــم، وكذلك الأمر بالنسبة لأولية "فكرة الله" التى هى جزء من فطرة الناس التـــى فطرهم خالقهم عليها، وفى سياقنا هذا نحيل القارئ إلى الدراسة القيمة التى

قام بإعدادها الزميل الفاضل الدكتور محمد عبد التواب السيد تحت عنوان: "وجود الله تعالى بين الفطرة والدليل"، (انظر قائمة المراجع).

٣- وضع أدهم نفسه في مصاف المتخصصين في علم الاجتماع، واستخلص بعبقريته أن فكرة الله أصبحت من مستلزمات الجماعات منذ ألفي سنة.

٤- خطا خطوة أبعد، وإن شئت قل قفز قفزة أعلى إلا أنها كقفزة القرد عندما سلب فكرة الله عناصر القوة الإقناعية الفلسفية التي لم تكن سببا لانتشارها في عالم الفكر الإنساني، وإنما السبب هو التبرير على حد تسمية علماء النفس فيما يزعم.

٥- التشكيك في الأدلة التي تثبت وجود السبب الأول على حد تعبيره، وافتقادها للقيم العلمية والعقلية.

٦- تطور فكرة الله عن حالات بدائية كما يزعم هذا المرتد، ويرجع وجودها إلى الحالات الشعورية ومنها الجهل بأسباب الظواهر الطبيعية.

٧- افتقاد فكرة الألوهية للقدسية التي كان البشر يخلعونها عليها بعد معرفة أصلها.

ونبدأ الآن بتفكيك خطابه، وتحليل منطلقاته لإظهار مدى ضحالة أفكاره، والكشف عن جهله وسفاهته، ولكن قبل ذلك نحن في حالة اضطرار للبدء – ونعتذر للتكرار- بالتذكير بجذر هذا التعبير الغريب الذي يتحدث فيه عن الألوهية بجلالها وجمالها وكمالها باعتبارها مجرد فكرة من الأفكار، وهذا الجذر جاء في مادة ضمن أحد القوانين الصادرة في الاتحاد السوفييتي بتاريخ ١٥ مايو ١٩٣٢م عندما كان ذلك الملحد يقيم هناك في معقل الإلحاد في العالم، وقبل حصوله على درجتي الدكتوراه بعام واحد، تقول هذه المادة: " لن يبقى في كافة أرجاء الاتحاد السوفييتي مكان للعبادة، ويجب القضاء نهائيا على فكرة الله؛ لأنها بقية من بقايا القرون الوسطى، وأداة لاضطهاد الطبقات العاملة"(٤٩)، ونحن نقطع بأن هذا المارق قد اطلع على هذا القانون، وعلى هذه المادة بالذات، بل كان أداة طيعة من أدوات تحقيقها، وليس أدل على ذلك من منهجه في التفكير، وأسلوبه في التناول، ولغته في الحديث.

إن إسماعيل أدهم أخفق فى تناوله قضية الألوهية إخفاقا واضحا مثلما أخفق فى تبنى موقف الشك الذى تأدى به إلى نتائج سلبية، وهو هنا قد كان بإمكانه تغيير خطته، وتعديل منهجه والوصول إلى الاعتراف بوجود الله تعالى بدلا من الاعتقاد بإنكاره، وإذا كان هذا الملحد يداوم على استخدام ألفاظ تعبر عن الاطمئنان والارتياح وما شابه ذلك عند حديثه عن الأمور المفصلية الخطيرة فى حياة كل إنسان، فلا أقل من أن نكون أولى منه باستخدامها، ومن هنا نقول بكل اطمئنان بل وثقة:

إن هذا المسخ لم يكن حرا فى اتخاذ موقف فكرى مستقل، بل كان يؤدى دورا مشبوها لتشكيك المسلمين فى عقيدتهم، وإفساد حياتهم الروحية، والتشغيب على مساراتهم الأخلاقية، وقد يأتى اليوم الذى تتكشف فيه الحقيقة عن طريق الأدلة التى طواها النسيان، ولكننا على أمل فى أن يقع الذين قاموا بنشر كراسته الإلحادية فى منتصف هذا العام (٢٠٠٧م) فى شر أعمالهم بكشف المستور، والإفصاح عن المسكوت عنه فى خطابهم الإعلامى المشبوه.

أقول هذا وأمام عينى عشرات النماذج التى توصلت إلى الإقرار بل والاعتقاد بوجود الله تعالى عن طريق الشك، أو عن طريق الفكر، أو عن طريق العلم، وقد قام العلامة الدكتور محمد عبد الله دراز بإعداد بحث قيم ضمن كتابه "الدين" جعله تحت عنوان "نشأة العقيدة الإلهية" تحدث فيه عن العوامل الأولى لإيقاظها فى النفوس، ثم ذكر المناهج المختلفة التى خاضت فى هذه اللجة العميقة، وسبحت فيها وصولاً إلى الإقرار بوجود الله عز وجل، ومنها:

المذاهب الكونية أو الطبيعية.

المذاهب الروحية أو الحيوية.

المذاهب النفسية.

المذاهب الأخلاقية.

المذاهب الاجتماعية.

حيث قام بعرضها وتحليلها ونقدها وإيراد نماذج لكبار ممثليها الذين توصلوا للإقرار بوجود الله تعالى بمعزل عن وحى السماء، ولكن عقول البشر مهما سمت ونضجت، وتوصلت إلى حقيقة الحقائق، وهى الألوهية تظل هذه العقول قاصرة عن معرفة أى شئ آخر يخص هذه القوة القاهرة، أو الإله الأعلى، أو الموجود الأسمى، أو أية تسمية أخرى من التى توصل إليها أرباب هذه المذاهب سالفة الذكر؛ ولهذا يظل الإنسان -ويبقى- فى أمس الحاجة إلى المصدر الصحيح للتعرف على عقيدة الألوهية، وهو مصدر واحد، وهو الوحى، لماذا؟ لأن "وسائل العلوم عجزت أن تقدم لنا بيانا شافيا يطمئن إليه قلبه عن ديانة الإنسان الأول، أما من أحب أن يسترشد بنصوص الكتب السماوية، فإنه سوف يجد فيها ما يشد أزر القائلين بأولية العقيدة الإلهية الصحيحة لا فى الغريزة فحسب" ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ بل فى التطور الزمانى كذلك.

فهذه النصوص تنادى بأن الناس بدءوا حياتهم مستقيمين على الحق مؤتلفين عليه، وأن الانحراف والاختلاف إنما جاء عرضا طارئا بعد ذلك: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ﴾ وأن استمرار هذا الخلاف واتساع شقته إنما كان بتأثير الوراثة وتلقين كل جيل عقيدته للناشئين فيه: "كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه"، وإلى ذلك كله فإن الكتب السماوية متفقة على أن الجماعة الإنسانية الأولى لم تترك وشأنها تستلهم غرائزها وحدها بغير مرشد ومذكر، بل تعهدته السماء بنور الوحى من أول يوم فكان أبو البشر هو أول الأفذاذ الملهمين، وأول المؤمنين الموحدين، وأول المتضرعين الأوابين"(٥٠).

ولم يتخذ أدهم منهجا من هذه المناهج رغم ما فيها من قصور، وما فى نتائجها من عوار للتعرف على الله الواحد الخالق، ولم يبق محتفظا بالإسلام كدين، وإنما أدار ظهره لذلك كله وركب رأسه وسار عليها فرأى الكون مقلوبا،

ولو اعتدل لاستقامت رؤيته، واستدامت عقيدته، ولكنه نكص على عقبيه فخسر دنياه وآخرته، وذلك هو الخسران المبين.

أما عن زعمه بأن فكرة الله أصبحت من مستلزمات الجماعات منذ ألفى سنة فدليل على جهله الفاضح؛ لأن الألوهية متجذرة فى الوعى البشرى، والوجود الإنسانى منذ بدء النوع الإنسانى على الأرض بناء على الطرح الدينى الصادر عن الأديان السماوية؛ ولأنه لايدين بها فإننا نحاكمه إلى الفكرالبشرى المعزول عن وحى السماء الصادر عن النظريات أو الاجتهادات البشرية القاصرة التى تفتقر إلى البراهين الصحيحة التى لا يتطرق إليها شك، وهى التى أعلن إيمانه بها كنظرية النشوء والارتقاء التى تلخص فلسفة التطور عند دارون وسابقيه ولاحقيه، ولن نسوق له الأدلة العلمية المستمدة من القرآن الكريم ومن الصحيح الثابت من سنة سيدنا رسول الله ﷺ، ولن نتمثل له بقول الحق عز وجل: ﴿ مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا ﴾[٥١]، ولن نتتبع عورات مذهب التطور فى سياقنا هذا حتى لا يتفلت الموضوع من بين أصابعنا ولكننا نحيله إلى موقف واحد لأحد الذين كان أدهم مفتونا بهم وهو توماس هكسلى الذى اكتشف فى قاع البحر مادة هلامية اعتقد أنها حلقة الانتقال من عالم الجماد إلى عالم الحياة، ونظر فيها فاعتقد أنها "بروتوبلازم" ودعاها بذلك الاسم، ثم اتضح أنها طين لا أكثر أو رواسب جرف مواد عضوية، وقد اعترف بذلك وأعلن أسفه؛ لأنه كان السبب فى تضليل كثيرين اعتمدوا على شهرته، واستشهدوا به فى تأييد التولد الذاتى"[٥٢]، فهكسلى هذا لم يكن أمينا فى علمه، ولم يكن على دين!!، ورغم ذلك فهل خلا الوعى البشرى من فكرة الألوهية قبل ألفى سنة؟، إننا لو عدنا القهقرى منذ جهر بهذا اللغو الفارغ فى عام ١٩٣٧م لوجدنا أن الألفى سنة تنتهى قبل الميلاد بثلاثة وستين عاما، فأين حضور عقيدة الألوهية فى المجتمعات البشرية على أيدى الأنبياء الكبار قبل عيسى عليه السلام؟

وبم كان يطالب هؤلاء الأنبياء أقوامهم سواء آمنوا بدعوتهم أم كفروا بها؟!.

ألم تكن عقيدة الألوهية حاضرة بقوة عند إبراهيم ولوط ونوح وموسى وغيرهم من المرسلين؟! بل بم انشغل البشر منذ دبت أقدامهم على الأرض - حتى لو كانوا منحدرين من أصلاب القردة العليا حسب زعم سادته-؟، ألم تشغلهم فكرة الألوهية والبحث عن القوى الخارجية التي تتحكم في الظواهر الطبيعية؟ وسواء أقال هؤلاء البشر بتعدد الآلهة؟ أم آمنوا بالإله الواحد؟....

فالأديان السماوية، بل والأديان الوضعية أقدم بكثير من هذا التاريخ القريب الذى حدده بغفلة وسذاجة ذلك الدعى الأخرق، وسنتعرف بعد قليل على توازى غريزة التدين مع وجود الإنسان منذ فجر التاريخ الذى يصل فى طرح العلم - وهو مجرد تخمين- إلى ملايين السنين.

ومهما يكن من أمر فإن زعمه يفتقر إلى ما ينهض دليلا على صحته، بالإضافة إلى افتقاده للأسس العقلية، والضوابط القياسية، والمعايير الاستقرائية التى وضعها علماء الاجتماع الباحثون فى نشأة الدين، وأشهرهم دوركايم الذى يرى أن "الدين بدأ بأن تصور الناس قوة لاشخصية متفرقة فى الأشياء تمنحها مالها من قوة، ثم تشخصت هذه القوة فى الطوطم (٥٣) أولا، وفى الإله الواحد أخيرا، فكانت لنا فكرة الله كموجود شخصى مقدس، فإن هذه الفكرة ليست مستفادة مما نشعر به من قوة باطنة، ولا مكتسبة بالاستدلال، ولكنها اجتماعية.

والدين أقوى مظاهر الحياة الاجتماعية وأعمها إليه ترجع الصور التى انتظمت بها المعارف الإنسانية، إذ أنه الينبوع الذى تفيض منه القوة الجسمية، والقوة المعنوية فى أفعال الحياة المشتركة"(٥٤)، وقد أشرنا إلى تعدد المدارس، وتنوع المذاهب التى تناولت بالدرس والتحليل نشأة الدين(٥٥)، ورغم ذلك فقد اخترنا دوركايم وحده لأنه ربط نشأة الدين بالاجتماع البشرى، وهو ما رأيناه شبيها له - إلى حد ما- عند أدهم فى ربطه بين "فكرة الله" وبين الجماعات البشرية.

وقد تعرضت آراء دوركايم لنقد عنيف عند الإسلاميين الذين تناولوها بالبحث، فالدكتور دراز ينتقد دوركايم، ويقول عنه بأنه " يعمد إلى ضرب من

اللهو الخليع يأتيه بعض القبائل فى حفلات تضم كل شئ إلا الدين والعبادة، ويترخص فيها بارتكاب أعمال شاذة تنافى قواعد الأخلاق المقررة والمتبعة بانتظام عندهم، يعمد إلى هذه الحفلات الماجنة، فيرسم لنا منهما لوحة بارزة يعرضها علينا قائلا: إذا أردتم معنى الدين فها هنا منبعه ومظهره.

هكذا وصل الأمر بهذا البحاثة فى تقديره لعقول قرائه إلى حد محاولة إلهائهم عن الحقائق، وتسمية الأشياء لهم بغير أسمائها، فهو يريد أن يقول لهم: إن كل حمية جنونية يثيرها مجتمع صاخب، وكل سورة إباحية تنطلق فيها الوجدانات من عقالها بعدوى المحاكاة أيا كان هدفها وباعثها فهى نوع من الدين، ولو كان سيل الشهوات الجامحة فيها يجترف كل ضابط من ضوابط العقول، ويقتحم كل معقل من معاقل الآداب المحترمة فى الشعب نفسه.

إننا نرى لزاما علينا أن ننبه ها هنا إلى خطأ منهجى صريح وقع فيه صاحب المنهج نفسه"(٥٦).

ويتحدث الدكتور رشدى فكار فى لهجة أكثر سخرية وحدة من الدكتور دراز فينتقد الاجتماعيين الذين حاولوا الوصول من المعتقدات البدائية إلى العقائد السماوية، قائلا عنهم: "أكثرهم من اليهود الخارجين حتى على يهوديتهم، ولديهم مبيتات وعقد انغلاقية وهموم عميقة سعوا إلى تقيئها للنيل من الأديان السماوية الخالدة بالبحث عن ربط مصطنع بين المنقرض والحى الدائم المستمر الخالد، وكأنهم كانوا جالسين على مقهى وهم يرون هذا المشهد العجيب من تحول المعتقدات البدائية إلى عقائد سماوية"(٥٧).

وزعيمهم دور كايم هذا "هو ربيب الثقافة الماركسية، والنظرية المادية أصلا، ومفهومه معارض تماما لكل القيم الأساسية التى جاءت بها الفطرة، أو صاغتها الأديان فى منهجها الربانى القائم على الفطرة"(٥٨).

واللافت للنظر فى سياقنا هذا بعد تصريح د. فكار بأن جل رجال المدرسة الاجتماعية من اليهود، "ولا ريب أن نظرية دوركايم فى الاجتماع حين تلتقى بنظرية فرويد فى النفس ونظرية ماركس فى الاقتصاد من شأنها أن تشكل إنسانا مضطربا مزعزع الوجدان.

واليهود الثلاثة هم القادة المسيطرون على هذا الفكر الغربى الذى يفـرض الآن على أنه هو الفكر العالمى، بينما تختفى مفاهيم الإسلام فى النفس والأخلاق والاجتماع وتتضاءل، ولا تعرض حتى على أنها وجهة نظر أخرى بـل لعـل شبابنا فى الجامعات يرى أنه ليس هناك مفهوم إسلامى هو أعمق وأصدق وأكثر أصالة من هذا المفهوم الذى تقوم عليه مجتمعات الغرب التى تعانى من تمـزق الفرد واضطراب الأسرة وتخلخل المجتمع"(٥٩).

والآن ننتقل إلى نقطة أخرى فى نقد رؤية المارق إسماعيل أدهم لقضـية الألوهية، ونستأذن القارئ الكريم أن يتذكر مصطلح "التبرير" الذى اقتبسناه مـن الدكتور رشدى فكار ورجونا القارئ أن يقوم بالاحتفاظ به، فمـاذا نريـد مـن وراء ذلك؟

قلنا منذ قليل: إن أدهم بعد أن حدد الحضور التـاريخى لفكـرة الله فـى الجماعات بألفى سنة قفز قفزة أعلى مما يقوم بها القرد، ونحن لا نمـزح بهـذا التشبيه ولا نسخر من أدهم؛ لأنه هو نفسه أعلن أمام أبيه أنه يـؤمن بالنشـوء والارتقاء، بل قال: إنه داروني وصرخ بها على سبيل الفخـر والخـيلاء، فـلا غرابة إذن فى الاحتكام إلى جيناته الوراثية، والانبهار بقفزتـه الباعثـة علـى الضحك المثيرة للرثاء بإعلانه بأن مقام فكرة الله الفلسفية، أو مكانها فـى عـالم الفكر الإنسانى لا يرجع لما فيها من عناصر القوة الإقناعية الفلسفية.

فما هى – إذن– علة هذا الحضور الواضح لعقيدة الألوهية فى كل تجمـع بشرى فى كل زمان ومكان "فقد اتفق الموثوق بهم من مؤرخى الأديان علـى أن أشد الشعوب همجية ووثنية لم تنفك عن الاعتقاد بإله خالق هو رب الأرباب"(٦٠).

فكيف قام أدهم بحل هذه الإشكالية؟، إنه قام بالإفلات منها عن طريق حيلة أشبه بحيل الحواة، وهى التخييل على المتفرجين بمشهد بينما هم فى انتظار مشهد آخر مغاير له تماما، فقد انتقل من مجال الفلسفة إلى مجال علم النفس زاعما أن التبرير هو الذى يسر " لفكرة الله" هذا الانتشار، وضمن لها ذلك الاستمرار.

وقد قلنا وكررنا القول عن عشرات النماذج من الفلاسفة والعلماء الذين وصلوا من خلال البحث الحر إلى الإقرار بوجود الله عز وجل بمختلف المناهج الفلسفية والعلمية، ومنها بطبيعة الحال المدرسة النفسية، ولكننا لم نر أحد أربابها فى عبقرية أدهم الذى قام باستخدام هذا المصطلح "التبرير"، الذى لا يقول به إلا العوام، ولا يتنادى به إلا السذج الغافلون.

ومن المثير للشفقة، بل والباعث على الغيظ من هذا السفيه هو قيامه بتوجيه النقد لسادته من العلماء الذين أقروا بوجود الله عز وجل، ومنهم آينشتاين والسيرجيمس جينز، وستكون لنا وقفة مع هذه الجزئية فى الفقرة الأخيرة.

وهذا التعليل الذى حصره فى التبرير لم نجد له أثرا عند أصحاب المذاهب النفسية[٦١] من ساباتييه إلى برجسون حتى ديكارت الذى صنفه د. دراز ضمن رجال المدرسة النفسية باعتبار تجربته الشخصية تجربة نفسية فى المقام الأول، وربما أدى ذلك النقد بأدهم إلى نقطة أخرى قام فيها بتوجيه النقد – إجمالا– إلى الأدلة المستخدمة لإثبات وجود السبب الأول نافيا عنها كل قيمة عقلية أو علمية، ولعلنا ما زلنا نذكر سر افتتانه وانبهاره بهيوم وإعلانه بأنه كان الأقرب إلى نفسه، ولعلنا ندرك الآن بعض السر فى ذلك لأن هيوم سبقه فى هذا المجال حيث توجه – بمنهج سوفسطائى– لانتقاد الأدلة التى تبرهن على إثبات وجود الله تعالى عن طريق العقل[٦٢]، كما أشرنا إلى ذلك فى سياقه من هذا الكتاب.

ثم يستمر إسماعيل أدهم فى ممارسة دوره المشبوه من خلال التلبيس على القراء، والتمويه والخداع فيقول: "ونحن نعلم مع رجال الأديان والعقائد أن أصل فكرة الله تطورت عن حالات بدائية، وأنها شقت طريقها لعالم الفكر من حالات وهم وخوف وجهل بأسباب الأشياء الطبيعية[٦٣]".

وقبل التعليق على هذا الطرح المتهافت أود التنبيه على هذا التناقض الذى وقع فيه هذا الملحد، وهو قوله عن أصل فكرة الله إنها "تطورت عن حالات بدائية"، وقد علمنا فيما سبق أنه يزعم حضور هذه الفكرة فى الجماعات البشرية منذ ألفى سنة فقط، فهل يعتبر أن ما قبل الألفى سنة هو الذى يشكل فى نظره

"الحالات البدائية"؟، إننى أرى أن تناقضه وجهالته هنا لا يستحقان التعليق!!!، مع الأخذ بعين الاعتبار أن تاريخ العمران البشرى موغل فى القدم، وليس قاصـرا على هذه الفترة الزمنية القصيرة التى حددها كبداية لظهور "فكـرة الله" حسـب زعمه، ومن ناحية أخرى يتحدث عن نفسه بصيغة الجمع، ويضم ذاته المتضخمة مع المتخصصين فى الأديان والعقائد، فيقول "ونحن نعلم مع رجال الأديـان.."، وهذا وهم كبير، وكذب مفضوح فمن من رجال الأديان والعقائد يقر هذا السـفيه على زعمه هذا عن تطور الألوهية عن حالات بدائية؟، ولعله فى ذلك كان تابعا لدوركايم الذى جعل هذه الفكرة مقدمة من مقدمات مذهبه الاجتماعى الذى يصل فى النهاية إلى أن الدين نشأ فى الأرض، وليست له صلة بالسماء، ولسنا بصـدد تحليل وجهة نظر دوركايم أو نقدها، وهذه المقدمة ترى "أن خير وسيلة لتفسـير ظاهرة معقدة كالظاهرة الدينية أن تدرس فى بداية نشأتها قبل أن تخالطها عناصر غريبة عنها؛ وأن ذلك إنما يكون ببيئات الأمم البدائية"[٦٤]، ومن خـلال متابعـة نظرية دوركايم نتعرف على أن هذه الأمم البدائية موغلة فى القدم، وليست قريبة من هذا المدى الزمنى القصير الذى حدده أدهم بألفى سنة فى مقابل وجود الجنس البشرى على الأرض، ورغم ذلك فإن الباحثين الجادين قد بدأوا يتعـاملون مـع مصطلح البدائية بشئ من التحفظ، أو كما يقول د. دراز: "لقد مضى الزمن الذى كانت فيه كلمة "البدائيين" تستعمل بسهولة ويظن أنها على شعوب موجودة بالفعل باقين على فطرتهم الأولى لم يمروا بطور من أطوار الحضارة، واليوم وقد زال هذا الوهم من النفوس أصبح كل كاتب يحترم نفسه لا يستسيغ أن يكتـب هـذه الكلمة إلا إذا وضعها بين أقواس صغيرة للإشارة إلى أنها كلمة اصطلاحية ينقلها عن غيره ولا يحمل هو تبعتها"[٦٥]، والدكتور دراز معه كل الحـق فـى هـذه الملاحظة؛ لأن هذا المصطلح مرتبط بالنظريات التى قطعت الصلة بين البشرية وبين خالقها فى أصل نشأتها، وفى دينها، ولغاتها، وحضارتها عنـدما طرحـت فروضا مصادمة للرؤية الدينية الصحيحة، وأخطرها مذهب التطور المرفـوض دينيا، المفتقر إلى اليقين العلمى الذى يوصل إلى الحد الأدنـى مـن الاطمئنـان

لنتائجه المشكوك فيها، ومثلما كان أدهم تابعا لدوركايم في قوله ببدء الاعتقاد بالألوهية عند الأمم البدائية كان تابعا لمولر في ربطه بين نشأة الدين وبين الظواهر الطبيعية، فهو عندما يحكم بأن فكرة الله شقت طريقها لعالم الفكر من حالات وهم وخوف وجهل بأسباب الأشياء الطبيعية إنما كان يقتفي آثار ماكس مولر "أشهر مقرري هذه النظرية التي ترى أن العامل الأول في إثارة الفكرة الدينية كان هو النظر في مشاهد الطبيعة، ولا سيما الأفلاك والعناصر ، وقد وجد مولر أن أسماء الآلهة في الغالب هي أسماء لتلك القوى الطبيعية العظيمة كالسماء والنار ونحوهما"[٦٦]، وفي ذلك يقول مولر: "منذ أول نظرة يلقيها الناس على الطبيعة لاشئ كان يبدو له أقل طبيعية من الطبيعة ذاتها، فكانت الطبيعة عندهم الدهشة العظمى والفزع الأكبر، كانت عجيبة من العجائب ومعجزة من المعجزات دائمة...

ومن المعلوم أن هذا النطاق الواسع – الطبيعة– كانت ميدانا لعواطف الدهشة والخوف. إن هذه المعجزة، إن هذا الأمر الخارق، هذا المجهول المتسع المقابل لما هو معروف لدينا – إن هذا– هو ما أعطى للفكر الديني وللغة الدينية أساسها الأول [٦٧]".

إننا كلما تعمقنا في الدراسة وجدنا أن إسماعيل أدهم كان حاطبا بليل يأخذ من المذاهب السابقة كل ما يؤيد وجهة نظره ويدعمها، وكل ما يتأدى به إلى الوصول إلى غايته الوحيدة، وهدفه الرئيسي وهو الإلحاد، وهو هنا في حديثه عن فكرة الله قام باقتباس معظمها عن المدرسة الاجتماعية من خلال أخذه عن رائدها الأول دوركايم، والمدرسة الطبيعية من خلال أخذه عن رائدها ماكس مولر حتى المفردات المعبرة عن الحالات الشعورية قام بالسطو عليها دون الإحالة إلى أصحابها.

ونختم هذه الفقرة بما بدأناها به من التنويه بسوء أدبه ووقاحته في الحديث عن رب العزة تبارك وتعالى، وفي ذلك يقول: " ومعرفتنا بأصل فكرة الله تذهب بالقدسية التي كنا نخلعها عليها"، فهو أولا قام بتفريغها من عناصر القوة الإقناعية

الفلسفية، وهو ثانيا اعتبرها حالة شعورية تطورت إلى فكرة عقلية، ثم هو أخيرا ينفى عنها القدسية التى هو مصدرها!!.

إننا على مدار صفحات هذا الكتاب تعرفنا على ملامح شخصية هذا الملحد ومن أبرزها غروره وكذبه وقد بدا ذلك واضحا جليا عندما تعرض لقضية الألوهية بهذا المنهج التلفيقى الساذج الذى أضاف إلى ملامحه صفة جديدة وهى صفة الخيانة، حيث سطا على رؤى الآخرين دون القيام بذكر نسبتها إليهم، وقد كان بإمكان هذا المرتد أن يكون شيئا مذكورا فى ميدان الدراسات الإيمانية الجادة، ولكنه أراد أن يكون شيئا مذكورا فى سجلات الإلحاد بارتضائه أن يكون كفورا.

إنه كذوب بادعائه العلم والمعرفة حيث ثبت أنه لا علم عنده ولا معرفة وخصوصا فى ميدان العقائد، وتأتى أقوال المتخصصين تدك بنيانه من القواعد، ولنأخذ طائفة سريعة من الأقوال التى تربط بين الإنسان منذ نشأته وبين التدين عامة والإلهيات خاصة، يقول معجم لاروس للقرن العشرين: "إن الغريزة الدينية: مشتركة بين كل الأجناس البشرية حتى أشدها همجية، وأقربها إلى الحياة الحيوانية... وإن الاهتمام بالمعنى الإلهى، وبما فوق الطبيعة هو إحدى النزعات الخالدة للإنسانية"(٦٨).

ويقول الدكتور دراز: " الفكرة الدينية تعبر عن حاجات النفس الإنسانية فى مختلف ملكاتها ومظاهرها، حتى إنه كما صح أن يعرف الإنسان بأنه "حيوان مفكر" أو بأنه "حيوان مدنى بطبعه" يسوغ لنا كذلك أن نعرفه بأنه "حيوان متدين بفطرته"(٦٩)، وحول نفس المعنى يقول الدكتور إمام عبد الفتاح إمام: "إذا كان أرسطو قد عرف الإنسان بأنه "حيوان ناطق" أى مفكر فقد عرفه غيره بأنه "حيوان متدين" فذهب هيجل – مثلا– إلى "أن الإنسان وحده هو الذى يمكن أن يكون له دين"؛ ذلك لأن التدين عنصر أساسى فى تكوين الإنسان، والحس الدينى إنما يكمن فى أعماق كل قلب بشرى بل هو يدخل فى صميم ماهية الإنسان، مثله فى ذلك مثل العقل سواء بسواء"(٧٠).

وكما قلنا فيما سبق: ما كان أحراه أن يوظف قدراته للمحافظة على عقيدته الدينية، أو ترسيخها وتعميقها بالدراسات الرياضية والطبيعية، أو على الأقل للعودة إليها بعد أن انسلخ منها كما عاد سواه، ومنهم هنرى لنك الذى كانت له تجربة إلحادية فريدة عاد منها إلى تدينه الذى كان عليه، وقد كان فى بداية إلحاده شبيها بأدهم حيث تسبب العلم فى خروجه عن الدين إلا أنه – بالعلم أيضا– عاد إلى الدين، وفى ذلك يقول: "وكما جرفنى العلم قديما بعيدا عن الدين كانت عودتى إليه أيضا عن طريقه هو"[٧١]؛ ولذلك كانت عودته إلى الدين قوية جارفة، ومن هنا كانت رؤيته للدين باعتباره "الإيمان بوجود قوة ما كمصدر للحياة، هذه القوة هى قوة الله، مدبر الكون، خالق السماوات، وهو الاقتناع بالدستور الخلقى الإلهى الذى سنه الله فى كتبه المتعاقبة، واعتبار التعاليم السماوية أثمن كنز تغترف منه الحقائق الدينية التى هى أسمى فى مرماها من العلوم كلها مجتمعة، والقيم الخلقية التى هى أقوى فى أساسها من نظرية العقل والسببية"[٧٢].

فإذا تعرفنا على الخلفية الثقافية لهنرى لنك اندهشنا لهذا التشابه العجيب الذى يصل إلى حد التطابق فيما بينه وبينه إسماعيل أدهم حتى فى المفردات اللغوية بيد أن النهايات كانت متغايرة تماما، يعرفنا لنك بالعالم الذى يتسامى على الإدراك العقلى فيقول عنه:

"أما ما هو خارج عن هذه الدائرة الكبرى فهو مملكة الخرافات والعقائد والأوهام التى لا نملك عليها برهانا حيث تحوم "فكرة الله"، والمعتقدات الدينية فى هذه المنطقة غير المحدودة، فنحن لا يمكننا إثبات وجود الله كما لا يمكن إثبات عدم وجوده، وقياسا على ذلك لا يسع المرء اللبيب إلا أن يقول: "أنا لا أعرف" أعنى أن يكون لاأدريا"[٧٣].

وقد سبق إيراد تساؤل أدهم الذى قال فيه: "هل عدم قيام الأدلة على عدم وجود الله مما يدفع المرء للاأدرية؟" ثم تجاوزها إلى إعلان الإلحاد الذى لم يعد منه إلى الإيمان كما عاد سواه بل عاش فيه وارتضاه إلى أن مات عليه.

ثالثا: فكرته عن السببية:

نأتى الآن لعرض وتحليل فكرة إسماعيل أدهم عن السببية، وإن تعجب فعجب اعترافه بسبب وجود الكون، ولكن يتضاعف العجب إذا عرفنا أنه يعتقد بأن هذا السبب يتضمنه الكون، وأنكر ما عداه، اقرأ وتأمل تعريفه للإلحاد بأنه "هو الإيمان بأن سبب الكون يتضمنه الكون فى ذاته، وأن ثمة لا شئ وراء هذا العالم. (٧٤)"

وقبل أن أقوم بتحليل هذا التعريف، ووضعه فى سياقه، وفى موقعه داخل الإطار العام لفكرته عن السببية، أود التذكير بأن الهدف الرئيسى، والغرض النهائى لهذا التعريف هو إنكار وجود الله سبحانه وتعالى ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾(٧٥).

وهو شأن الملاحدة في كل زمان ومكان، وقد سبق إيراد نماذج منهم، وهنا نقص نبأ ملحد آخر يتفق مع أدهم فى عدم الحاجة إلى الله عز وجل ليكون سببا لوجود الكون، وهو لابلاس الرياضى والفلكى الشهير الذى سأله نابليون عن مكان الله فى نظامه الميكانيكى الخاص بالأجرام السماوية أجابه بقوله: "ياسيدى لست بحاجة إلى هذا الافتراض"(٧٦).

وهو قول متطابق مع زعم أدهم بعدم الحاجة إلى الإقرار بوجود الخالق عز وجل؛ ولا يفوتنا أن نذكر دائما بجذور هذا الزعم عند أدهم وهى ماركسية بحتة، وهو ما ظل مخلصا حتى النفس الأخير لآرائها ومعتقداتها التى يستمد منها مرجعيته فى منهجه ووسائله "فالمذهب الماركسي يرفض الدين والغيبيات ولا يعترف بإرادة أو مشيئة خارجة عن الكون المادى، ويرى أن الكون المادى يفسر نفسه بنفسه بدون حاجة إلى افتراض قوة إلهية سابقة على الوجود"(٧٧)، وهل صنع أدهم سوى هذا؟!، صنع مثلما صنعه الشيوعيون الذين "أهدروا قانون السببية حين ادعوا أن المادة خلقت نفسها، ثم خلقت غيرها من الكائنات، وذهبوا إلى أن المادة مكتفية بنفسها دون احتياج إلى سبب أو علة أولى تفسر إيجادها

فهى إذن "مسبب لا سبب له"!!، كما وقف الشيوعيون عند القول بأن المادة مكتفية بنفسها غير محتاجة إلى سبب خارج عنها فرارا من الإيمان بالله؛ لأن الخطوة الأولى بعد هذا لابد أن تفضى إلى " الإيمان"، وهو أعدى أعداء الشيوعيين، فهاهم قد كفروا بالسبب؛ وزعموا أن "المادة" مسبب لا سبب له، أو هى السبب والمسبب في آن واحد"[٧٨].

وفى معرض إيراده للأدلة العقلية على وجود الله تعالى يسوق أستاذنا الدكتور أحمد الطيب اعتراضا مفترضا على دليل الحدوث يتفق مع زعم أدهم باكتفاء الكون بذاته، والاستغناء عن أى سبب خارجى، وكأنه المقصود بهذا الاعتراض: "ومن الممكن أن يغالطك ملحد، ويقول لك: إننى أتفق معك فى أن الأشياء قد وجدت بعد عدم، وأتفق معك فى أنها بحاجة إلى موجد؛ لأن قانون السببية يوجب ذلك، ولكن أختلف معك فى أن يكون الموجد للكون ذاتا إلهية مستقلة ومنفصلة عن الكون.

لم لا يكون موجد الكون هو نفس الكون، ويكون العالم قد أوجد نفسه؟! [٧٩]".

ويجاب على هذه الاعتراضات بالآتى:

١- افتراض أن يكون العالم أوجد نفسه مساو تماما لافتراض أن العالم مخلوق وخالق فى آن واحد.

٢- والعالم باعتباره علة خالقة لابد أن يكون موجودا، وباعتباره معلولا لابد أن يكون معدوما.

٣- لايمكن أن يكون العالم موجودا ومعدوما فى آن واحد.

فلا يصح عقلا أن يكون المخلوق خالقا كما لا يصح عقلا أن يكون الخالق مخلوقا[٨٠]. فإذا عدنا إلى أدهم الذى اعترف بالسبب، وأقر بالسببية ولكنه فى نفس الوقت جعلها متضمنة في الكون ذاته؛ وهو بذلك يتمرد على القاسم المشترك العقلى بين العقلاء؛ لأننا "إذا نظرنا إلى أصول الأسباب الكبرى تعذر على العقل أن ينسب الظواهر الطبيعية إلى هذه الأسباب التى تلازمها ثم يقف عندها، فمن العسير على العقل أن يسلم أن الظواهر المادية هى أسباب الحوادث بطبيعة

مستمدة منها ملازمة لها، مستقرة فيها؛ لأن التسليم بهذا تسليم بوجود مئات أو ألوف من المادات كلها خالد، وكلها موجود بذاته، وكلها مع ذلك مؤثر في غيره وهو مستحيل.

فهل هناك ألوف من المادات، أو هناك مادة واحدة؟

إن كان هناك ألوف من المادات كلها خالد بصفاته وطبائعه فمن العجيب في العقل أن يكون الخالد مؤثراً في خالد مثله، وأن يوجد الشيء منذ الأزل بطبيعته وخصائصه ليؤثر في شئ آخر موجود مثله منذ الأزل بغير تلك الخصائص وغير تلك الصفات.

أما إن كانت هذه الخصائص تحولات ترجع إلى مادة واحدة في القدم فقد بطل أنها هي أسباب الحوادث بطبعها، وتعين أن تكون عارضة مؤثرة بما أودع فيها على حسب تلك التحولات التي ترجع في النهاية إلى مصدر واحد لا تعدوه.

فالعقل ينتهي في مسألة الأسباب إلى نتيجة واحدة تصح عنده بعد كل نتيجة: وهي أن الأسباب ليست هي موجدات الحوادث، ولا هي مقدمة عليها بقوة تخصها دون سائر الموجودات، ولكنها مقارنات تصاحبها ولا تغني عن تقدير المصدر الأول لجميع الأسباب وجميع الكائنات"[81].

ونظرية السببية لها حضورها الواضح في الفكر الإنساني عامة، وفي الفكر الإسلامي والفلسفة الحديثة خاصة، ومن أشهر من فصل القول فيها عند الإسلاميين الاتجاه الأشعري وخصوصا عند الإمام الغزالي، ومن أشهر من أفاض فيها في الفلسفة الحديثة هيوم.

ومن الإسلاميين المعاصرين العلامة الدكتور محمد عبد الله دراز الذي جعلها مع قسيمتها "الغائية" من العوامل الأولى لإيقاظ العقيدة الدينية في النفوس البشرية فيتحدث عن قانون السببية قائلا: "إنه يقرر أن شيئا من الممكنات لا يحدث بنفسه من غير شئ؛ لأنه لا يحمل في طبيعته السبب الكافي لوجوده، ولا يستقل بإحداث شئ؛ لأنه لا يستطيع أن يمنح غيره شيئا لا يملكه هو[82]، كما أن الصفر لا يمكن أن يتولد عنه عدد إيجابي فلابد له في وجوده، وفي تأثيره من

سبب خارجى، وهذا السبب الخارجى إن لم يكن موجودا بنفسه احتاج إلى غيره فلا مفر من الانتهاء إلى سبب ضرورى الوجود يكون هو مسبب الأسباب"(٨٣).

ومثلما كان إسماعيل أدهم شاذا فى إلحاده، كان أكثر شذوذا فى التسبيب لهذا الإلحاد، فقد نسب السببية إلى العلم وأطلق عليها اسم "السببية العلمية"، وينتهى من خلال الإغراب فى الطرح إلى القول بالاحتمال والصدفة فى خلق العالم، وفى ذلك يقول: "إن العالم الخارجى (عالم الحادثات) يخضع لقوانين الاحتمال.

فالسنة الطبيعية لا تخرج عن كونها اشتمال القيمة التقديرية التى يخلص بها الباحث من حادثة على ما يماثلها من حوادث.

والسببية العلمية لا تخرج فى صميمها عن أنها وصف لسلوك الحوادث وصلاتها بعضها ببعض"(٨٤).

وهو هنا فى هذا النص يتسق مع منهجه، ويتفق مع غايته النهائية من هذا المنهج وهى إنكار وجود الله عز وجل، ولكنه فى نفس الوقت يصادم بداهة العقل وكلامه عن السنة الطبيعية كلام غير دقيق؛ لأنه لايعدو أن يكون مشابها للاستقراء الناقص في المنطق، ولا يمكن تطبيق حادثة واحدة على ما يماثلها من حوادث لا فى بداهة العقل فى المنطق القديم حيث القياس، ولا فى المنطق الحديث حيث الملاحظة والتجربة التى تتطلب التكرار؛ لضمان سلامة القياس وصحة النتائج.

وكذلك الأمر بالنسبة لرؤيته للسببية العلمية التى يعتورها النقص، لأنه تعريف وصفى اقتصر على وصف العلاقات بين الحوادث أو بين الظواهر فقط دون البحث عما عساه أن يكون مسببا لها أو مؤثرا فيها، وهو دأبه وديدنه حيث الهروب من كل ما من شأنه أن يضعه وجها لوجه مع السبب الأول، وهو الخالق عز وجل الذى أجاد الفرار منه ولكن إلى سقر.

ومازلنا مع أدهم فى تخرصاته وإطلاقاته الجوفاء التى حاول إضفاء السمة العلمية عليها للتلبيس على قرائه، فيقول فى خيلاء وغرور: "وقد نجحنا فى ساحة

الفيزيقا (الطبيعيات) فى أن نثبت أن (أ) إذا كانت نتيجة للسبب (ب) فإن معنى ذلك أن هناك علاقة بين الحادثتين (أ) و (ب)، ويحتمل أن تحدث هذه العلاقة بين (أ) و (ج) وبينها وبين (د) و (هـ) فكأنه يحتمل أن تكون نتيجة للحادثة (ب) وقتا، وللحادثة (ج) وقتا آخر، وللحادثة (د) حينا، وللحادثة (هـ) حينا آخر.

والذى نخرج به من ذلك أن العلاقة بين ما نطلق عليه اصطلاح السبب وبين ما نطلق عليه اصطلاح النتيجة تخضع لسنن الاحتمال المحضة التى هى أساس الفكر العلمى الحديث. (٨٥)"

إذن فقد وصل هذا الملحد إلى إخضاع الأسباب والنتائج إلى ما أسماه سنن الاحتمال المحضة، وجعل هذه السنن أساس الفكر العلمى الحديث، وإن المرء ليندهش من هذا الفكر العجيب حيث كلما اقترب صاحبه من الهدى أسرع للفرار منه، فقد كان فى قوله بارتباط الأسباب والنتائج تحت قانون " السببية العلمية" يعانى من خلل فكرى؛ لأن الاقتران بينهما ليس حتميا ، "فالإمام الهروى الأنصارى يرى الاقتران بين السبب والنتيجة اقترانا عاديا، لا يفسر إلا من خلال جريان العادة بذلك، والإمام الغزالى يقول بانعدام الضرورة بينهما وجودا وعدما، وفى الفلسفة الحديثة يرى هيوم أن قانون العلية مجرد عادة ذهنية تنشأ عند الناس كلما رأوا حادثتين مطردتى الوقوع أو متتابعتين فنشأ من هذا فى أذهانهم اعتقاد بأن اللاحق يعقب السابق.

وإذا اختلت هذه الحتمية بإرجاعها إلى العادة الذهنية يختل بالتالى مبدأ التعميم الذى يأخذ به البحث العلمى إذ يستند إلى الاستقراء، والاستقراء لا يتيسر فيه ملاحظة كل فرد من أفراد الظاهرة فى كل زمان ومكان"..(٨٦).

ولهذا فقد اقترب من الصواب عندما خرج من القول بالسببية العلمية التى أراد من خلالها الربط بين السبب والنتيجة إلى القول "بسنن الاحتمال"، إلا أنه أهدر فرص النجاح المتاحة، وسرعان ما غير موقفه عندما تجاوز سنن الاحتمال أو قانون الاحتمال وتحول فجأة إلى القول بقانون الصدفة.

"إن القول باحتمالية القوانين الطبيعية له حضوره فى الفلسفة المعاصرة وخصوصا فى الوضعية المنطقية التى يرى بعض رجالها انتفاء القول بالضرورة فى هذه القوانين الطبيعية، مستشهدا على ذلك بقانونين من القوانين التى تعتمد عليها أغلب العلوم الضرورية هما:

قانون الاستقراء

وقانون السببية... منتهيا إلى أن فكرة الضرورة لا وجود لها فى أى منهما.

فالاستقراء لا يعتبر طريقة صحيحة للتفكير سواء كان تفكيرا علميا أو غير علمي. والسببية ليست هناك ضرورة عقلية أو تجريبية تبرر ارتباط ما نسميه بالسبب بما يسمى بالمسبب لمجرد أن أحدهما يسبق الآخر أو يتلوه"(٨٧).

فلو كان لدى إسماعيل أدهم الحد الأدنى من التوفيق لتوقف عند القول بالاحتمال، وكان آنئذ منسجما مع طرح العقول السليمة، والرؤية العلمية الصحيحة، لكن أنى له ذلك وقوله بالاحتمال يتأدى به – شاء أم أبى– إلى ما وراء الطبيعة، ويجعله وجها لوجه مع عالم الغيب حيث يضطر اضطرارا للإقرار بوجود الخالق جل وعلا، وهنا أفلت كعادته، وانتقل دون مبرر عقلى أو علمى من قانون الاحتمال إلى قانون الصدفة؛ لأنه سينطلق من خلاله إلى ما شاء له خياله، وزينه له ضلاله من إفك وبهتان لإنكار الواحد الديان.

إلا أنه لم يثبت على قانون الصدفة بل كان يعود إلى القول باحتمالية الوجود والطبيعة، فكان ينتقل من الاحتمال إلى الصدفة ثم يعود إلى الاحتمال من جديد كلما وجد ثقبا يتسلل منه إلى غرضه الخبيث وهو الإلحاد، ولما كان قد انتهى به المآل إلى القول بالصدفة فى هذا النص فإننا على موعد الآن مع الفكرة الرابعة والأخيرة فى هذا الفصل وقد حان موعد الحديث عنها الآن.

رابعاً: إيمانه بالصدفة:

يبدأ إسماعيل أدهم حديثه عن الصدفة بتساؤل عن معناها، ثم لا يتولى الإجابة بنفسه، بل يقوم بنقل التعريف عن هنرى بوانكاريه(٨٨) الذى يقول فيه:" إن الصدفة تخفى جهلنا بالأسباب، والركون للمصادفة اعتراف بالقصور عن

تعرف هذه الأسباب: "ثم يعلق على هذا التعريف قائلا: "والواقع أن كل العلماء يتفقون مع بوانكاريه في اعتقاده منذ تفتح العقل الإنساني غير أني من وجهة نظر رياضية أجد للصدفة معنى غير هذا، معنى دقيقا بث للمرة الأولى في تاريخ الفكر الإنساني، وهذا المعنى لا تؤتيني الألفاظ العادية للتعبير عنه؛ لأن هذه الألفاظ ارتبطت بمفهوم السبب والنتيجة؛ لهذا سنحاول أن نحدد المعنيّ عن طريق ضرب الأمثلة"(٨٩).

وإنني أستأذن القارئ لحظات قبل أن نتعرف على هذه الأمثلة لنورد – الآن– قولا آخر لهذا الملحد يبرهن به على صعوبة النظر إلى العالم بعيدا عن السبب والنتيجة، وإخضاعه لقانون الصدفة الشامل؛ وذلك "لأن مفهوم الكلام رياضي صرف، ومن الصعب التعبير في غير أسلوبه الرياضي، وليس كل إنسان رياضيا عنده القدرة على السير في البرهان الرياضي"(٩٠).

وإننا لا نستطيع كتمان استغرابنا لهذا المأفون الذي لا يفتأ يكرر الاعتراف بعسر التعبير وصعوبته عن الحقائق التي يعلمها لسبب أو لآخر، فليهذ –إذن– ما طاب له الهذيان كمن فقد عقله أو أصابته الحمى لأن القراء لا يفهمون، وليست لديهم القدرة على السير في البرهان الرياضي على حد تعبيره.

نعود الآن إلى ضرب الأمثلة الذي أراد به هذا الملحد شرح معنى الصدفة الذي ظل غامضا منذ فجر التاريخ حتى قام –هو– بإيضاحه، وسترى معي أنه بعد ما أرهق نفسه كان كمن فسر الماء بالماء!!، وأرجو من القارئ الكريم الاحتفاظ بأعصابه، وهو يتابع معنا هذا المثال الذي ساقه ذلك المهزار حيث يقول: "لنفرض أن أمامنا زهر النرد ونحن جلوس حول مائدة، ومعلوم أن لكل زهر ستة أوجه، فلنرمز لكل زهر بالوجه الآتي في كل من الزهرين:

يك : دو : ثه : جهار : بنج : شيش

ل١: ل٢ : ل٣ : ل٤ : ل٥ : ل٦ في زهر النرد الأول

ك١: ك٢ : ك٣ : ك٤ : ك٥ : ك٦ في زهر النرد الثاني

وبما أن كل واحد من هذه الأوجه محتمل مجيئه إذا رمينا زهر النرد، فإن مبلغ الاحتمال لهذه الأوجه يحدد معنى الصدفة التي نبحثها.

إن نسبة احتمال هذه الأوجه تابعة لحالة اللاعب بزهر النرد، ولكن لنا أن نتساءل: ما نسبة احتمال هذه الأوجه تحت نفس الشرائط؟

فمثلا لو فرضنا أنه في المرة "ن" كانت النتيجة هي:

ل٦× ك٦= شيش × شيش= دش

فما أوجه مجئ الدش في المرة (ن+ س)؟

إذا فرضنا أن الحالة الاجتماعية هي "ح" كان لنا أن نخلص من ذلك بأن اللاعب إذا رمى زهر النرد (ن=س) من المرات، وكان مجموعها مثلا ٣٦ مرة فاحتمال مجئ الدش هنا في الواقع= ١/ (ن+س).

وبما أن ق+س= ٣٦ مرة فكأن النسبة الاحتمالية هي ١/٣٦ فإذا أتى الدش مرة من ٣٦ مرة لما عد ذلك غريبا؛ لأنه محتمل الوقوع، ولكن ليس معنى ذلك أن الدش لابد من مجيئه؛ لأن هذا يدخل في باب آخر قد يكون باب الرجم"[٩١].

وكلما عظم مقدار "س" في المعادلة (ن+س) تحدد مقدار "ح" أي النسبة الاحتمالية، وذلك خضوعا لقانون الأعداد العظمى في حسابات الاحتمال.

ومعنى ذلك أن قانون الصدفة يسرى في المقادير الكبيرة، مثال ذلك أن عملية بتر الزائدة الدودية نسبة نجاحها ٩٥% أعنى أن ٩٥ حالة تنجح من مائة حالة، فلو فرضنا أن مائة مريض دخلوا أحد المستشفيات لإجراء هذه العملية فإن الجراح يكون مطمئنا إلى أنه سيخرج بنحو ٩٥ حالة من هذه العمليات بنجاح فإذا ما سألته: يا دكتور ما نسبة احتمال النجاح في هذه العملية فإنه يجيبك ٩٥ في المائة، ويكون مطمئنا لجوابه ، ولكنك إذا سألته: يا دكتور ما نسبة احتمال النجاح في العلمية التي ستجريها لفلان؟ فإنه يصمت ولا يجيبك، لأنه يعجز عن معرفة النسبة الاحتمالية.

هذا المثال يوضح معنى القانون في أنها -يقصد الصدفة- تتصل بالمقادير الكبيرة، والكثرة العددية، ويكون مفهوم سنة الصدفة وجه الاحتمال في الحدوث، ويكون السبب والنتيجة من حيث هما مظهران للصلة بين حادثتين في النطاق الخاضع لقانون العدد الأعظم الصدفي حالة إمكان محض.

ومعنى هذا أن السببية صلة إمكان بين شيئين يخضعان لقانون العدد الأعظم الصدفي، فمثلا لو فرضنا أن الدش أتى مرة واحدة من ٣٦ مرة أعني بنسبة ٣٦: ١ مرة ففي الواقع نحن نكون قد كشفنا عن صلة إمكان بين زهر النرد ومجئ الدش، وهذا قانون لا يختلف عن القوانين الطبيعية في شئ.

إذا يمكننا أن نقول إن الصدفة التي تخضع العالم لقانون عددها الأعظم تعطي حالات إمكان، ولما كان العالم لا يخرج عن مجموعة من الحوادث ينتظم بعضها مع بعض في وحدات تتداخل وتتناسق ثم تنحل وتتباعد لتعود من جديد لتنتظم...، وهكذا خاضعة في حركتها هذه لحالات الإمكان التي يحددها القانون الأعظم الصدفي.

ومثل العالم في ذلك مثل مطبعة فيها من كل نوع من حروف الأبجدية مليون حرف وقد أخذت هذه الحروف في الاصطدام فتجتمع وتنتظم ثم تتباعد وتنحل هكذا في دورة لا نهائية، فلا شك أنه في دورة من هذه الدورات اللانهائية لابد أن يخرج هذا المقال الذي تلوته الآن، كما أنه في دورة أخرى من دورات اللانهائية لابد أن يخرج كتاب "أصل الأنواع"، وكذا "القرآن" مجموعا منضدا مصححا من نفسه.

ويمكننا إذا أن نتصور أن جميع المؤلفات التي وضعت ستأخذ دورها في الظهور خاضعة لحالات احتمال وإمكان في اللانهائية، فإذا اعتبرنا "ح" رمزا لحالة الاحتمال، و "ص" رمزا للنهائية كانت المعادلة الدالة على هذه الحالات:

ح^∞ ص

وعالمنا هذا لايخرج عن كونه كتابا من هذه الكتب، له وحدته ونظامه وتنضيده إلا أنه تابع لقانون الصدفة الشاملة"[٩٢].

وقبل أن أتناول هذا النص بالتحليل والتعليق أعلن عن اعتذاري لطوله، ولم يكن أمامي مفر من اقتباسه كله حتى تكون رؤيته واضحة أمام أعين القراء الكرام، وحتى لا نتهم بهذه التهم الجاهزة سابقة التصنيع من عينة: التفتيش في ضمائر الناس، وبتر النصوص، أو إخراجها من سياقها.. إلى آخر هذه التهم

الباطلة؛ ولهذا أكرر ها هو النص بتمامه وكماله أمام الجميع دون أن نزيد عليه أو ننقص منه حرفا واحدا، وقبل كل شئ أود لفت الأنظار إلى هذه العملية التافهة التى قام من خلالها إسماعيل أدهم بشرح قانون الصدفة، والتى اختار فيها لعبة الطاولة[٩٣] للتعبير من خلالها عن هذا القانون الذى يفسر – من وجهة نظره- خلق العالم.

أرأيت عزيزى القارئ إلى أية درجة بلغ الاستخفاف بهذا المسخ، قضية خلق العالم التى هى أهم القضايا الكونية لارتباطها بوجود الخالق عز وجل استنزلها هذا الملحد من سياقها الأسمى، وهبط بها إلى دركها الأسفل إلى ميدان اللهو واللعب، قضية بهذا الحجم، وبهذا القدر من الخطورة أصبحت كلعبة الطاولة، وكأن لسان حاله يقول: هيا بنا نلعب!!، ورغم هزله فقد كانت أمامه فرصة للعودة إلى الهدى من خلال المثال الذى اختاره بل والمثال التالى له كما سنوضح فيما بعد.

ولن ندخل معه فى مهاتراته، ولن نشترك معه فى لعبته المختارة ولن نجلس معه إلى مائدتها بل سندخل مباشرة إلى ما ختم به المثال فى قوله :" فإذا أتى الدش مرة من ٣٦ مرة لما عد ذلك غريبا؛ لأنه محتمل الوقوع، ولكن ليس معنى ذلك أن الدش لابد من مجيئه؛ لأن هذا يدخل فى باب آخر قد يكون باب الرجم"، وهنا ننبه على هذه الثغرة الكاشفة عن عورة هذا المثال الذى أتى به للبرهنة على خلق العالم بناء على قانون الصدفة، وهى اعترافه بانعدام الضرورة فى مجئ الدش؛ لأن الأمر لا يعدو دائرة الاحتمال فقط، وشجاعته بهذا الاعتراف توازت مع جبنه عن الاعتراف بالخالق عز وجل الذى اكتفى معه بالفرار -كما هى عادته- متذرعا بأن القول بالضرورة يدخل فى باب الرجم بالغيب، إلا أنه جبن عن نطق كلمة الغيب؛ لعدم إيمانه به وهو أول باب من أبواب الدخول إلى العقيدة الصحيحة.

نأتى إلى المثال الثانى وهو: جراحة استئصال الزائدة الدودية؛ واحتمالات نسب النجاح فيها، ونكتفى بإحدى الفرضيات التى ساقها فى صيغة سؤال للطبيب

الذى يقوم بهذه الجراحات: ما نسبة احتمال النجاح فى العملية التى ستجريها لفلان؟! فإنه يصمت ولا يجيبك؛ لأنه يعجز عن معرفة النسبة الاحتمالية، وإن أدهم كان وسيبقى أولى بالعجز من هذا الطبيب؛ لأنه يتحدث عن قصة الخلق، أو عن قضية الخلق التى يجهل كل شئ عنها إلا مايزعمه من باب التخرص والتخمين، والافتراضات الرياضية، والأمثلة الهزلية التى استعاض من خلالها باللعب عن الجد، وارتضى اللهو بديلا عن العلم.

فإذا كان الطبيب يستطيع الإجابة عن نسبة الاحتمال إذا اتسمت بالعموم، ويعجز عن الإجابة إذا ضاقت الدائرة فإن أدهم أكثر عجزا منه؛ لأن قضية الخلق لا يجوز معها التخمين، ولا يصلح إخضاعها للصدفة، ولا ينبغى التعامل معها بقانون الاحتمالات، وكان الأولى بإسماعيل أدهم أن يعلن عن عجزه هو بدلا من عجز الطبيب، ولكن هيهات أن يصنع ذلك وقد طبع الله تعالى على قلبه، ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾[٩٤].

ولكي ييسر لنفسه الإفلات من هذا المأزق العقلي الواضح فإنه يقوم بالفرار من المواجهة بحجة أن نسبة الاحتمالات، وصلاحية قانون الصدفة تعملان فى الأعداد الكبيرة فقط دون الأعداد الصغيرة، ثم قام باختراع قانون وهمي لم يقل به سواه، وهو ما أسماه "قانون العدد الأعظم الصدفي" !!، وهذا القانون هو الذى يبرر به عجزه عن مواجهة الحقائق الكبرى؛ حيث إنه لم ينجح فى المواجهة، فبحث عن النجاح عن طريق اجترار القول بهذا القانون العجيب، فهو يقول مثلا: ".. وكلما عظم مقدار "س" فى المعادلة (ن + س) تحدد مقدار "ح" أى النسبة الاحتمالية، وذلك خضوعا لقانون الأعداد العظمى فى حسابات الاحتمال، ومعنى ذلك أن قانون الصدفة يسرى فى المقادير الكبيرة".

وهو بهذا الزعم يقف ضد العقل وضد العلم وضد الرياضيات، يقول الشيخ نديم الجسر: "متى تضخمت النسبة العددية تضخما هائلا يصبح حظ المصادفة فى حكم العدم [٩٥] "على عكس ما ادعاه ذلك المغرور، ثم يزيد الشيخ الجسر القضية

وضوحا بقوله: "لو فرض أنك تملك مطبعة فيها نصف مليون حرف مفرقة في صناديقها فجاءت هزة أرضية قوية قلبت صناديق الحروف على بعضها وبعثرتها وخلطتها، ثم جاءك منضد الحروف يخبرك أنه قد تألف من اختلاط الحروف بالمصادفة عشر كلمات متفرقة غير مترابطة المعاني فهل كنت تصدق ؟.

- نعم أصدق.
- ولكن لو قال لك: إن الكلمات العشر تؤلف جملة كاملة مفيدة، فهل كنت تصدق؟.
- أستبعد ذلك جدا، ولكن لا أراه مستحيلا.
- ولكن لو أخبرك أن حروف المطبعة بكاملها كونت عند اختلاطها بالمصادفة كتابا كاملا من (٥٠٠) صفحة ينطوى على قصيدة واحدة تؤلف بمجموعها وحدة كاملة مترابطة متلائمة منسجمة بألفاظها وأوزانها وقوافيها ومعانيها ومغازيها فهل كنت تصدق ؟.
- أبدا لا أصدقه.
- أتدرى لماذا ؟ ؛ لأن التزاحم بين حروف الكتاب يجرى بين (٥٠٠) ألف حرف على تكوين (١٢٥) ألف كلمة تقريبا بأشكال وترتيبات لا تعد ولا تحصى أبدا، وهذا ما يجعل حظ المصادفة بنسبة واحدة ضد عدد هائل جدا جدا لو قلت عنه: إنه مليار مليار مليار لكان قليلا... فإذا كان هذا في كتاب المطبعة، وكلماتة المحدودة المعدودة فما قولك في كتاب الله الأعظم، وكلماته التى يقول عنها جلت قدرته: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَـٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَـٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾(٩٦)، ويقول: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَـٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَـٰتُ ٱللَّهِ...﴾ (٩٧)، (٩٨).

ويسوق الأستاذ سعيد حوى نفس المثال، ويعلق عليه بقوله: " إن النتيجة هائلة لدرجة أن نسبة الاحتمالات في حدوث ذلك لا تحيط بها أرقام اللغة.

ولكى نعرف معنى كلمة (٥٠٠) ألف حرف و (١٢٥) ألف كلمة و (٢٨) حرف هجائي لندرس هذا النص: "إن البروتينات من المركبات الأساسية في جميع الخلايا الحية، وهى تتكون من خمسة عناصر هي: الكربون والهيدروجين والنيتروجين والأوكسجين والكبريت، ويبلغ عدد الذرات في الجزئ البروتيني الواحد (٤٠٠٠٠) ذرة، ولما كان عدد العناصر الكيماوية في الطبيعة (٩٢) [٩٩] عنصرا موزعة كلها توزيعا عشوائيا، فإن احتمال اجتماع هذه العناصر الخمسة لكي تكون جزيئا من جزيئات البروتين يمكن حسابه بمعرفة كمية المادة التي ينبغي أن تخلط خلطا مستمرا لكي تؤلف هذا الجزئ، ثم لمعرفة طول الفترة الزمنية اللازمة لكي يحدث هذا الاجتماع بين ذرات الجزئ الواحد.

وقد قام أحد العلماء بحساب هذه العوامل جميعا فوجد أن الفرصة لا تتهيأ عن طريق المصادفة لتكوين جزئ بروتيني واحد إلا بنسبة (١) إلى $(١٠)^{١٦٠}$ أى بنسبة واحد إلى رقم (٦٠) مضروبا بنفسه (١٦٠) مرة، وهو رقم لا يمكن النطق به أو التعبير عنه بكلمات، وينبغي أن تكون كمية المادة التى تلزم لحدوث هذا التفاعل بالمصادفة أكبر مما يتسع له الكون بملايين المرات [١٠٠] هذه العمليات المستحيلة تتحول استحالتها إلى إمكان عند الملحد إسماعيل أدهم عن طريق اختراعه العجيب المرتبط بقانون الصدفة الرياضي، وهنا نستكمل التعليق ولكن من خلال حديث وحيد الدين خان: "إن جزئ البروتين يتكون من سلاسل طويلة من الأحماض الأمينية وأخطر ما في هذه العملية هو الطريقة التى تختلط بها هذه السلاسل بعضها مع بعض؛ فإنها لو اجتمعت في صورة غير صحيحة لأصبحت سماً قاتلا بدل أن تصبح موجدة للحياة.

لقد توصل أحد العلماء إلى أنه يمكن تجميع هذه السلاسل فيما يقرب من $\frac{٤٨}{١٠}$ صورة وطريقة، ثم يقول: إنه من المستحيل تماما أن تجتمع هذه

السلاسل – بمحض الصدفة – في صورة مخصوصة من هذه الصور التي لا حصر لها حتى يوجد الجزئ البروتيني الذي يحتوى أربعين ألف من أجزاء العناصر الخمسة.

ولابد أن يكون واضحا أن القول بالإمكان في قانون الصدفة الرياضي لا يعني أنه لابد من وقوع الحادث الذي ننتظره، وإنما معناه أن حدوثه محتمل لا بالضرورة، فمن الممكن على الجانب الآخر من المسألة أن لا يحدث شئ ما بعد تسلسل العملية إلى الأبد (١٠١).

هذا الجزئ البروتيني ذو وجود "كيماوي" لا يتمتع بالحياة إلا عندما يصبح جزءا من الخلية؛ فهنا تبدأ الحياة، وهذا الواقع يطرح أهم سؤال: من أين تأتي الحرارة عندما يندمج الجزئ بالخلية؟!.

ولا جواب عن هذا السؤال في أسفار المعارضين الملحدين.

إن من الواضح الجليّ أن التفسير الذي يزعمه هؤلاء المعارضون متسترين وراء قانون الصدفة الرياضي لا ينطبق على الخلية نفسها، وإنما على جزء صغير منها هو الجزئ البروتيني وهو ذرة لا يمكن مشاهدتها بأقوى منظار بينما نعيش وفي جسد كل منا ما يربو على أكثر من مئات البلايين من هذه الخلايا!!!" (١٠٢).

ولكن هل آمن إسماعيل أدهم بوجود الله تعالى ذاته، وأقرّ به حتى يقتنع بهذه الاجتهادات العلمية المبنية على التجارب المعملية والمشاهدات العملية.

إنه لا يقتنع إلا بأفكاره هو، وتخرصات سادته وأساتذته من الضالعين في الإلحاد أمثال هكسلي، وهيكل زميله في الإلحاد، وشقيقيه في النسب بانحدار ثلاثتهم من أصلاب القردة العليا اتساقا مع مذهب التطور الذي يدينون به جميعاً.

فهكسلي هذا يقول: "لو جلست ستة من القردة على آلات كاتبة، وظلت تضرب على حروفها لملايين السنين فلا نستبعد أن نجد في بعض الأوراق الأخيرة التي كتبوها قصيدة من قصائد شكسبير، فكذلك كان الكون الموجود الآن نتيجة لعمليات عمياء ظلت تدور في المادة لبلايين السنين (١٠٣)".

ويتفق هذا الخرف مع طرح إسماعيل أدهم فــي النتيجــة النهائيــة إلا أن هكسلى عزا ظهور قصيدة شكسبير إلى ضرب أجداده من القــردة علــى الآلات الكاتبة بينما أدهم يقول بظهور القرآن وكتاب أصل الأنواع عن طريق الصدفة أو كما يسميه قانون العدد الأعظم الصدفي، وهيكل يقول: "ايتونى بالهواء وبالمــاء وبالأجزاء الكيماوية وبالوقت وسأخلق الإنسان" (١٠٤).

وهناك تجربة فى معسكر الإلحاد الأحمر تعتبر الجانب التطبيقى لذلك الذى تغيّاه هيكل حيث "عهد ستالين إلى أوبارين رئيس الأكاديمية العلمية السوفييتية أن يثبت علميا أن الحياة نشأت "تلقائيا" من المادة دون الاحتياج إلــى فــرض قــوة أخرى "الله" وراء عمليات الخلق.

وظل أوبارين وزملاؤه يواصلون العمل طوال عشرين سنة وفــى عــام ١٩٥٥م خرج أول تقرير يقول فيه أوبارين: "إن النجاح الــذى حققتــه علــوم البيولوجيا السوفييتية حديثا يزيد الوعد بأن مسألة خلق كائنــات حيــة بطــرق صناعية ليس ممكنا فحسب، بل سيتحقق عما قريب !! ".

وظل العالم ينتظر تحقيق الوعد، ومات ستالين، وفشل أوبارين، وأعلن فى عام ١٩٥٩م عن فشله قائلا: "إن جميع المحاولات التى أجريت لتوليد الحياة من مواد غير عضوية سواء تحت ظروف طبيعية أو فى المعمل قد باءت بالفشل.

وإن فى الإمكان توليد الحياة بشرط أن تكون المحاولة على كوكب غيــر الأرض، وذلك نظراً لأن ظروف الأرض الحالية لم تعد مهيأة لذلك".

فانظر كيف زين الشيطان لأوبارين طريق الهروب من الإيمان، وماذا كان عليه لو استسلم لتلك الحقيقة الجبارة بدلا من التمادي فى الضلال (١٠٥)"؟!

بيد أن أوبارين هذا رغم تماديه فى الضلال وفقا لوصف الدكتور المطعنى "ينفى كليا الرأى القائل بأن الصدفة هى المكونة للحياة فــى قولــه: "إن شــبكة التفاعلات للتحول الغذائي ليست منسقة بإحكام فقط بل إنها موجهة أيضــا نحــو الحفظ الذاتي الدائم للمجموعة فى الظروف المتوافرة للبيئة الخارجية، هذا التوجيه المنسق بقوة، وهو المميز للحياة لم يكن وليد الصدفة" (١٠٦) حتى أوبارين المادي

الملحد قام بنفي الصدفة التي أحل قانونها إسماعيل أدهم محل الإيمان بالله عز وجل، وطفق يدلل عليها بأدلة متهافتة،والأمثلة التي ساقها للبرهنة على قانونه الباطل قام غيره من العلماء باستخدامها وتوظيفها، ولكنهم وصلوا من خلال ذلك إلى نتائج مغايرة للتي وصل إليها، وماذا كان يضيره لو أنه بدلا من الإيمان بما أسماه "قانون العدد الأعظم الصدفي" آمن بالخالق الأعلى سبحانه وتعالى، ربما منعه من ذلك كبره وعناده وهيمنة سادته عليه.

إلى جوار ما سبق أن استشهدنا به على استحالة الصدفة من خلال احتمالات ظهور موضوعات ذات معنى من خلال وضع مئات الألوف من الحروف في صناديق نسوق هذه التجربة التي أجريت فعلا –لا فرضا– في "مركز بحوث الاحتمالات البيولوجية في الولايات المتحدة الأمريكية على الحروف الأبجدية.

في هذه التجربة سحبت ٣٠ ألف سحبة من الحروف الأبجدية الإنكليزية البالغ عددها ٢٦ حرفا، وحسبت الكلمات التي تفيد أيّ معنى من السحب العشوائي للحروف، ورتبت هذه الكلمات في جداول خاصة، وكانت النتيجة كما يلي:

الكلمات التي لها معنى والمتكونة من حرفين: عدد ٤٨٩٠ كلمة.

الكلمات التي لها معنى والمتكونة من ثلاثة حروف: عدد ١١١٣ كلمة.

الكلمات التي لها معنى والمتكونة من أربعة حروف: عدد ١٣٩ كلمة.

الكلمات التي لها معنى والمتكونة من خمسة حروف: عدد ١٧ كلمة.

الكلمات التي لها معنى والمتكونة من ستة حروف: عدد ٣ كلمات.

الكلمات التي لها معنى والمتكونة من سبعة حروف: كلمة واحدة فقط.

استنتج الباحثون من هذه التجربة ما يلي:

إن احتمال ظهور كلمة ذات معنى من التراص العشوائي للحروف يبدأ بالنقصان والهبوط إلى نسبة الربع أو الخمس كلما أضيف حرف آخر إلى الكلمة،

وهذا يعنى أن احتمال تراص أربعمائة حرف بشكل عشوائي لتكوين جملة ذات معنى يتراوح بين ١: $٤^{٤٠٠}$ إلى ١: $٥^{٥٠٠}$ " (١٠٧)

إن إسماعيل أدهم حاول إكساب قانون العدد الأعظم الصدفي أهمية خاصة عن طريق عقد آصرة نسب و مصاهرة – إذا صح التعبير – بينه وبين الرياضيات، وقد ثبت بطلان ذلك بصورة قطعية، ورغم كثرة ما سقناه من نماذج تتشابه فى صياغتها مع طرحه إلا أن النتائج متناقضة تماما، فإننا الآن نسوق هذا النموذج المفترض لطرافته من ناحية ولتشابهه مع النموذج الذى طرحه هكسلى أحد الذين تأثر بهم ذلك الأدهم "إن تراص حروف "نظرية التطور"– هاتان الكلمتان فقط – بعامل الصدفة هو احتمال بعيد جدا.

لنكتب على قصاصات الورق الحروف من الألف إلى الياء، ولنضعها فى كيس أو لنجلب آلة طابعة عليها الحروف الأبجدية فقط، ولنجلس أمامها قردا، ولنتصور أنه سيضرب على هذه الحروف عشوائيا، فما هو احتمال ظهور عبارة "نظرية التطور" عن طريق الصدفة ؟!.

إن عبارة "نظرية التطور" تحتوى على ١١حرفا، فاحتمال ظهور هذه العبارة عن طريق الصدفة هو بنسبة ١: $٢٨^{١١}$ أى رقم ١ إلى رقم هائل جدا، ويتألف من ضرب العدد ٢٨ فى نفسه إحدى عشرة مرة، ولكى نتصور مدى ضخامة هذا الرقم نقول بأنه يساوى تقريبا عدد الثواني المارة اعتبارا من أول خلق الكون حتى الآن، أى لو كان هذا القرد يضرب على هذه الآلة الطابعة مرة كل ثانية من قبل خمسة عشر مليار سنة حتى الآن لكان هناك احتمال أن تظهر عبارة "نظرية التطور" بعامل الصدفة(١٠٨) ".

وهكذا رأينا اتفاق العلماء – العقلاء – على استحالة ظهور شئ إلى الوجود عن طريق الصدفة مهما بلغت ضآلته كجزئ البروتين، أو عبارة من كلمتين، بينما لم يكتف أدهم بالترويج "لنظريته" فى إمكانية قيام الحروف بتأليف بعض الكتب الشبيهة بالمؤلفات البشرية، بل والمنزلة من عند رب البرية كالقرآن الكريم، ولم يخرج الكون من افتراضاته تلك بل جعله خاضعا لهذا القانون

الأخرق وقبل أن نناقشه في خرافاته تلك نتساءل سؤالا بريئا مـن أى غـرض، ومباشرا دون تعميق أو تعجيز:

أين المؤلفات التي ظهرت عن طريق الصدفة منذ بدء الكون حتى الآن ؟!.

وأين المخلوقات التي ظهرت عن طريق الصدفة منذ بـدء الخلـق حتـى الآن ؟!.

وقد قام سادتنا من العلماء والمفكرين بمناقشة القول بالصـدفة وإبطالـه، ولكن علينا قبل أن نسوق شهاداتهم نعلن استغرابنا من تبجح هذا المسخ بنقد اثنين من كبار علماء الرياضيات والطبيعة قد تعمق كل منهما فى البحث حتى توصلا للإقرار بوجود الله عز وجل، و بطبيعة الحال فإن ذلك لم ينل إعجابه، ولم يحظ بتأييده، بل اتبع معهما أسلوب التسفيه والسخرية والتطاول الذى يجيـده أسـياده الشيوعيون، ولنقرأ معا ما كتبه فى هذا الصدد: "يقول ألبرت آينشتاين صـاحب نظرية النسبية فى بحث قديم له: "مثلنا إزاء العالم مثل رجل أتى بكتاب قـيّم لا يعرف عنه شيئا، فلما أخذ فى مطالعته، و تدرج من ذلك لدرسه، وبان له ما فيه من أوجه التناسق الفكرى شعر بأن وراء كلمات الكتاب شيئا غامضا لا يصـل لكنهه، هذا الشئ الغامض الذى عجز عن الوصول إليه هو عقل مؤلفه، فإذا مـا ترقى به التفكير عرف أن هذه الآثار نتيجة لعقل إنسان عبقري أبدعه.

كذلك نحن إزاء العالم فنحن نشعر بأن وراء نظامه شيئا غامضا لا تصـل إلى إداركه عقولنا هذا الشئ هو الله".

ويقول السير جيمس جينز الفلكي الإنجليزي الشهير: "إن صيغة المعادلـة التي توحد الكون هى الحد الذى تشترك فيه كل الموجودات، ولما كانت الرياضيات تفسر تصرفات الحوادث التى تقع فى الكون وتربطها فى وحـدة عقليـة فهـذا التفسير والربط لا يحمل إلا على طبيعة الأشياء الرياضية.

ومن أجل هذا لا مندوحة لنا أن نبحث عن عقل رياضى يتقن لغة الرياضة يرجع له هذا الكون،هذا العقل الرياضى الذى نلمس آثاره فى الكون هو الله ".

وأنت ترى أن كليهما(والأول من أساطين الرياضيات فى العالم والثانى فلكى رياضى من القدر الأول) عجزا عن تصور حالة الاحتمال الخاضعة لقانون الصدفة الشاملة والتى يتبع دستورها العالم؛ لا لشئ إلا لتغلب فكرة السبب والنتيجة عليهما [109] ".

وبعد أن ساق مبرراته فى تخطئة كل من هذين العلمين، وهما يعبران عن تيار قوى أعلن إيمانه بالخالق عز وجل عن طريقي العقل و العلم وحدهما دون الارتكاز على قاعدة دينية أو لاهوتية قام بإنهاء رسالته بعبارات تفيد الإصرار على الكفر، ولا تخلو من غرور كاذب، وكبر لا مبرر له يقول فيها: "إن الصعوبة التى أرى الكثيرين يواجهونني بها حينما أدعوهم إلى النظر إلى العالم مستقلا عن صلة السبب والنتيجة، وخاضعا لقانون الصدفة الشامل ترد إلى قسمين:

الأول: لأن مفهوم هذا الكلام رياضي صرف، ومن الصعب التعبير فى غير أسلوبه الرياضى، وليس كل إنسان رياضيا عنده القدرة على السير فى البرهان الرياضي.

الثانى: أنها تعطى العالم مفهوما جديدا وتجعلنا ننظر له نظرة جديدة غير التى ألفناها، ومن هنا جاءت صعوبة تصور مفهوماتها؛ لأن التغير الحادث أساسى يتناول أسس التصور نفسه.

ولهذه الأسباب وحدها كانت الصعوبة قائمة أمام هذه النظرية الجديدة، ومانعة للكثيرين عن الإيمان بها.

أما أنا شخصياً فلا أجد هذه الصعوبة إلا شكلية، والزمن وحده قادر على إزالتها، ومن هنا لا أجد بدا من الثبات على عقيدتي العلمية، والدعوة إلى نظريتي القائمة على قانون الصدفة الشامل الذى يعتبر فى الوقت نفسه أكبر ضربة للذين يؤمنون بوجود الله [110]".

وهكذا ختم إسماعيل أدهم رسالته كافراً كما بدأها كافراً ولا نملك إلا أن نقول كما قال ربنا: ﴿لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ ﴾[111].

ونكتفي بعد هذا العرض والتحليل لوجهة نظر إسماعيل أدهم في الصدفة، وإيمانه بقانونها أن نستأنس برد أستاذنا الدكتور أحمد محمد الطيب الذى كتب يقول تحت عنوان: "استحالة الصدفة ": "إن بعضا ممن يوصفون بالعلم أو الفلسفة أو الفكر تستريح أذهانهم إلى مثل هذا التصور الشاذ بل المستحيل، ويقولون: إن هذا الكون لم يوجده موجد، وإنما حصل هكذا عن طريق الصدفة قائلين: إن ملايين الملايين من الذرات اللانهائية كانت تتحرك فى فضاء لا نهائى وفى أزمنة سحيقة لا نهائية، ولم تكن فى تحركاتها تهدف إلى غاية معينة، وإنما تتحرك حيثما اتفق، وكيفما تيسر، وفجأة التحمت هذه الذرات بعضها ببعض فتكون منها فى بادئ الأمر كتلة ضخمة جدا، وأثناء التحرك العشوائى لهذه الكتلة الهائلة حدث أن اصطدمت بالشمس وانقسمت إلى أجزاء كثيرة، ومن هذه الأجزاء تكونت الأرض والأجرام والكواكب، وتشكلت المنظومة الشمسية التى نعرفها الآن.

وبرغم غرابة هذا التفسير ولا معقوليته فإن طائفة من ملاحدة العلماء قد تشبثوا به وروجوا له الأكاذيب خدمة للإلحاد وسعيا لإحلال العلم محل الدين(١١٢) والإيمان بالله تعالى، ولم يستبصروا من دلائل الكون شيئا يلفت نظرهم إلى الله تعالى، فقالوا: إن الوجود كله وليد الصدفة(١١٣)"، ثم يقوم الدكتور الطيب بنقد مقولة الصدفة من ناحيتين: ناحية الدليل العقلى، وناحية الدليل الرياضى.

أما الدليل العقلى:

فهو استحالة ولادة "النظام" من "الفوضى" أو مجئ الحكمة من العبث، والصدفة إنما تعنى انعدام القصد،وتعنى العبث والفوضى و التشويش، وهذا الكون – باعتراف الماديين أنفسهم – مبنى على نظام دقيق وإحكام مدهش، وتأليف بديع يقصد إلى غاية ظاهرة هى توفير الشروط اللازمة لحياة الإنسان والكائنات الحية، وما يترتب على هذه الحياة من آثار وأفعال، ومن البديهى أن يستلزم عنصر القصد فى نظام الكون "عقلا" أو يستلزم "علما".

إن مقولة الصدفة فوق أنها تصمت عن إجابة السؤال المتعلق بنشأة الكون إجابة منطقية فإنها تصدم بديهة العقل ومبدأه الأولى وهو مبدأ "السببية".

وكل قول يصادم هذا المبدأ الفطرى المركوز فى نفوس الناس جميعا فإن العقل هو أول من يحكم عليه بالزيف والتدليس.

<u>والدليل الرياضي:</u>

الذى يحيل مقولة الصدفة وينسفها من الجذور هو دليل "حساب الاحتمالات"، وملخصه يقوم على خطوات ثلاث:

١- **الخطوة الأولى:** أننا نشاهد فى الكون انسجاما مطرداً بين كل ظاهرة من ظواهر الطبيعة وبين حياة الإنسان، ويحملنا ذلك على الاعتقاد بأن كل هذه الظواهر –على كثرتها الهائلة– مسخرة فى اتجاه تيسير حياة الإنسان ككائن حي، ودليلنا على ذلك: أن حدوث أى اضطراب أو تغيير فى هذه الظواهر إنما يعني توقف هذه الحياة ونهايتها الفورية.

٢- **الخطوة الثانية:** هذا التوافق والانسجام المطرد بين ملايين الظواهر الطبيعية من جانب ومهمة تيسير حياة الإنسان من جانب آخر يمكن تفسيره بفرضية واحدة فقط هى: وجود صانع حكيم قصد إلى توفير عنصر الحياة على الأرض من خلال تشابك هذه الظواهر العديدة، ويزداد احتمال هذه الفرضية ويتراكم مع كل حال أو مثال من أمثلة التوافق بين الظاهرة الطبيعية وظاهرة الحياة بحيث تصبح درجة احتمال التفسير بوجود صانع حكيم درجة عالية جدا.

٣- **الخطوة الثالثة:** فى مقابل ذلك لو حاولنا تفسير كل هذه التوافقات فى أمثلتنا اللانهائية بفرضية الصدفة فسوف نضطر إلى افتراض ملايين الملايين من الصدف، ومع كل حالة أو مثال سوف تهبط درجة الاحتمال حتى تصبح صفراً.

وهكذا مع صعود "احتمال" فرضية الصانع وهبوط "احتمال " فرضية الصدفة يرجح العقل – بدرجة لا يشوبها الشك– الاحتمال الأول ويستبعد كلية الاحتمال الثاني، ونصل في النهاية إلى النتيجة القاطعة وهي أن للكون صانعا حكيما بدلالة كل ما في هذا الكون من آيات الاتساق و التدبير[١١٤]".

وهذه النتيجة التي توصل إليها أستاذنا الدكتور الطيب ستكون إحدى الأفكار الرئيسية في خاتمة هذا الكتاب إن شاء الله رب العالمين.

وقبل أن نصل إلى ختام هذه الفقرة نحيل القارئ إلى بعض المراجع التي عرضت موضوع القول بالصدفة وقضت ببطلانه[١١٥]، ثم نختم بقول عالم الطبيعة الأمريكي جورج إيرل ديفيس: "لو كان يمكن للكون أن يخلق نفسه –ادعى أدهم ذلك– فإن معنى ذلك أنه يتمتع بأوصاف الخالق، وفي هذه الحال سنضطر أن نؤمن بأن الكون هو الإله، وهكذا ننتهي إلى التسليم بوجود (الإله)، ولكن إلهنا هذا سوف يكون عجيبا: إلها غيبيا وماديا في آن واحد !!.

إنني أفضل أن أؤمن بذلك الإله الذي خلق العالم المادي وهو ليس بجزء من هذا الكون، بل هو حاكمه ومديره ومدبره بدلا من أن أتبنى مثل هذه الخزعبلات[١١٦]".

ولكن ما حيلتنا وقد حوّل إسماعيل أدهم الخزعبلات إلى نظريات!!! آمن بها ودعا إليها وهلك في سبيلها، واليوم نجدله أتباعا يحاولون بعث جيفته، بترويج كفره، ونشر إلحاده دون قلب خاشع، أو دين وازع، أو ضمير مانع، أو نظام رادع، ولا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم.

هوامش الفصل الثالث

١- د.جابر عصفور: التنوير يواجه الإظلام ص ٢٠.

٢- د.محمد رجب البيومي: الصراط المستقيم ٢٧٣/١.

٣- شهاب الدمشقي: هل الله موجود أم لا؟ مقال منشور بموقع اللادينيين العرب.

٤- خالد محمد خالد: مختارات من إسلاميات ص١٣.

٥- د.محمد عمارة: الغزو الفكرى وهم أم حقيقة ص١٦٣ ، ١٦٤.

٦- إسماعيل أدهم: لماذا أنا ملحد؟ ص٥ انظر: في مواجهة الإلحاد المعاصر الدكتور يحي هاشم حسن فرغل.

٧- سورة الفرقان: الآية ٤٤.

٨- فضيلة الشيخ أحمد حسن الباقورى: تصدير كتاب العلم يدعو إلى الإيمان ص٣٠.

٩- جوزيف بوخينسكى: مدخل إلى الفكر الفلسفى ص١٢٧ ترجمة وتقديم د.محمود حمدى زقزوق.

١٠- السابق: ص١٢٨.

١١- توماس هوبس (١٥٨٨-١٦٧٩م) أول الماديين المحدثين، اهتم بدراسة الرياضيات فعرف "مبادئ إقليدس"، من مؤلفاته: "مبادئ القانون الطبيعى والسياسى"، و"المجتمع الكنسى والمدنى مادة وصورة وسلطة، و"فى الجسم"، وأخيرا نشر كتابه: "فى الإنسان". انظر: تاريخ الفلسفة الحديثه يوسف كرم ص ٥١ ص ٥٧.

١٢- جون لوك (١٦٣٢-١٧٠٤م) هو أحد كبار ممثلى النزعة التجريبية الإنجليزية، من مؤلفاته "رسالة فى العقل الإنسانى"، "ومحاولة فى الفهم الإنسانى". انظر: تاريخ الفلسفة الحديثة ص١٤١ ص١٥٢

١٣- جورج باركلى (١٦٨٥-١٧٥٣م)رجل دين جعل من الله محور مذهبه فى الوجود والمعرفة واليقين، وضع "رساله فى الحركة"، وناقش أصول الرياضيات والعلم الطبيعى، وأنكر المادة، وبرهن على عدم إدراكها فى رسالته "نظرية جديدة للرؤية". انظر: تاريخ الفلسفة الحديثه ص١٦٢ص١٧١.

١٤- ديفيد هيوم (١٧١١-١٧٧٦م) من مؤلفاته: كتاب فى"الطبيعة الإنسانية"، وكتاب فى "الانفعالات"، وكتاب فى"الأخلاق"، و"محاورات فى الدين الطبيعي". انظر: تاريخ الفلسفة الحديثة ص١٧٢ص١٨٠.

١٥- ذكرنا فيما سبق علة قرب هيوم إلى قلب الملحد؛ وللتذكرة نكرر بأنه وجد ضالته فى جانب من الجوانب الفكرية عند هيوم وهو المتمثل فى الانتقادات التى وجهها ذلك الأخير لأدلة وجود الله تعالى بمنهج أقرب إلى السفسطة الفارغة منه إلى الفلسفة الجادة.

١٦- لماذا أنا ملحد؟ ص٤، ٥.

١٧- سورة إبراهيم: الآية ١٠.

١٨- سورة فصلت: الآية ٤٥.

١٩- سورة الدخان: الآية ٩.

٢٠- التعريفات: ص١١٣.

٢١- مختارات من إسلاميات ص١٣.

٢٢- عامر العقاد: حرب الأكاذيب ص٩٠.

٢٣- هنرى لنك: العودة إلى الإيمان ص٢٢ ترجمة الدكتور ثروت عكاشة.

٢٤- السابق: ص١٠٣، ١٠٤.

٢٥- حرب الأكاذيب ص٩٠.

٢٦- فضيلة الشيخ محمد الغزالى: الإسلام فى وجه الزحف الأحمر ص١٨.

٢٧- حرب الأكاذيب ص٧٨.

٢٨- السابق: ص٨٠. وليس أدل على ذلك من هذه الهجمة الإعلامية الشرسة على العلماء المسلمين المثارة حاليا فى الصحافة المصرية ومن أبرز تجلياتها التطاول على فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر، وعلى فضيلة مفتى الديار، وعند كتابة هذه السطور نشرت إحدى الجرائد المستقلة ملفا خاصا تحت عنوان "المتلاعبون بالعقول" تناولت فيه عشرين داعية إسلامياً حيث جعلت جميع النماذج المختارة فى صعيد واحد، وسوّت بين العلماء الكبار، وبين صغار الدعاة الهواة، وبين التابعين للمؤسسة الأزهرية وبين مَنْ لا ينتمون إليها، المهم لدى الصحيفة أنهم

جميعا يمارسون الدعوة الإسلامية؛ ولهذا وضعتهم تحت هذا العنوان الذى يتضمن كثيراً من الإيحاءات السلبية؛ انظر جريدة الدستور الأربعاء ٢١نوفمبر ٢٠٠٧م

٢٩- د.محمود إسماعيل: الإسلام السياسى بين الأصوليين و العلمانيين ص١٤١.

٣٠- السابق: ص١٣٧، ولن ندخل مع داعية الماركسية هذا فى معارك جانبية بل نحيله إلى كتاب: لماذا أسلمت؟ نصف قرن من الحقيقة دراسة أعدها محمد عثمان الخشت نشر مكتبة القرآن، القاهرة ١٩٨٦م، كما نحيله إلى محاضرة ألقاها جارودى بنفسه عن تجربته الإسلامية بالمركز القومى للدراسات القضائية بالقاهرة فى ٢١مارس ١٩٨٧م انظر مجلة منبر الإسلام ديسمبر ١٩٨٧م.

٣١- طارق حجى: تجربتى مع الماركسية ص١٦١،١٦٠ ، انظر: أكذوبة اليسار الإسلامى د.مصطفى محمود.

٣٢- السابق: ص١٦٢، ١٦٣ بتصرف، وهو ما أشار اليه أستاذنا الدكتور أحمد الطيب بقوله عن الماركسية: إنها "لا توجه هجومها على دين معين من الأديان بقدر ما تعنى بالهجوم على الأسس العقلية الفلسفية الضرورية للعقائد الدينية" انظر: مفهوم الحركة بين الفلسفة الإسلامية والماركسية ص٢٣.

٣٣- السابق: ص٢٣٥.

٣٤- إنصافا للحقيقة، والتزاما بالأمانة العلمية نذكر أن الأستاذ طارق حجى لم يقم بإيراد أسماء الشيوعيين المصريين الذين يتحدث عنهم إلا بالأحرف الأولى، ونادراً ما كان يذكر الأسماء اللهم إلا الاسم الأول فى قليل من الأحيان، ولكننا فى سياقنا هذا عرفنا الأستاذ اليسارى الكبير، وربيبه التلميذ الصغير؛ لشهودنا هذه المعارك بين لطفى الخولى وفضيلة الشيخ الدكتور عبد المنعم النمر، ويكفى للتدليل على ذلك بمقال لطفى الخولى بجريدة الأهرام بتاريخ ١٩٨٧/١١/٤م تحت عنوان: "إسلامنا وماركسية النمر"، والذى تصدى بالرد عليه أستاذنا الدكتور عبد المعطى بيومى بمقال تحت عنوان: "إسلام الماركسيين!!" بمجلة منبر الإسلام الصادرة فى ربيع الآخر ١٤٠٨هـ - ديسمبر ١٩٨٧م، أما التلميذ فلتوفر مؤلفاته لدينا، وافتضاح أمره عندنا، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

٣٥- تجربتي مع الماركسية ص ١٦٧، ١٦٨ ، علما بأن الشيوعية في مصر تحتاج إلي دراسات، متعمقة لوجود أذنابها في الدوائر الثقافية، والمؤسسات الإعلامية حتى الآن، ومن الدراسات التي انشغلت بهذا الهم الوطني:

- الإسلام في وجه الزحف الأحمر لفضيلة الشيخ محمد الغزالي.
- حرب الأكاذيب للأستاذ عامر العقاد.
- واقعنا المعاصر للأستاذ محمد قطب.

ومن مؤلفات الدكتور مصطفى محمود شفاه الله :

- الماركسية والإسلام.
- لماذا رفضت الماركسية؟
- أكذوبة اليسار الإسلامي.

٣٦- الإسلام في وجه الزحف الأحمر ص٤٥.

٣٧- كارل ياسبرز: مدخل إلي الفلسفة ص٣١١، ٣١٢ ترجمة وتقديم الدكتور محمد فتحي الشنيطي.

٣٨- سورة الأنعام: الآية ٧١.

٣٩- الإمام الشيخ محمد مهدي شمس الدين: مطارحات في الفكر المادي و الفكر الديني ص٦٥.

٤٠- السابق: نفس الصفحة.

٤١- د.رشدي فكار: لمحات عن منهجية الحوار والتحدي الإعجازي للإسلام في هذا العصر ص٥٦، ٥٧.

٤٢- إرنست ماير: هذا هو علم البيولوجيا ص١٢١ترجمة د.عفيفي محمود عفيفي.

٤٣- انظر حولية كلية أصول الدين القاهرة- العدد العاشر ١٤١٣هـ -١٩٩٣م.

٤٤- إمانويل كانت (١٧٢٤-١٨٠٤م) فيلسوف ألماني قام بنقد الميتافيزيقا في رسالة له بعنوان "الأساس الممكن الوحيد للبرهنة على وجود الله"، من مؤلفاته: "دراسة في وضوح مبادئ العلم الإلهي النظري والأخلاق"، و"أحلام واهم معبرة بأحلام الميتافيزيقا"، ورسالة في"صورة ومبادئ العالم المحسوس والعالم المعقول"، ثم أخرج كتابه الأكبر "نقد العقل الخالص النظري"، ثم وضع رسالته "مقدمة لكل ميتافيزيقا مستقبلة تريد أن تعتبر علما"، ثم تحول إلي فلسفة الأخلاق فصنف فيها

كتابين: الأول "تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق"، والثانى "نقد العقل العملى" انظر: تاريخ الفلسفة الحديثة تأليف يوسف كرم ص٢٠٨ ص٢٦٠.

٤٥- هربت سبنسر (١٨٢٠-١٩٠٣م) شغل بمسألة التطور، وأول عرض له فى فلسفة التطور ظهر فى مقال عنوانه: "التقدم: قانونه وعلته"، فذكره داروين فى مقدمة كتابه "أصل الأنواع" بين الذين سبقوه إلى نظريته، من مؤلفاته: "المبادئ الأولى"، و"مبادئ البيولوجيا"، "مبادئ علم النفس"، و"مبادئ علم الاجتماع"، "مبادئ الأخلاق" وله أيضا كتاب فى التربية، وآخر فى تصنيف العلوم، وأخير فى ترجمته لحياته. انظر: تاريخ الفلسفة الحديثه تأليف يوسف كرم ص٣٥٦ ص٣٦٤.

٤٦- توماس هكسلى(١٨٢٥-١٨٩٥م) طبق نظرية التطور على الإنسان قبل داروين وذلك فى كتابه: "مكان الإنسان فى الطبيعة، وله كتاب عن "هيوم: حياته وفلسفته"، وله "محاولات مختلفة"، سبق أن ذكرناه فى سياق الفصل الثانى ضمن الشخصيات التى أعلن أدهم قراءته لمؤلفاتهم، وتأثره بهم. انظر: تاريخ الفلسفة الحديثة تأليف يوسف كرم ص٣٦٤ ، ٣٦٥.

٤٧- لماذا أنا ملحد؟ ص٦.

٤٨- السابق: نفسه.

٤٩- د.محمد عبد الفضيل القوصى: إفلاس الفكر الماركسى: ص ٢٢٢.

٥٠- د.محمد عبد الله دراز: الدين ص١١٨ ،١١٩.

٥١- سورة الكهف: الآية ٥١.

٥٢- يوسف كرم: تاريخ الفلسفة الحديثة ص٣٦٤ ،٣٦٥.

٥٣- هذا الاسم مأخوذ من لغة الهنود الحمر فى أمريكا الشمالية، وهو اسم لم يتفق على ضبطه ولا تحديد معناه، ويفسر تارة بمعنى موطن العشيرة ومستقرها، وتارة بمعنى العلامة والشعار. انظر: الدين للدكتور محمد عبد الله دراز ص١٥٩.

٥٤- تاريخ الفلسفة الحديثة ص٤٣٤.

٥٥- انظر أيضا: الله للأستاذ عباس محمود العقاد.
نشأة الدين للأستاذ على سامى النشار.

٥٦- الدين ص١٦٦.

٥٧- د. رشدى فكار: لمحات عن منهجية الحوار والتحدى الإعجازى للإسلام في هذاالعصر ص٧٤ ، ٧٥.

٥٨- أنور الجندى: على الفكر الإسلامى أن يتحرر من سارتروفرويد ودوركايم ص٢٥.

٥٩- السابق: ص ٢٨.

= انظر أيضا: الخطر اليهودى: بروتوكولات حكماء صهيون للأستاذ محمد خليفة التونسى ص٧١ ، ١١٣.

٦٠- الدين ص١١٨.

٦١- السابق: ص١٤٢ ص١٥٣.

٦٢- تاريخ الفلسفة الحديثة ص ١٧٨، ١٧٩.

٦٣- لماذا أنا ملحد؟ ص٦.

٦٤- الدين ص١٥٨، ١٩٥.

٦٥- السابق: نفسه.

٦٦- السابق: ص١١٩، ١٢٠.

٦٧- على سامى النشار: نشأة الدين ص٧٢، ٧٣.

٦٨- الدين ص٨٤.

٦٩- السابق: ص١٠٠.

٧٠- جفرى بارندر: المعتقدات الدينية لدى الشعوب ص٧ من مقدمة المترجم.

٧١- هنرى لنك: العودة إلى الإيمان ص١٨ ترجمة د.ثروت عكاشة.

٧٢- السابق: ص٢٥.

٧٣- السابق: ص٢١.

٧٤- لماذا أنا ملحد؟ ص٥.

٧٥- سورة الكهف: الآية ٥.

٧٦- روبرت أغروس، وجورج ستانسيو: العلم فى منظوره الجديد ص٥٨ ترجمة كمال خلايلى.

٧٧- د.مصطفى محمود: أكذوبة اليسار الإسلامى ص٧.

٧٨- د.عبد العظيم المطعنى: الإسلام فى مواجهة الأيديولوجيات المعاصرة ص٣٣١.
٧٩- د.أحمد الطيب: بحوث في الثقافة الإسلامية ص٢٤٢.
٨٠- السابق: نفسه.
انظر أيضا: الإسلام في مواجهة الأيديولوجيات المعاصرة للدكتور المطعني ص٣٢٥.
٨١- عباس محمود العقاد: الفلسفة القرآنية ص١٥.
٨٢- انظر ما قاله الدكتور المطعنى ساخرا من الفكر الساقط للشيوعيين الذين جعلوا المادة خالقة فى قولهم: إن المادة الجمادية هى الخالقه لنفسها ولغيرها مما هو أعلى منها شأنا من نبات وحيوان وإنسان، فخالفوا كل معروف ومألوف، وأتوا بمنكر من القول وزورا حيث جعلوا فاقد الشئ معطيا له، وهذه مقولة من أشد المقولات فسادا؛ لأن فاقد الشئ لا يكون معطيا له بأية حال من الأحوال. الإسلام فى مواجهة الأيديولوجيات المعاصرة ص٣٢٤، ٣٢٥.
٨٣- الدين ص١٠٩، ١١٠.
٨٤- لماذا أنا ملحد؟ ص٦.
٨٥- السابق: نفسه.
٨٦- د.يحي هاشم حسن فرغل: الإسلام والاتجاهات العلمية المعاصرة ص٨٩، ٩٠ بتصرف.
٨٧- السابق: ص٩٠، ٩١ بتصرف.
٨٨- هنرى بوانكاريه (١٨٥٤-١٩١٢م) من رجال المدرسة الفلسفية فى فرنسا من مؤلفاته "العلم والفرض"، و"قيمة العلم"، و"العلم والمنهج"، و"خواطر أخيرة".
انظر: تاريخ الفلسفة الحديثه: يوسف كرم ص٤٣٧.
٨٩- لماذا أنا ملحد؟ ص٧.
٩٠- السابق: ص١٠.
٩١- قالها هكذا: من باب الرجم، ولم يتم الإضافة كما وردت فى القرآن الكريم "رجما بالغيب"سورة الكهف: الآية ٢٢؛ لأن الكلمة وقفت فى حلقه فلم يستطع النطق بها؛ لعدم إيمانه بالغيب!!.

٩٢- لماذا أنا ملحد؟ ص٧، ٨ ، وللمصادفة أنواع منها: المصادفة المطلقة والمصادفة النسبية، فالمطلقة أن يوجد شئ بدون سبب إطلاقا، والنسبية تعبر عن غياب القصد المدبر، والمصادفة المطلقه مستحيلة، لأنها تتعارض مع مبدأ النسبية، والنسبية ليست كذلك... انظر: مفهوم الاحتمال فى فلسفة العلم المعاصرة د.حسين على ص١٦٤.

٩٣- لعبة الطاولة: زهر النرد، انظر: المعجم الوجيز إصدار مجمع اللغة العربية.

٩٤- سورة غافر: الآية ٣٥.

٩٥- الشيخ نديم الجسر: قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم و القرآن ص٢٩٤.

٩٦- سورة الكهف: الآية ١٠٩.

٩٧- سورة لقمان: الآية ٢٧.

٩٨- قصة الإيمان ... ص٢٩٤، ٢٩٥، ٢٩٦ بتصرف.

٩٩- كان ذلك سابقا على اكتشاف بعض العناصر الأخرى.

١٠٠-سعيد حوى: الله جل جلاله ص٢٤.

١٠١-وهذا ما أقر به الملحد إسماعيل أدهم، ولكنه لم يرتب على إقراره شيئا إيجابيا، أو أمراً إيمانياً!!.

١٠٢-وحيد الدين خان: الإسلام يتحدى ص١٠٢، ١٠٣.

١٠٣-السابق: ص٩٩.

١٠٤-نفسه: ص١٠٨.

١٠٥-الإسلام فى مواجهة الأيديولوجيات المعاصرة ص٣٢٧، ٣٢٨.

١٠٦-د.موريس بوكاى: أصل الإنسان بين العلم و الكتب السماوية ص٥٦ ترجمة فوزى شعبان.

١٠٧-شمس الدين آق بلوت: دارون ونظرية التطور ص٤٦، ٤٧ ترجمة أورخان محمد على.

١٠٨-السابق: ص١٦، ١٧.

١٠٩-لماذا أنا ملحد؟ ص٩.

١١٠-السابق: ص١٠.

١١١-سورة الروم: الآية ٤.

١١٢-انظر الدراسة القيمة التى أعدها أستاذنا الدكتور يحي هاشم حسن فرغل تحت عنوان:فى مواجهة الإلحاد المعاصر وعقائد العلم.

١١٣-د.أحمد محمد الطيب: بحوث فى الثقافة الإسلامية ص٢٤٨.

١١٤-السابق: ص٢٤٩، ٢٥٠، ٢٥١.

١١٥-انظر على سبيل المثال: العلم يدعو إلى الإيمان تأليف كريسى موريسون ص٥١

الله تأليف عباس محمود العقاد ص١٧٧ .

الإسلام يتحدى تأليف وحيد الدين خان ص١٠٧.

الإسلام فى مواجهة الأيديولوجيات المعاصرة

تأليف د.عبد العظيم المطعنى ص٣٦٦.

الشهادتان: التوحيد و النبوة تأليف الشيخ محمد الغزالى ص٩.

قضايا العصر فى ضوء الإسلام تأليف أنور الجندى ص٤٣.

دحض شبهات ومفتريات حول الإسلام تأليف عبد المنصف محمود عبد الفتاح ص١٩ ص٢٦.

١١٦-الإسلام يتحدى ص١٠٨، ١٠٩.

الخاتمـــــــــــة

بعد هذه الرحلة المرهقة مع تجربة الملحد إسماعيل أدهم وجـدت نفسـى مضطراً لمناقشة بعض الأفكار الشائكة فى هذه الخاتمة؛ مستعيضا بـذلك عـن الخواتيم التقليدية التى يقوم فيها الباحثون بإبراز أهم نتائج بحوثهم، وتوصـياتهم التى يرون ضرورتها فى نهايات هذه البحوث، وقد كان من الميسور أن أحـذو حذوهم، و أنجو بنفسى من عواقب هذه المسائل الحساسة، ولكنـى وجـدت أن الخوض فيها – ولو بإيجاز– يعد من باب النصيحة لدينى، والمرجو من القارئ العزيز أن يصبر معنا –أو علينا– حتى نهاية المطاف، وله من الله تعالى الأجر و المثوبة، ومنا دعاء صادق، وعرفان بالجميل.

خطورة الإلحاد:

أود في البداية بأن أذكر القراء الكرام بأنه لولا قيام نفر من بنـى وطننـا ببعث الجيفة من قبرها،وطبع كراسته ونشرها ما كان لنا أن نعيـد ذكـراه فـى الناس؛ وذلك لفساد فكره، وخطورة رأيه، وشؤم أثره على عقائد المؤمنين، ولكننا بإزاء إعادة نشر كراسته "لماذا أنا ملحد؟"، والترويج لها، وحدوث ذلك بالتزامن مع إعادة طبع كتاب من تاريخ الإلحاد فى الإسلام للدكتور عبد الرحمن بدوى[1] وسواء أكان ذلك بقصد أم بغير قصد كان لزاما علينا أن نتصدى لهذه الموجـة المارقة لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً.

وفى هذا السياق أود التذكير بالنهاية التى آل إليها مصير إسماعيل أدهـم وهى الانتحار، فلو كان صادقا فى زعمه بأن قلبه مطمئن بإلحاده ما كانت هـذه نهايته، إلا أن شأنه فى هذا شأن غيره من الملحدين الذين كانوا "يحتاجون إلـى العلاج النفسى حتى تزول عنهم أعراض المرض؛ وبهذا سوف يعـودون إلـى طريق العلم والدين والفلسفة إلى (الإيمان بوجود الله تعالى).

فكل ما عند هؤلاء وساوس، وأمراض نفسية، وشياطين تصدهم دائما عن سبيل الحق، وتهيئ لهم أنهم على الحق.

وقد عبر القرآن الكريم عن الحالة النفسية التى يعيشها الملحدون، حالة الضيق والخوف والقلق فيقول ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾[٢]، وهكذا عبرت هذه الآية الكريمة عن الحالة التى يعيشها الملحد، وهى حالة القلق الرهيب الذى يؤرقه دائما ويخيفه رغم نجاحه المادى، ووصوله إلى أرقى أساليب التكنولوجيا الحديثة، وهذا ما أيده الواقع العملى، فقد ثبت أن أعلى نسبة للانتحار و الجنون هى فى أكثر دول العالم تقدما من الناحية المادية[٣]".

وقد نبه الباحثون والدارسون لعلوم العقيدة، ومقارنة الأديان على خطورة الإلحاد والملحدين على عقائد الناس، وأجمعوا على وجوب التصدى لهم، وضرورة مواجهتهم وردعهم درءا للفتن، وذودا عن عقائد المؤمنين، وتخليصا للمجتمعات من مفاسدهم وأخطارهم،ونكتفى فى هذه الفقرة بالاستشهاد بوجهة نظر العلاّمة جمال الدين الأفغانى الذى يتحدث عن عقيدتيْ: الإيمان بالله واليوم الآخر، ويرى "أن أول تعاليم الدهريين[٤] إبطال هذين الاعتقادين "الاعتقاد بالله، والاعتقاد بالحياة الأبدية"، وهما أساس كل دين، وآخر تعاليمهم الإباحة والاشتراك، فهؤلاء القوم هم الساعون فى نسف بناء الإنسانية، وتذريته فى ذيول السافيات يطلبون ضعضعة أركان المدنية، وفساد الأخلاق البشرية، ويقوضون بذلك ما رفعه العلم وشادته المعرفة فيهلكون الأمم بإطفاء حرارة الغيرة،وإخماد ريح الحمية.

هؤلاء جراثيم اللؤم والخيانة، وأرومات الرذالة والدناءة، وأحلاس الخسة والنذالة، وأعلام الكذب و الافتراء، ودعاة الحيوانية العجماء، محبتهم كيد، وصحبتهم صيد، وتوددهم مكر، ومواصلتهم غدر، وصداقتهم خيانة [٥]...".

ويسترسل الأفغاني في بيان أخطارهم على المجتمعات البشرية، ويطالب إبعادهم واستئصال تعاليمهم، وفي ذلك يقول: "ولما كان نظام الأكوان قد بني على أساس الحكمة، ونظام العالم الإنساني جزء من النظام الكوني ألهم الله نفوس البشر أن تفزغ إلى مقاومة أولئك المفسدين "الدهريين" في أي زمان ظهروا ومدافعة ما يعرض من شرهم "كما ألهمهم الفزع من الحيوانات المفترسة، والنفرة من الأغذية السامة "، وأنهض حفاظ النظام المدني الحقيقي وهو الدين لبذل الجهد وإفراغ الوسع في محو آثارهم ، واستئصال ما يغرسون من تعاليمهم.

لا جرم أن مزاج الإنسان الكبير "يعني عموم النوع" بما أودع الله فيه من الشعور الفطري، وهو أثر الحكمة الإلهية العامة يمج أولئك الخونة، ولا يحتمل وجودهم في باطنه.

فيدفعهم كما تدفع الفضلات من المعدة، أو الذنانة [٦]من المنخر، أو النخامة[٧]من الصدر؛ لهذا نراهم وإن حلوّا بعض منازل الأرض من زمان بعيد، وأيدهم بعض النفوس الخبيثة من ذوي الشوكة لأغراض سافلة إلا أنهم لم يثبتوا،ولم يتم لهم أمر، بل كان عارض السوء منهم كسحاب الصيف كلما ظهر تقشع، والنظام الحقيقي لنوع الإنسان، وهو الدين لم يزل قارّاً راسخا في جميع الأجيال، وعلى أي الأحوال[٨]".

وما عبر به الأفغاني عما ينبغي أن يعامل به هؤلاء الملحدون سنزيده إيضاحا في الفقرة القادمة، ولكن الذي استرعى النظر من رؤيته لهم هو وجود أشباه لهم ونظراء في المجتمع من:علمانيين، وبهائيين، وشيوعيين وغيرهم، يجمعهم قاسم مشترك واحد وهو العداء للدين؛ أي دين.

وإن تعجب فعجب قيام إحدى جرائد المعارضة بالاحتفال هذا الأسبوع بذكرى مرور تسعين عاما على الثورة الحمراء في أكتوبر ١٩١٧م بروسيا بإصدار ملف خاص تمجد فيه هذه الثورة ورجالها[٩]، وقد رأينا على صفحات هذا الكتاب استحالة الجمع بين الشيوعية وبين الأديان وخصوصا الإسلام عندما كنا نتحدث عن الخلفية الثقافية للملحد إسماعيل أدهم، والآن نقول تعليقا على هذا

الصنيع السفيه لهؤلاء النفر المفتونين الذين غرتهم الأماني، فباتوا يحتفلون بذكرى ثورة لم يكن لها نصيب من النجاح.

إن الأنظمة الشيوعية انهارت وتفككت فى بلادها، واعترف أصحابها بفشلها، ويأتى من أتباعها لدينا من يحتفل بذكراها غافلا أو متغافلا عما صنعته بالمتدينين سواء أكانوا مسلمين أم نصارى فى البلاد التى حكمتها الأنظمة الشيوعية الكافرة، جاهلا أو متجاهلا الفصام الأبدى بين الشيوعية وبين الدين، و ما أصدق ما قاله الدكتور عبد المنعم النمر: "الشيوعية أخطر أنواع الغزو الثقافى أو الفكرى وقد ابتلينا هنا بهذا الغزو،ووجدنا من الماركسيين هنا انفصالا تاما عن مجتمعهم فى دينه وأمانيه، ومصالحه الوطنية والقومية، حتى صاروا يمثلون فى الداخل جزيرة منعزلة عمن حولهم، وإن تكلموا لغتهم وعاشوا بينهم، وتمتعوا بخيرات وطنهم....

إن الشيوعيين فى أية دولة خطر على كيانها الداخلى؛ لأنهم لا يستوحون مبادئها ولا تقاليدها بقدر ما يستوحون اتجاهات روسيا أو الصين[١٠]".

إن المصريين مطالبون بالوعى والحذر من هذه التيارات الهدامة، والأحزاب المشبوهة التى تريد إعادة بعث الكفر بفجور ووقاحة بالتلبيس على الناس بنشر الجوانب البراقة –من وجهة نظرهم– لهذه الثورة الحمراء دون التنبيه إلى موقفها المعادى للدين حيث "لم يختلف اثنان فى أن الإلحاد جزء من الشيوعية، كما لم يختلف اثنان فى أن الشيوعية ترفض رفضا باتا أى تنظيم دينى للمجتمع الإنسانى. وإنكار الشيوعية للدين يكبر ويصغر بمقدار تدخل الدين فى المجتمع.

. فإذا كان الدين يكتفى مثلا بالجانب التعبدى والأخلاقى فإن الشيوعية – مع كفرها به– تراه عدواً محدود الخطر.

أما إذا تدخل فى المعاملات العامة و الخاصة واستكثر من الشرائع التى تضبط المجتمع على نحو معين، وتسوقه إلى وجهة بينة فإن العداوة هنا تمتد وتشتد.

لذلك لا تطيق الشيوعية الإسلام لأنه مع شبهه للأديان الأخرى في الاعتراف بالألوهية واحترام الوحي يمتاز بهيمنته على أزّمة الحياة النفسية والاجتماعية، ومزجه التام بين أحوال القلب وأحوال الدولة(١١)".

وكم يتمنى الباحث من كل قلبه أن ينظر المجتمع المصري للمتطاولين على دينه، المجاهرين بالولاء لغيره تلك النظرة اللاذعة التي ووجه بها الدهريون في حديث الأفغاني، أو كما يقول الشيخ محمد الغزالي: "ينبغي أن يماط اللثام عن وجوههم الكالحة، وأن تلقى الأضواء على وظيفتهم التي يسرها الاستعمار لهم، ووقف بعيدا يرقب نتائجها المرة(١٢)".

<u>حكم الردة في الفقه الإسلامي:</u>

إسماعيل أدهم مرتد وليس في ذلك شك باعترافه هو بخط يده، وقد صودرت رسالته عن "مصادر التاريخ الإسلامي"، عند نشرها في عام ١٩٣٦م؛ وذلك لجرأته وتطاوله على السنة النبوية المطهرة كما رأينا على صفحات هذا الكتاب، وإننا نستغرب – أولاً– لأن جرأته تحولت إلى وقاحة وفجور فانتقل من الهجوم على الحديث إلى الهجوم على مقام الألوهية بإعلان إلحاده، وإنكار وجود الله عز وجل في رسالته: "لماذا أنا ملحد؟"، ونشرها بعد عام واحد من نشر الرسالة المصادرة.

وما يزال ترك هذا الملحد حراً طليقا في ذلك التوقيت دون إحالته إلى القضاء يشكل لغزاً محيرا يستعصي على الحل، وذلك بالمقارنة مع إحالة من هم أقل جرما منه إلى القضاء كالدكتور طه حسين بسبب آرائه في كتابه "في الشعر الجاهلي"، والشيخ علي عبد الرازق بسبب آرائه في كتابه "الإسلام وأصول الحكم".

وإننا نستغرب–ثانيا–من هذا الحراك الفكري الذي سببه نشر هذه الرسالة الحقيرة، فيما بين أخذ ورد مع كبار مثقفي عصره مثل: أحمد زكي أبو شادي ومحمد فريد وجدي.

وإننا نستغرب –ثالثا– من تباهى بعض مثقفى عصرنا هذا بمناخ الحرية الذى كان سائدا فى ذلك الزمن الغابر، وتباكيهم على فقدانه فى هذه الأيام حيث حرية الإبداع –فى زعمهم– مقيدة، ﴿ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴾[١٣].

وإننا نستغرب –أخيرا–من إعادة نشر هذه الكراسة الإلحادية فى منتصف هذا العام، فماذا يريد المروجون للكفر، المرجفون فى المدينة، المثيرون للفتنة، المفسدون فى الأرض؟.

وكم كنا نتمنى لو أن الشريعة الإسلامية كانت قد وجدت طريقها فى هذا التوقيت–وخصوصا فى جانب الحدود– للتطبيق إذن لنال جزاءه العادل جراء ردته عن الإسلام.

وحد الردة من القضايا التى يدندن حوله العلمانيون، وتتغنى برفضه والتشكيك فيه منظمات المجتمع المدنى، وجمعيات حقوق الإنسان فى الداخل والخارج، ولسنا بحاجة إلى إيراد ما جاء فى الفقه الإسلامى حوله بقدر حاجتنا إلى ذكر آراء العلماء المعاصرين فيه، والتى انتهت فى طرحها لأمر واحد–على غير اتفاق فيما بينهم–، وهو: ضرورة إقامة الحد على المرتد إذا استعلن بكفره، وجاهر به، ودعا إليه بما يشكل خطورة على المجتمع وعلى أمنه وسلامته.

وقد نبه الشيخ محمد الغزالى إلى هذه الخطورة بقوله: "ونحن ما فى طاقتنا أن نمنع الارتداد،فليذهب إلى الجحيم من أراد[١٤].

لكن الذى فى طوقنا أن نذكره، وأن نكرره أن هؤلاء المرتدين يبغون فساد جمهور الأمة بالقوة، فهم يستغلون السلطات التى سرقوها لنشر الإلحاد والانحلال، وتفريغ القلوب مما بها من إيمان بالله وطاعة له[١٥]"

وفى معالجة دقيقة يفرق الدكتور محمد عمارة بين الملحد الذى ستر إلحاده، وبين الذى جعله فكراً ورسالة، وذلك فى قوله: "الشاك نتيجة للتأمل والنظر إذا قاده هذا الشك إلى الإلحاد بدلا من الإيمان لا تثريب عليه إسلاميا إن

هو لم يقصر في طلب الهداية والرشاد طالما أنه قد ستر "عورة الإلحاد" كـــى لا تشيع فاحشتها فى مجتمع المؤمنين.

أما إذا كان الإلحاد فكراً ورسالة يدعو إليها الملحدون ويشيعونها بين الناس فتلك قضية أخرى تتجاوز نطاق "حرية الاعتقاد" إلى العمل على تدمير "النظـــام العام" فى المجتمع الإسلامى؛ إذ الإيمان واحد من أبرز سمات هذا النظام[١٦].."

وهؤلاء يرى الدكتور عمارة إقامة حد الردة عليهم؛ لأن ردتهم "أشبه مـــا تكون بجريمة "الحرابة" التى هى محادة لله ولرسوله ولجماعة المـــؤمنين..إنهـــا إعلان الحرب على الإيمان كنظام للاجتماع الإسلامى، تجعل من المرتدين معول هدم للنظام الإسلامى.

وليس سرا ولا هو مما تخفى دلالته عند الفقهاء الذين قرروا للردة حداً – هو القتل بعد الاستتابة– قد استندوا إلى الحديث النبوى لا إلى القرآن الكريم، وأن الحديث الذى استندوا إليه لا يدع مجالا للشك فى أن هذا هو معنى الـــردة التـــى تستحق هذا العقاب؛ لأنها إعلان وإشاعة للفاحشة، ومحاربة للأمـــة، والتحـــاق بمعسكر العدو فى ظل ملابسات الصراع ومخاطره، ففيهـــا مفارقـــة للجماعـــة المؤمنة، ودعم لمعسكر الأعداء. ففيما رواه الإمام أحمد بسنده عن عبد الله بـــن عمر قال: قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "والذى لا إله غيـــره لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله إلا بإحـــدى ثـــلاث: الثيب الزانى، والنفس بالنفس، و التارك لدينه المفارق للجماعة." [١٧]

وهذا هو نفس طرح أستاذنا الدكتور محمود زقزوق الذى يرى "أن لكـــل إنسان الحق فى أن تكون له آراؤه الخاصة حتى لو كان ما يعتقده فى نفسه أفكاراً إلحادية؛ ولهذا فإنه لا يجوز العدوان على إنسان أو إيذاؤه بسبب آرائـــه، ولســـنا مأمورين بأن نفتش فى صدور الناس عن معتقداتهم الدينية.

كما أن هذه الحماية العامة لحرية الرأى والعقيدة تقوم طالما احتفظ الفـــرد برأيه لنفسه، أما إذا أراد أن ينشر على الملأ بأية وسيلة من وسائل النشـــر آراءه الخاطئة التى تناقض معتقدات وأخلاقيات مواطنيه فإنه فى هذه اللحظـــة يخـــرج

على النظام العام للدولة التي يعيش فيها؛ لأن آراءه الخاطئة يمكن أن تنشر الشك بين مواطنيه مما قد يؤدى إلى إحداث بلبلة وإثارة فتنة، وكل من يسلك هذا المسلك فى أى مكان فى العالم يعاقب بل قد توجه إليه تهمة الخيانة العظمى؛ لا لأنه ارتد عن عقيدته، وإنما لأنه يثير فتنة فى المجتمع نتيجة نشر أفكاره، ولأنه يخرج بذلك على النظام العام فى الدولة[18]".

وذلك الذى حذر منه الدكتور محمد عمارة والدكتور محمود زقزوق صنعه إسماعيل أدهم بنشر إلحاده على الملأ فى عام ١٩٣٧م، وهو ما يعيده مسوخ هذا الزمان بإعادة نشر كفره فى هذا العام (٢٠٠٧م)، وكأنهم يحتفلون بمرور ستين عاما على نشرها الأول مثلما احتفلوا بالذكرى التسعين للثورة الحمراء فى أكتوبر ٢٠٠٧م.

واللافت للنظر في سياقنا هذا أن الدكتور محمود زقزوق وهو أحد رواد الحوار الحضارى الكبار، وأحد أكثر علماء الإسلام اعتدالا ووسطية تعرض لحملة ألمانية فى هذه الأيام تتهمه بتقويض الحريات الدينية، فقد "شنت الجمعية الدولية لحقوق الإنسان فى فرانكفورت حملة عليه اتهمته فيها على لسان رئيسها كارل هافن بالدعوة فى كتاباته وتصريحاته لوسائل الإعلام إلى معاقبة من يعتنق المسيحية من المسلمين بالإعدام مثلما حدث فى قضية المواطن محمد أحمد حجازى"[19].

وقد نفى الدكتور زقزوق التهمة وجهر بالحق فى بلادهم ولم يخف فى الله لومة لائم، فقال فى حديثه لمجلة أوسنا بروكر الألمانية: "إن كل مواطن فى مصر له حق فى اعتناق الديانة التى يرغبها؛ لأنه لا إكراه فى الدين بشرط أن لا يدعو الآخرين للحذو به، ويتسبب فى إثارة القلاقل الدينية و السياسية فى البلاد، ففى هذه الحالة يجب معاقبته وتقديمه للمحاكمة"[20].

ولا أريد مغادرة هذه الفقرة قبل أن أجهر برأيى فيها، والذى يتلخص فى أن مصر -الآن- مستهدفة، وأن كثيراً من الدول تتربص بها الدوائر، ولن يهدأ لها بال إلا إذا ركعت مصر أو انهارت، أو ثارت بين مواطنيها الإحن و العداوات،

وليس أدل على ذلك من المؤتمر المشبوه لمناصرة أقباط الداخل الذى عقده أقباط المهجر فى شيكاجو يومى ١٩، ٢٠ أكتوبر الحالى (٢٠٠٧م)،ولذلك أناشد كبار رجال الدولة، وأتوسل إلى علماء الدين المسلمين من المسؤلين عن المؤسسات الدينية الرسمية مثل: الجامع الأزهر،وجامعة الأزهر، ووزارة الأوقاف، ودار الإفتاء المصرية برد من أراد الدخول في الإسلام إلى قومه أسوة بما عاهد الرسول صلى الله عليه وسلم عليه قريشاً فى صلح الحديبية، وفى مقابل ذلك أرجو من رجال الدين النصارى المسؤلين عن المؤسسة الدينية الرسمية برفض الاعتراف بتحول المسلم عن دينه، وعلى كل من أراد من إخواننا الأقباط اعتناق الإسلام أن يقوم بذلك سراً ، ويكتم إيمانه، ويمارس شعائر دينه فى خفية واستتار، وعلى كل من أراد من المسلمين ترك دينه أن لا يجاهر بذلك، وعلى وسائل الإعلام المختلفة أن تتقى الله تعالى فى رسالتها، وأن ترعى حق مصر التى تحاصرها الفتن كقطع الليل المظلم، والتى ﴿ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴾[٢١].

<u>وجود الله عز وجل:</u>

قبل أن أتحدث عن هذه القضية المحورية أحيل القارئ الكريم إلى بحثين موجزين تناول كل منهما هذه القضية بالدرس والتحليل، وهما: أدلة وجود الله تعالى في ضوء العقل والنقل [٢٢]لأستاذنا الدكتور محمد على عز العرب السماحي، والثاني: اهتمام الخطاب القرآني بقوى الإدراك الإنسانى وأثره فى الفكر الإسلامى[٢٣] لكاتب هذه السطور فضلا عن كتاب الدكتور محمد عبد التواب الذى أشرنا إليه فيما سبق، وهو: "وجود الله تعالى بين الفطرة والدليل".

إن قضية الألوهية، أو الإيمان بقوة عظمى، أو مسبب الأسباب قد شغلت الجنس البشرى منذ فجر التاريخ حتى وقت الناس هذا فمن الناس من تداركته رحمة الله عز وجل بإرسال الرسل وإنزال الكتب، ومنهم من لم ينل هذا الحظ الأوفى، وهؤلاء منهم من آمن ومنهم من كفر؛ بل إن الأقوام الذين خوطبوا

بكلمات الوحي عن طريق الرسل لم يدخلوا في الدين دخولا جماعيا حيث خضعوا لقانون حرية الاعتقاد الذي تلخصه الآية الكريمة ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾[٢٤] أروع تلخيص.

وفي هذا السياق نستشهد بوجهتي نظر تحدثت كلتاهما عن المقصد الأول في حديث الدين للمخاطبين، وهو الدعوة لتوحيد الله عز وجل ونفي الشريك.

فوجهة النظر الأولى صاحبها من القدامى وهو الإمام الشهرستاني الذي يقول عن معرفة الله عز وجل: "فما عددت هذه المسألة من النظريات التي يقام عليها برهان؛ فإن الفطر السليمة الإنسانية شهدت بضرورة فطرتها، وبديهة فكرتها على صانع حكيم عالم قدير...؛ولهذا لم يرد التكليف بمعرفة وجود الصانع، وإنما ورد بمعرفة التوحيد ونفي الشريك[٢٥]".

ووجهة النظر الثانية معاصرة وهي للشيخ محمد الغزالي تمزج بين الإقرار بوجود الله عز وجل والاعتراف بوحدانيته نلتقط منها هذه السطور: "إن الطفل الذي يودع في أحد الملاجئ قد يفكر في أبيه عندما يكبر، وقد يبحث عنه،ولكن لا يجري في خاطره أبدا أنه جاء الدنيا من عدم، أو ظهر على الأرض من غير أب والبشرية في أغلب العصور بحثت عن ربها وفكرت فيه وربما أخطأت الطريق إليه، فقد تعبد اسما لا حقيقة له، وقد تعبد حجرا موهوم النفع والضر،وقد تعبد عجلا، أو تقدس بقرة، أو تؤله نهرا، وقد يجئ من يرفض هذه الآلهة المزعومة كلها وينكر أن يكون للوجود سيدا!!.

إن قضية الألوهية في التاريخ الإنساني يكتنفها قدر من الغموض، وجمهرة الأمم رنت إلى إله كبير، ثم رمزت إليه أو تعرفت عليه عن طريق التماثيل، أو الكائنات التي تنتمي إليه على نحو ما، ويخيل إلى أن رفض عقيدة الألوهية من الأساس لم ينجم إلا بعد شيوع التدين الخرافي، ورفض العقل السجود لحجر أو حيوان أو إنسان.

وكان هذا الرفض المطلق يقع على ندرة ثم شاع فى عصرنا الحديث مع التقدم العلمى وانتشار تدين مغشوش، وخيانة المسلمين لرسالتهم فما بلغوها ولا أنصفوها...

إن الفرار من الحقائق ليس ذكاء ولا شرفا، وإذا كان بعض الملحدين يحسب نفسه مفكرا فليعلم واقعه المر، إنه امرؤ معتل الفكر، مصاب بداء عقلى منفر لا يقل عن الجذام، بل ربما كان المجذوم أشرف خلقا وأصح فكراً.

إن منهج القرآن الكريم هو الجمع فى سياق واحد بين دلائل الوجود الأعلى وأدلة الوحدانية المطلقة[٢٦]".

ويتحدث العلماء المعاصرون عن الجمال الكونى بلغة شاعرية تدلنا على وجود الله عز وجل، وذلك فى قولهم: "والبشر يلحظون يد الله فى ندفة الثلج، وفى غروب الشمس،وفى حقل الأعشاب، وعظمة الجمال وجلاله يحملان توقيع الله الذى لا شبهة فيه.

إياك أن تفوت أية فرصة لمشاهدة أى شئ جميل لأن الجمال خط بيد الله، إنها صلاة تقام على جانب الطريق، رحب بالجمال فى كل وجه حسن، وفى كل سماء صافية، وفى كل زهرة جميلة، واشكر الله على ذلك.

وهكذا نجد أن أصل الكون وبنيته وجماله تفضى جميعا إلى النتيجة نفسها وهى أن الله موجود[٢٧]". وللشيخ سيد قطب كلمات جميلة فى هذا السياق يقول فيها: "وهذا الوجود بتناسقه وانسياب حركته يمثل صنعة الله من اليسر والانسياب الذى لا تصادم فيه ولا احتكاك.

ملايين الملايين من الأجرام تسبح فى فضاء الله وتتساب فى مداراتها متناسقة متجاذبة لا تصطدم ولا تضطرب ولا تميد .

وملايين الملايين من الخلائق الحية تجرى بها الحياة إلى غاياتها القريبة والبعيدة فى انتظام وفى إحكام وكل منها ميسر لما خلق له، سائر فى طريقه إلى غاية.

وملايين الملايين من الحركات والأحداث والأحوال تتجمع وتتفرق وهى ماضية فى طريقها كنغمات الفرقة العازفة بشتى الآلات لتجتمع كلها فى لحن واحد طويل مديد[٢٨]".

وللشيخ محمد متولى الشعراوى رؤية جميلة فى هذا السياق حيث يرى أن الإيمان بالله تعالى ضرورة لغوية، وفى ذلك يقول: "من أين دخل لفظ "الله" على لغة الناس؟، أو من أين دخل اللفظ المقابل للفظ "الله" فى سائر لغات الناس؟

ما دامت الأمور العدمية لا تصل إلى مرتبة أن توجد لها الألفاظ ومادامت الألفاظ لا تسبق المعاني، إذن فوجود تلك الألفاظ فى لغات الناس يدل قطعا على أن معانيها سبقت وجود اللغة، وأن المعنى الإيمانى فى وجود الله أمر سابق على أن يكون لنا لغة...

إذن الألفاظ اللغوية تدل على أن معنى لفظ "الله" ودلالته على واجب الوجود سابق على وجود هذه اللغة؛ وذلك يصحح مفاهيم الناس الذين بحثوا فى مقارنات الأديان؛ لأن الأصل أن الناس حينما خلقوا أمدوا بالمنهج من الله مباشرة، ثم طرأت عليهم الغفلة، ثم طرأت بعد الغفلة تأثيرات البيئة، فطرأ الكفر على ما كانوا يعلمون[٢٩]".

ونختم هذه الفقرة بهذه المناجاة الرائعة لابن عطاء الله السكندرى، وهو يخاطب رب العزة عز وجل قائلا: " إلهى! كيف يستدل عليك بما هو فى وجوده مفتقر إليك؟

أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك؟
متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك؟
ومتى بعدت حتى تكون الآثار هى التى توصل إليك؟
كيف يتصور أن يحجبه شئ وهو الذى أظهر كل شئ؟
كيف يتصور أن يحجبه شئ وهو الظاهر قبل وجود كل شئ؟
كيف يتصور أن يحجبه شئ وهو أظهر من كل شئ؟
كيف يتصور أن يحجبه شئ وهو أقرب إليك من كل شئ؟

كيف يتصور أن يحجبه شئ ولولاه ما كان وجود شئ؟

شتان بين من يستدل به أو يستدل عليه.

المستدل به عرف الحق لأصله فأثبت الأمر من وجود أصله.

والاستدلال عليه من عدم الوصول إليه.

وإلا فمتى غاب حتى يستدل عليه؟

ومتى بعد حتى تكون الآثار هى التى توصل إليه؟ (٣٠)"

رضينا بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم نبيا ورسولا.

﴿ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

سورة يونس الآية ١٠

هوامش الخاتمة

١- نشر دار الشعاع/القاهرة/الطبعة الثالثة ٢٠٠٧م.

٢- سورة الأنعام: الآية ١٢٥.

٣- د.سعد الدين السيد صالح: العقيدة الإسلامية فى ضوء العلم الحديث ص٨٥، ٨٦.

٤- الدهرى: رجل دهرى: ملحد لا يؤمن بالآخرة يقول ببقاء الدهر.

انظر: المعجم الوجيز – إصدار مجمع اللغة العربية

" الدهريون: وهم طائفة من الأقدمين،جحدوا الصانع المدبر، العالم القادر، وزعموا أن العالم لم يزل موجودا كذلك بنفسه، وبلا صانع،ولم يزل الحيوان من النطفة، والنطفة من الحيوان، كذلك كان، وكذلك يكون أبدا، وهؤلاء هم الزنادقة"

انظر: المنقذ من الضلال للإمام أبى حامد الغزالى ص٣٤٢-٣٤٦ تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود.

٥- جمال الدين الأفغانى: الرد على الدهريين ص٩١ ترجمة الإمام محمد عبده.

٦- الذنانة: المخاط يسيل من الأنف (انظر: المعجم الوجيز).

٧- النخامة: البلغم يلفظه الإنسان من حلقه (انظر: المعجم الوجيز).

٨- الرد على الدهريين ص٩٣، يصنف أحد الدارسين كتاب الأفغانى باعتباره (أول ردود الفعل فى القرن التاسع عشر تجاه الجانب الميتافيزيقى لفلسفة العلم الوافدة حيث يفرق الأفغانى بداية بين الإلهيين والماديين القائلين بالأصل المادى للكون وبفكرة الكمون، ثم ينتقل الأفغانى إلى المحدثين القائلين بفكرة الكمون والقائلين بالأصل الواحد لكل الأنواع، ومنهم دارون) إلى آخر أغراض الكتاب انظر: تاريخ وفلسفة العلم فى مصر منذ القرن التاسع عشر تأليف د. أحمد عبد الجواد ص ٥٠ص٥٣

٩- جريدة الأهالى: الأربعاء ٢٤ أكتوبر٢٠٠٧م.

١٠- د.عبد المنعم النمر: الثقافة الإسلامية بين الغزو و الاستغزاء ص٢٧٦، ٢٧٧

١١- الشيخ محمد الغزالى: الإسلام فى وجه الزحف الأحمر ص١٩، ٢٠.

١٢- الشيخ محمد الغزالى: مع الله: دراسات فى الدعوة والدعاة ص٢٣٨.

١٣- سورة المنافقون: الآية ١، أما عن نفاقهم فلانطباق بعض ما ورد في الحديث الشريف عليهم، هذا الحديث الذى رواه الشيخان عن عبد الله بن عمرو عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: "أربع من كن فيه كان منافقا ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: من إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا خاصم فجر، وإذا عاهد غدر"، فالمناخ الآن فى مصر غيرمسبوق بدليل تطاول الكثيرين على الذات الإلهية، وعلى السنة النبوية، وعلى الرموز السياسية والدينية، وليس أدل على ذلك من الأحكام الصادرة ضد نفر من هؤلاء، ومازالوا يتطاولون، ومازالوا فى خوضهم يلعبون.

١٤- للدكتور محمد سليم العوّا رأى مشابه أعلنه ضمن حديث صحفى قال فيه بالحرف الواحد: "...هو اللى ها يدخل الإسلام فى نظر المسيحية هايروح النار؟

ما تسيبه يروح النار! انت خايف عليه ليه؟

وفى نظر المسلمين: المسلم اللى هايدخل المسيحية ها يروح فين؟ النار!!

ما يروح فى ستين داهية عايزين منه إيه؟!!"

جريدة الدستور: الأربعاء ١٩ سبتمبر ٢٠٠٧م.

١٥- الإسلام فى وجه الزحف الأحمر ص٥٥.

١٦- د.محمد عمارة: الغزو الفكرى: وهم أم حقيقة ص١٥٩، ١٦٠.

١٧- السابق: ص ١٦٤، ١٦٥.

١٨- د. محمود حمدى زقزوق: الإسلام وقضايا الحوار ص٢٠٦.

انظر مزيدا من الآراء الفقهية حول حد الردة فى:

- نحن والغرب تأليف الدكتور يوسف القرضاوى ص٥٧ ص٦٧.
- محاكمة المرتدين تأليف أحمد السيوفى، والكتاب كله مهم لاشتماله على الملف الكامل لشهادتى الشيخ محمد الغزالى والدكتور محمود مزروعة فى قضية فرج فودة وردود الأفعال التى فجرت قضية الردة، والأحكام الفقهية حول حد الردة.
- قراءة فى كتاب حرية الاعتقاد فى القرآن الكريم-دراسة فى إشكاليات الردة والجهاد والجزية للدكتور عبد الرحمن حللى-قراءة الدكتور حسن أحمد الخطاف. بحث منشور بمجلة الشريعة والدراسات الإسلامية /جامعة الكويت ص١٧ص١٢١.

- جريدة عقيدتي/القاهرة الثلاثاء ١٤أغسطس ٢٠٠٧م
- جريدة الدستور/القاهرة الأربعاء ٢٢ أغسطسس ٢٠٠٧م.
١٩- جريدة الأهرام/القاهرة السبت ٢٧ أكتوبر ٢٠٠٧م.
٢٠- السابق: نفسه.
٢١- سورة النجم: الآية ٥٨.
٢٢- هذا البحث منشور بحولية أصول الدين/ القاهرة العدد السابع سنة١٩٩٠م ص٣٤٣ ص٣٩٢.
٢٣- هذا البحث منشور بحولية أصول الدين/ القاهرة العدد الثانى عشر سنة ١٩٩٥م ص٢٦٩ ص٣٢٦.
٢٤- سورة البقرة: الآية ٢٥٦.
٢٥- الشهرستانى: نهاية الإقدام فى علم الكلام ص١٢٤ حرره وصححه ألفرد جيوم.
٢٦- الشيخ محمد الغزالى: مائة سؤال عن الإسلام ١/٢٠٤، ٢٠٧.
٢٧- روبرت م أغروس، وجورج ستانسيو: العلم فى منظوره الجديد ص٧٨ ترجمة د.كمال خلايلي.
٢٨- الشيخ سيد قطب: فى ظلال القرآن ٦/ ٣٨٩٢، ٣٨٩٣.
٢٩- الشيخ محمد متولى الشعراوى: الإسلام والفكر المعاصر ص١٣، ١٤.
٣٠- د.عبد الحليم محمود: الإسلام والعقل ص٩٦، ٩٧.

مراجـــع الكتـــاب

١- الاتجاهات الحديثة للمستشرقين ومن تابعهم فى تفسير القـرآن الكـريم، د.محمد بن سعيد السرجاني، بحث منشور بمجلـة الشـريعة والدراسـات الإسلامية، جامعة الكويت، العدد ٧٠ شعبان ١٤٢٨هـ- سبتمبر ٢٠٠٧م.

٢- أدلة وجود الله تعالى فى ضوء العقل والنقل، د.محمد على عـز العـرب السماحى، بحث منشور بحولية كلية أصول الدين،القاهرة، جامعة الأزهر، العدد السابع سنة ١٩٩٠م.

٣- الأزهر وحرية الفكر، د. محمد رجب البيومى، مقـال بمجلـة الأزهـر، القاهرة، الجزء الخامس، السنة الحادية والخمسون، رجب ١٣٩٩هـ، يونية ١٩٧٩م.

٤- الإسلام والاتجاهات العلمية المعاصرة، د. يحي هاشم حسن فرغل، ط. دار المعارف، القاهرة، سنة ١٩٨٤م.

٥- الإسلام السياسى بين الأصوليين والعلمانيين، د. محمـود إسـماعيل، ط. مؤسسة الشراع العربى، الكويت سنة ١٩٩٣م.

٦- الإسلام السياسى فى مصر، د. هالة مصطفى، ط. الهيئة المصرية العامـة للكتاب، القاهرة، سنة ٢٠٠٥.

٧- الإسلام والعقل، د. عبد الحليم محمود، ط. دار المعارف، القاهرة، الطبعة الرابعة، سنة ١٩٩٨م.

٨- الإسلام والفكر المعاصر، الشيخ محمد متولى الشعراوى، ملحـق لمجلـة المجاهد من إصدارات فرع الشئون الدينية، القوات المسـلحة المصـرية، القاهرة، سنة ١٩٨٣م.

٩- الإسلام وقضايا الحوار، د. محمود حمدى زقزوق، ترجمـة د. مصـطفى ماهر، ط. مكتبة الشروق الدولية، القاهر، سنة ٢٠٠٤.

١٠- إسلام الماركسيين، د. عبد المعطى بيومى، مقال بمجلة منبـر الإسـلام، القاهرة، العدد ٤، السنة ٤٦ ربيع الثانى ١٤٠٨هـ- ديسمبر ١٩٨٧م.

١١- الإسلام في مواجهة الأيديولوجيات المعاصرة، د. عبد العظيم المطعنى، ط. مكتبة وهبة، القاهرة، سنة ١٩٨٧م.
١٢- الإسلام فى وجه الزحف الأحمر، الشيخ محمد الغزالى، ط. نهضة مصر، القاهرة، سنة ٢٠٠٢م.
١٣- الإسلام يتحدى، وحيد الدين خان ترجمة ظفر الإسلام خان، ط. دار المختار الإسلامى، القاهرة، الطبعة السابعة سنة ١٩٧٧م.
١٤- الإسلاميون وتركيا العلمانية، نموذج الإمام سليمان حلمى، د. هدى درويش، ط. دار الآفاق العربية، القاهرة، سنة ١٩٩٨م.
١٥- إسماعيل أدهم ذلك المغرور المنتحر، د. إبراهيم عوض، مقال منشور بموقع: http:// al-shaab.org
١٦- أصل الإنسان بين العلم والكتب السماوية، د. موريس بوكاى، ترجمة فوزى شعبان، ط.المكتبة العلمية (بدون بيانات).
١٧- الإعلام بمناقب الإسلام، أبو الحسن محمد بن يوسف العامرى ٣٨١هـ، تحقيق ودراسة د.أحمد عبد الحميد غراب، ط. دار الكاتب العربى للطباعة والنشر، القاهرة، سنة ١٩٦٧م.
١٨- الأعلام، خير الدين الزركلى، ط. دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الخامسة عشرة، سنة ٢٠٠٢م.
١٩- إفلاس الفكر الماركسي، د. محمد عبد الفضيل القوصي، ط.دار الطباعة المحمدية، القاهرة، سنة ١٩٨٢م.
٢٠- أكذوبة اليسار الإسلامى، د. مصطفى محمود، ط. دار المعارف القاهرة، سنة ١٩٧٨
٢١- الإلحاد أسباب هذه الظاهرة وطرق علاجها، عبد الرحمن عبد الخالق، ط. الرئاسة العامة لإدارات البحوث والإفتاء والدعوة والإرشاد، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤٠٤هـ.
٢٢- الله جل جلاله، سعيد حوى، ط. مكتبة وهبة، القاهرة، (بدون تاريخ).

٢٣- الله، عباس محمود العقاد، ط. مطابع الأهرام التجارية، القاهرة، سنة ١٩٧٢م.
٢٤- مع الله: دراسات فى الدعوة والدعاة، الشيخ محمد الغزالى، ط. دار الكتب الإسلامية، القاهرة، الطبعة السادسة سنة ١٩٨٥م.
٢٥- الإنسان فى القرآن الكريم: المبدأ والمصير، د. صلاح عبد العليم، ط. الفجر الجديد، القاهرة، سنة ١٩٨٣م.
٢٦- انتحار ملحد، سليمان الخراشى، مقال منشور بموقع: http://islamway.com
٢٧- اهتمام الخطاب القرآنى بقوى الإدراك الإنسانى وأثره فى الفكر الإسلامى، د. محمد صلاح عبده محمد، بحث منشور بحولية كلية أصول الدين، القاهرة، جامعة الأزهر، العدد الثانى عشر سنة ١٩٩٥م.
٢٨- بحوث فى الثقافة الإسلامية، د. أحمد محمد الطيب وآخرين، ط. دار الحكمة، القاهرة، سنة ١٩٩٣م.
٢٩- البهائيون فى مصر وخطورتهم على الأمن القومى، د. محمد صلاح عبده محمد، بحث منشور بمجلة كلية أصول الدين، الزقازيق، جامعة الأزهر، العدد الثامن عشر سنة ٢٠٠٦م.
٣٠- من تاريخ الإلحاد فى الإسلام، د. عبد الرحمن بدوى، ط. دار الشعاع، القاهرة، الطبعة الثالثة سنة ٢٠٠٧م.
٣١- من تاريخ الحركات الفكرية فى الإسلام، بندلى جوزى، ط. دار رؤية، القاهرة، سنة ٢٠٠٦م.
٣٢- تاريخ الفلسفة الحديثة، يوسف كرم، ط. دار المعارف، القاهرة، الطبعة السادسة، سنة ١٩٧٩م.
٣٣- تجربتى مع الماركسية، طارق حجى، ط. الاتحاد الدولى للبنوك الإسلامية، جدة- القاهرة، سنة ١٩٨٣م.
٣٤- التحليل النفسى لظاهرة الإلحاد، د. إبراهيم عبد الشافى، ط. مطبعة الحسين الإسلامية، القاهرة، سنة ١٩٩٨م.

٣٥- التنوير يواجه الإظلام، د. جابرعصفور، ط. الهيئـة المصـرية العامـة للكتاب، القاهرة، سنة ١٩٩٣م.

٣٦- الثقافة الإسلامية بين الغزو والاستغزاء، د. عبد المـنعم النمـر، ط. دار المعارف، القاهرة سنة ١٩٨٧م.

٣٧- جريدة الأهالي.

٣٨- جريدة الأهرام.

٣٩- جريدة الدستور.

٤٠- جريدة الشرق الأوسط.

٤١- جريدة عقيدتي.

٤٢- جريدة الغد.

٤٣- حرب الأكاذيب، عامر العقاد، ط.دار الشعب، القاهرة، سنة ١٩٧٧م.

٤٤- حقيقة العلمانية بين الخرافة والتخريب، د. يحي هاشم حسن فرغل، ط.دار الصابونى، القاهرة، سنة ١٩٨٩م.

٤٥- الخطر اليهودى: بروتوكولات حكماء صهيون، محمد خليفة التونسـى، ط. دار الكتاب العربى، بيروت، الطبعة الخامسة سنة ١٩٨٠م.

٤٦- دارون ونظرية التطور، شمس الدين آق بلوت، ترجمة أورخـان محمـد على، ط.دار الصحوة للنشر، القاهرة، سنة ١٩٨٦م.

٤٧- دحض شبهات ومفتريات حول الإسلام، عبد المنصف محمود عبد الفتاح، ط. مجمع البحوث الإسلامية، القاهرة، سنة ١٩٨٤م.

٤٨- ديانة مصر القديمة، أدولف إرمان، ترجمة د.عبد المنعم أبو بكر- د.محمد أنور شكرى، ط.الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، سنة ١٩٩٧م.

٤٩- الدين د.محمد عبد الله دراز، ط. مطبع السعادة، القاهرة، سنة ١٩٦٩م.

٥٠- أبو ذر الغفارى والشيوعية، د. عبد الحليم محمـود، ط. دار المعـارف، القاهرة سنة ١٩٨١م.

٥١- الرد على الدهريين، الإمام جمال الدين الأفغاني، ترجمة الإمام محمد عبده، ط.السلام العالمية للطبع والنشر القاهرة، سنة ١٩٨٣م.
٥٢- سقوط الحلم الشيوعي، عبد الستار الطويلة، ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، سنة ٢٠٠٦م.
٥٣- الشهادتان: التوحيد والنبوة، الشيخ محمد الغزالي، ط. المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، سنة ١٩٦١م.
٥٤- الصراط المستقيم، د. محمد رجب البيومي، ط. مجمع مطابع الأزهر الشريف، القاهرة، سنة ٢٠٠٦م.
٥٥- طه حسين في قفص الاتهام، رجاء النقاش، مقال منشور بمجلة الهلال، القاهرة مايو ١٩٧٧م.
٥٦- في ظلال القرآن، الشيخ سيد قطب، ط. دار الشروق، القاهرة، الطبعة الخامسة، سنة ١٩٧٧م.
٥٧- العقيدة الإسلامية في ضوء العلم الحديث، د.سعد الدين السيد صالح، ط. دار الصفا، القاهرة، الطبعة الثانية، سنة١٩٩١م.
٥٨- علم الأحياء و الأيديولوجية والطبيعة البشرية، ستيفن روز، ترجمة د.محمد مصطفى فهمي، ط. عالم المعرفة، الكويت، العدد ١٤٨ أبريل ١٩٩٠م.
٥٩- العلم في منظور الجديد، روبرت أغروس وجورج ستانسيو، ترجمة كمال خلايلي، ط. عالم المعرفة الكويت، العدد ١٣٤ فبراير ١٩٨٩م .
٦٠- العلم يدعو إلى الإيمان، كريسي موريسون، ترجمة محمود صالح الفلكي، ط.مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، الطبعة السابعة، سنة ١٩٧٨م.
٦١- العودة إلى الإيمان، هنري لنك، ترجمة د. ثروت عكاشة. ط.الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة سنة ١٩٩٦م.
٦٢- الغزو الفكري وهم أم حقيقة، د. محمد عمارة ط. روزا اليوسف، القاهرة، سنة ١٩٨٨م.

٦٣- فجر الضمير، جيمس هنرى برستيد، ترجمة د. سليم حسن، ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، سنة ١٩٩٩م.

٦٤- على الفكر الإسلامى أن يتحرر من سارتر وفرويد ودوركايم، أنور الجندى، ط. دار الاعتصام، القاهرة سنة ١٩٧٩م.

٦٥- فى الفكر الدينى الجاهلى، د.محمد إبراهيم الفيومى، ط. دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثالثة، سنة ١٩٨٣م.

٦٦- بين الفلسفة الإسلامية والفلسفة الحديثة، د. محمود حمدى زقزوق، ط.دار الزينى للطبع والنشر، القاهرة، سنة ١٩٧٠م.

٦٧- الفلسفة القرآنية، عباس محمود العقاد، ط. دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، (بدون تاريخ).

٦٨- الفيلسوف الشامل: مسار حياة وبنية عمل، د. حسن حنفى، بحث منشور ضمن الكتاب التذكارى للاحتفال بالدكتور عبد الرحمن بدوى، ط. الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، سنة ١٩٩٧م.

٦٩- قراءة فى كتاب حرية الاعتقاد فى القرآن الكريم، د. عبد الرحمن حللى، قراءة الدكتور حسن أحمد الخطاف، بحث منشور بمجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة الكويت العدد ٦٩ جمادى الآخرة ١٤٢٨هـ، يونيو ٢٠٠٧م.

٧٠- قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن، الشيخ نديم الجسر، ط.المكتب الإسلامى، بيروت، الطبعة الثالثة، سنة ١٩٦٩م.

٧١- قضايا العصر فى ضوء الإسلام، أنور الجندى، ط. مجمع البحوث الإسلامية، القاهرة، سنة ١٩٧١م.

٧٢- لماذا أسلمت؟ نصف قرن من الحقيقة، محمد عثمان الخشت، ط. مكتبة القرآن، القاهرة، سنة ١٩٨٦م.

٧٣- لماذا أنا ملحد؟، إسماعيل أدهم، رسالة منشورة بموقع:

.http/: www.ladeeni.net

٧٤- لمحات عن منهجية الحوار والتحدى الإعجازى للإسلام فى هذا العصر، د. رشدى فكار، ط.مكتبة وهبة، القاهرة، سنة ١٩٨٢م.
٧٥- مائة سؤال فى الإسلام، الشيخ محمد الغزالى، ط.دار ثابت، القاهرة، الطبعة الثانية، سنة ١٩٨٣م.
٧٦- محاكمة المرتدين، أحمد السيوفى، (بدون بيانات).
٧٧- محمد فريد وجدى، رائد التوفيق بين العلم والدين، أنور الجندى، ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة، سنة ١٩٧٤م.
٧٨- مختارات من إسلاميات، خالد محمد خالد، ط. دار أخبار اليوم، القاهرة، سنة ١٩٨٧م.
٧٩- مدخل إلى الفكر الفلسفى، جوزيف بوخينسكى، ترجمة د. محمود زقزوق ط. مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، سنة ١٩٧٣م.
٨٠- مدخل إلى الفلسفة، كارل ياسبرز، ترجمة د. محمد فتحى الشنيطى، ط.مكتبة القاهرة الحديثة، القاهرة، سنة ١٩٦٧م.
٨١- فى المذاهب المعاصرة، د. أحمد عبده حمودة الجمل، ط. دار الطباعة المحمدية، القاهرة، سنة ١٩٩١م.
٨٢- المسلمون بين المطرقة والسندان، د.سعد عبد العزيز مصلوح، ط. المختار الإسلامى، القاهرة، سنة ١٩٨٠م.
٨٣- من مصادر التاريخ الإسلامى، د.إسماعيل أدهم، ط. مطبعة صلاح الدين الكبرى، الإسكندرية، سنة ١٩٣٦م.
٨٤- مصر عرفت التوحيد قبل إخناتون، د. محمد رجب البيومى، مقال منشور بمجلة الأزهر، القاهرة، الجزء ٦، السنة ٧٥ جمادى الآخرة ١٤٢٣هـ - أغسطس ٢٠٠٢م.
٨٥- مطارحات فى الفكر المادى والفكر الدينى، الشيخ محمد مهدى شمس الدين، ط. المؤسسة الدولية للدراسات والنشر، بيروت، سنة ١٩٩٧م.
٨٦- المعبود الذى هوى: آراء فى الشيوعية، مجموعة من الكتاب، ط. دار الكتب الحديثة، القاهرة، (بدون تاريخ).

٨٧- المعجم الوجيز، طبعة خاصة بوزارة التربية والتعليم المصرية، ط. الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، القاهرة، سنة ٢٠٠٦م.
٨٨- مفهوم الاحتمال في فلسفة العلم المعاصرة، د.حسين علي، ط. دار المعارف، القاهرة، سنة ١٩٩٤م.
٨٩- مفهوم الحركة بين الفلسفة الإسلامية والماركسية د.أحمد الطيب ط.دار الطباعة المحمدية، القاهرة سنة ١٩٨٢م.
٩٠- المنقذ من الضلال، الإمام أبو حامد الغزالي، دراسة وتحقيق د. عبد الحليم محمود، ط.دار المعارف، القاهرة، الطبعة الخامسة، سنة ٢٠٠٣م.
٩١- في مواجهة الإلحاد المعاصر وعقائد العلم، د.يحي هاشم حسن فرغل، ط. مجمع البحوث الإسلامية، القاهرة، سنة ١٩٨٠م.
٩٢- نحن والغرب، د. يوسف القرضاوى، ط. دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة، سنة ٢٠٠٦م.
٩٣- نشأة الدين، سامي على النشار، ط. مكتبة الخانجي، القاهرة، سنة ١٩٤٨م.
٩٤- نهاية الإقدام في علم الكلام، الإمام الشهرستاني، حرره وصححه ألفرد جيوم (بدون بيانات).
٩٥- نهاية الشيوعية، مجموعة من الكتاب، ترجمة وائل غالى، ط. الهيئة المصريةالعامة للكتاب، القاهرة، سنة ٢٠٠٦م.
٩٦- هذا هو علم البيولوجيا ، إرنست ماير، ترجمة د.عفيفى محمود عفيفى، ط. عالم المعرفة، الكويت، العدد ٢٧٧ يناير ٢٠٠٢م.
٩٧- هل الله موجود أم لا؟، شهاب الدمشقى، مقال منشور على الشبكة الدولية للمعلومات، موقع اللادينيين العرب.
٩٨- وجود الله تعالى بين الفطرة والدليل د. محمد عبد التواب السيد ط.دار الطباعة المحمدية، القاهرة سنة ١٩٩٩م
٩٩- وهم التقابل بين العلم والدين، د.طه الدسوقى حبيش، بحث منشور بحولية كلية أصول الدين، القاهرة، جامعة الأزهر العدد العاشر سنة ١٩٩٣م.

الملاحـــــق

وتشتمل على:

١- النص الكامل لرسالة "لماذا أنا ملحد؟ "

المصدر: موقع http://www.ladeeni.net

٢- صورة شخصية للملحد

المصدر: الأعلام للزركلى ١/ ٢١٠

- توقيع الملحد

المصدر: غلاف رسالته: "من مصادر التاريخ الإسلامى"

٣- صورة غلاف رسالة "لماذا أنا ملحد ؟ "

المصدر: موقع http:// www.kotobarabia.com

٤- صورة لمقال بجريدة الأهرام يفيد إعادة توزيع رسالة "لمـــاذا أنـــا ملحد؟" بالقاهرة فى سنة ٢٠٠٧م.

٥- صورة للصفحة الرئيسية لموقع "الملحدون العرب".

ملحق رقم (١)

النص الكامل

لرسالة "لماذا أنا ملحد ؟"

كتبت على أثر مطالعة "عقيدة الألوهية" للدكتور أحمد زكى أبو شادى

لما جهلت مــن الطبيعــة أمرهــا	وأقمت نفسك فــى مقــام معلــل
أثبــت ربــا تبتغــى حــلاً بــه	للمشكلات فكــان أكبــر مشــكل

توطئـــــة:

الواقع أننى درجت على تربية دينية لم تكن أقوم طريق لغــرس العقيــدة الدينية فى نفسى، فقد كان أبى من المتعصبين للإسلام والمسلمين، وأمى مسيحية بروتستانتية ذات ميل لحرية الفكر والتفكير، ولا عجب فى ذلك فقد كانت كريمة البروفيسور وانتهوف الشهير، ولكن سوء حظى جعلها تتوفى وأنا فى الثانية من سنى حياتى، فعشت أيام طفولتى حتى أواخر الحرب العظمى مع شــقيقتىّ فــى الآستانة، وكانتا تلقنانى تعاليم المسيحية وتسيران بى كل يوم أحد إلى الكنيسة،أما أبى فقد انشغل بالحرب وكان متنقلا بين ميادينها فلم أعرفه أو أتعرف عليــه إلا بعد أن وضعت الحرب أوزارها، ودخل الحلفاء الآستانة، غير أن بعــد والــدى عنى لم يكن ليمنعه عن فرض سيطرته على من الوجهة الدينية، فقد كلــف زوج عمتى وهو أحد الشرفاء العرب أن يقوم بتعليمى من الوجهة الدينية؛ فكان يأخذنى لصلاة الجمعة ويجعلنى أصوم رمضان وأقوم بصلاة التراويح، وكان هذا كلــه يثقل كاهلى كطفل لم يشتد عوده بعد، فضلا عن تحفيظى القرآن، والواقع أنــى حفظت القرآن وجودته وأنا ابن العاشرة، غير أنى خرجت ساخطا على القــرآن لأنه كلفنى جهدا كبيرا كنت فى حاجة إلى صرفه إلى ما هو أحب إلــى نفســى، وكان ذلك من أسباب التمهيد لثورة نفسية على الإسلام وتعاليمه، ولكنى كنت أجد من المسيحية غير ذلك، فقد كانت شقيقتاى، وقد نالتا قسطا كبيرا من التعليم فــى

كلية الأمريكان بالآستانة لا تثقلان على بالتعليم الدينى المسيحي وكانتا قد درجتا على اعتبار أن كل ما تحتويه التوراة والإنجيل ليس صحيحا، وكانتا تسخران من المعجزات، ويوم القيامة والحساب، وكان لهذا كله أثر فى نفسيتى.

كانت مكتبة والدى مشحونة بآلاف الكتب وكان محرما علــى الخــروج والاختلاط مع الأطفال الذين هم من سنى، ولقد عانيت أثر هذا التحريم فى فردية تبعدنى عن الجماعة فيما بعد، ولم يكن فى مستطاعى الخروج إلا مع شقيقتى وقد ألفت هذه الحياة وكنت أحبهما حبا جما فنقضى وقتنا معا نطالع ونقرأ، فطالعــت وأنا ابن الثامنة مؤلفات عبد الحق حامد وحفظت الكثير من شعره، وكنت كلفــا بالقصص الأدبية فكنت أتلو لبلزاك وجى دى موباسان وهيغــو مــن الغــربيين آثارهم، ولحسين رحمى الروائي الكبير التركى المشهور قصصه وأتى والــدى إلى الآستانة وقد وضعت الحرب أوزارها، ودخل الحلفاء الآستانة، ولكن لم يبق كثيرا حيث غادرها مع مصطفى كمال إلى الأناضول ليبدأ مع زعماء الحركــة الاستقلالية حركتهم. وظللت أربع سنوات من ســنة ١٩١٩ إلــى ١٩٢٣ فــى الآستانة قابعا أتعلم الألمانية والتركية على يد شقيقتى والعربية علــى يــد زوج عمتى، وفى هذه الفترة قرأت لدارون أصل الأنواع وأصل الإنسان وخرجت من قراءتهما مؤمنا بالتطور.

وقرأت مباحث هكسلى وهيكل والسير ليل وبيجهوث وأنا لم أتجاوز الثالثة عشرة من سنى حياتى، وانكببت أقرأ فى هذه الفترة لديكارت وهــوبس وهيــوم وكانت ولكنى لم أكن أفهم كل ما أقرؤه لهم، وخرجت من هــذه الفتــرة نابــذا نظرية الإرادة الحرة، وكان لسبينوزا وآرنست هيكل الأثر الأكبر فى ذلك ،ثــم نبذت عقيدة الخلود.

غير أن خط دراستى توقف برجوع والدى من الآستانة ونزوحه إلى مصر واصطحابه إياى. وهنالك فى الإسكندرية خطوت أيام مراهقتى، ولكن كان أبى لا يعترف لى بحق تفكيرى ووضع أساس عقيدتى المستقلة، فكــان يفــرض علــى الإسلام والقيام بشعائره فرضا، وأذكر يوما أنى ثرت على هذه الحالة وامتنعــت

عن الصلاة وقلت له: إنى لست بمؤمن، أنا داروني أؤمن بالنشـوء والارتقـاء، فكان جوابه على ذلك أن أرسلنى إلى القاهرة وألحقنى بمدرسة داخلية ليقطع على أسباب المطالعة، ولكنى تحايلت على ذلك بأنى كنت أتـردد علـى دار الكتـب المصرية وأطالع ما يقع تحت يدى من المؤلفات التركية والألمانية يومى الخميس والجمعة، وهما من أيام العطلة المدرسية وكنت أشعر وأنا فى المدرسة أنى فـى جو أحط منى بكثير. نعم لم تكن سنى تتجاوز الرابعة عشر ولكن كانت معلوماتى فى الرياضيات والعلوم والتاريخ تؤهلنى لأن أكون فى أعلى فصـول المـدارس الثانوية، ولكن عجزى فى العربية والإنجليزية كان يقعد بى عن ذلك.

وفى سنة ١٩٢٧ غادرت مصر بعد أن تلقيت الجانب الأكبر من التعلـيم الإعدادى فيها على يد مدرسين خصوصيين ونزلت تركيا والتحقت بعدها بمـدة بالجامعة. وهنالك للمرة الأولى وجدت أناسـا يمكننـى أن أشـاركهم تفكيـرهم ويشاركوننى. فى الآستانة درست الرياضيات وبقيت كذلك ثلاث سنوات وفى هذه الفترة أسست (جماعة نشر الإلحاد) بتركيا وكانت لنا مطبوعات صغيرة كل منها فى ٦٤ صفحة أذكر منها:

الرسالة السابعة: الفرويديزم،

الرسالة العاشرة: ماهية الدين،

الرسالة الحادية عشر: قصة تطور الدين ونشأته،

الرسالة الثانية عشر: العقائد،

الرسالة الثالثة عشر: قصة تطور فكرة الله،

الرسالة الرابعة عشر: فكرة الخلود،

وكان يحرر هذه الرسائل أعضاء الجماعة وهم طلبة فى جامعة الآسـتانة تحت إرشاد أحمد بك زكريا أستاذ الرياضيات فى الجامعة والسيدة زوجته.

وقد وصلت الجماعة فى ظرف مدة قصيرة للقمة فكان فى عضويتها ٨٠٠ طالب من طلبة المدارس العليا وأكثر من ٢٠٠ من طلبة المـدارس الثانويـة- الإعدادية، وبعد هذا فكرنا فى الاتصال بجمعية نشر الإلحـاد الأمريكيـة التـى

يديرها الأستاذ تشارلز سمث، وكان نتيجة ذلك انضمامنا له وتحويل اسم جماعتنا إلى (المجمع الشرقي لنشر الإلحاد).

وكان صديقي البحاثة إسماعيل مظهر في ذلك الوقت يصدر مجلة "العصور" في مصر، وكانت تمثل حركة معتدلة في نشر حرية الفكر والتفكير والدعوة للإلحاد. فحاولنا أن نعمل على تأسيس جماعة تتبع جماعتنا في مصر وأخرى في لبنان واتصلنا بالأستاذ عصام الدين حفني ناصف في الإسكندرية وأحد الأساتذة في جامعة بيروت ولكن فشلت الحركة!

وغادرت تركيا في بعثة لروسيا سنة ١٩٣١ وظللت إلى عام ١٩٣٤ هنالك أدرس الرياضيات وبجانبها الطبيعيات النظرية. وكان سبب انصرافي للرياضيات نتيجة ميل طبيعي لي حتى لقد فرغت من دراسة هندسة إقليدس وأنا ابن الثانية عشر، وقرأت لبوانكاريه وكلاين ولوباجفسكي مؤلفاتهم وأنا ابن الرابعة عشر، وكنت كثير الشك والتساؤل فلما بدأت بهندسة إقليدس وجدته يبدأ من الأوليات، وصدم اعتقادي في قدسية الرياضيات وقتئذ فشككت في أوليات الرياضيات منكبا على دراسة هوبس ولوك وبركلي وهيوم وكان الأخير أقربهم إلى نفسي. وحاول الكثيرون إقناعي بأن أكمل دراستي للرياضة، ولكن حدث بعد ذلك تحول لا أعرف كنهه لليوم. فالتهمت المعلومات الرياضية كلها فدرست الحساب والجبر والهندسة بضروبها وحساب الدوال والتربيعات ولكن الشك لم يغادرني، فسلمت جدلا بصحة أوليات الرياضة ودرست، وما انتهيت من دراستي حتى عنيت بأصول الرياضة، وكان هذا الموضوع سبب نوال درجة الدكتوراه في الرياضيات البحتة من جامعة موسكو سنة ١٩٣٣، وفي نفس السنة نجحت في أن أنال العلوم وفلسفتها إجازة الدكتوراه لرسالة جديدة عن "الميكانيكا الجديدة التي وضعتها مستندا على حركة الغازات وحسابات الاحتمال "وكانت رسالة في الطبيعيات النظرية.

وخرجت من كل بحثي بأن الحقيقة اعتبارية محضة وأن مبادئ الرياضيات اعتبارات محضة. وكان لجهدي في هذا الموضوع نهاية إذ ضمنت النتائج التي

انتهيت إليها بكتابي "الرياضيات والفيزيقا" الذى وضعته بالروسية فى مجلدين مع مقدمة مسهبة فى الألمانية. وكانت نتيجة هذه الحياة أنى خرجت عن الأديان وتخليت عن كل المعتقدات وآمنت بالعلم وحده وبالمنطق العلمي، ولشد ما كانت دهشتى وعجبى أنى وجدت نفسى أسعد حالا وأكثر اطمئنانا من حالتى حينما كنت أغالب نفسى للاحتفاظ بمعتقد دينى.

وقد مكن ذلك الاعتقاد فى نفسى الأوساط الجامعية التى اتصلت بها إذ درست مؤقتا فكرتى فى دروس الرياضيات بجامعة موسكو سنة ١٩٣٤.

إن الأسباب التى دعتنى للتخلى عن الإيمان بالله كثيرة منها ما هو علمى بحت ومنها ما هو فلسفى صرف ومنها ما هو بين بين، ومنها ما يرجع لبيئتى وظروفى، ومنها ما يرجع لأسباب سيكلوجية. وليس من شأنى فى هذا البحث أن أستفيض فى ذكر هذه الأسباب، فقد شرعت منذ وقت أضع كتابا عن عقيدتى الدينية والفلسفية ولكن غايتى هنا أن أكتفى بذكر السبب العلمى الذى دعانى للتخلى عن فكرة "الله" وإن كان هذا لا يمنعنى من أعود فى فرصة أخرى (إذا سنحت لى) لبقية الأسباب.

وقبل أن أعرض الأسباب لابد لى من الاستطراد لموضوع إلحادى، فأنا ملحد ونفسى ساكنة لهذا الإلحاد ومرتاحة إليه، فأنا لا أفترق من هذه الناحية عن المؤمن المتصوف فى إيمانه. نعم لقد كان إلحادى بداءة ذى بدء مجرد فكرة تساورنى ومع الزمن خضعت لها مشاعرى فاستولت عليها وانتهت من كونها فكرة إلى كونها عقيدة. ولى أن أتساءل: ما معنى الإلحاد؟

يجيبك لودفيج بخنر زعيم ملاحدة القرن التاسع عشر:

" الإلحاد هو الجحود بالله، وعدم الإيمان بالخلود والإرادة الحرة".

والواقع أن هذا التعريف سلبى محض، ومن هنا لا أجد بدا من رفضه. والتعريف الذى أستصوبه وأراه يعبر عن عقيدتى كملحد هو:

"الإلحاد هو الإيمان بأن سبب الكون يتضمنه الكون فى ذاته وأن ثمة لا شئ وراء هذا العالم".

ومن مزايا هذا التعريف أن شقه الأول إيجابي محض، بينما لو أخذت وجهته السلبية لقام دليلا على عدم وجود الله، وشقه الثانى سلبى يتضمن كل ما في تعريف بخنر من معانى.

يقول عمانوئيل كانت (١٧٢٤-١٨٠٤):

" إنه لا دليل عقلى أو علمى على وجود الله" و " أنه ليس هنالك من دليل عقلى أو علمى على عدم وجود الله".

وهذا القول صادر من أعظم فلاسفة العصور الحديثة وواضع الفلسفة الانتقادية يتابعه فيه جمهرة الفلاسفة. وقول عمانوئيل كانت لا يخرج عن نفس ما قاله لوقريتوس الشاعر اللاتينى منذ ألفى سنة، ولهذا السبب وحده تقع على كثيرين من صفوف المفكرين والمتنورين بل الفلاسفة من اللاأدريين، وهربرت سبنسر الفيلسوف الإنجليزى الكبير وتوماس هكسلى البيولوجي والمشرح الإنجليزى المعروف قد كانا لا أدريين. ولكن هل عدم قيام الأدلة على عدم وجود الله مما يدفع المرء للاأدرية؟

الواقع الذى ألمسه أن فكرة الله فكرة أولية، وقد أصبحت من مستلزمات الجماعات منذ ألفى سنة. ومن هنا يمكننا بكل اطمئنان أن نقول: إن مقام فكرة الله الفلسفية أو مكانها فى عالم الفكر الإنسانى لا يرجع لما فيها من عناصر القوة الإقناعية الفلسفية وإنما يعود لحالة يسميها علماء النفس التبرير. ومن هنا فإنك لا تجد لكل الأدلة التى تقام لأجل إثبات السبب الأول قيمة علمية أو عقلية.

ونحن نعلم مع رجال الأديان والعقائد أن أصل فكرة الله تطورت عن حالات بدائية، وأنها شقت طريقها لعالم الفكر من حالات وهم وخوف وجهل بأسباب الأشياء الطبيعية ومعرفتنا بأصل فكرة الله تذهب بالقدسية التي كنا نخلعها عليها.

إن العالم الخارجى (عالم الحادثات) يخضع لقوانين الاحتمال. فالسنة الطبيعية لا تخرج عن كونها اشتمال القيمة التقديرية التى يخلص بها الباحث من حادثة على ما يماثلها من حوادث. والسببية العلمية لا تخرج فى صميمها عن أنها وصف لسلوك الحوداث وصلاتها بعضها ببعض. وقد نجحنا فى ساحة

الفيزيقا (الطبيعيات) فى أن نثبت أن (أ) إذا كانت نتيجة للسبب. فإن معنى ذلك أن هناك علاقة بين الحادثتين (أ) و (ب). ويحتمل أن تحدث هذه العلاقة بين (أ) و(ج) وبينها وبين (د) و (هـ) فكأنه يحتمل أن تكون نتيجة الحادثة (ب) وقتا وللحادثة (ج) وقتا آخر وللحادثة (د) حينا وللحادثة (هـ) حينا آخر.

والذى نخرج به من ذلك أن العلاقة بين ما نطلق عليه اصطلاح السبب وبين ما نطلق عليه اصطلاح النتيجة تخضع لسنن الاحتمال المحضة التى هى أساس الفكر العلمى ونحن نعلم أن قرارة النظر الفيزيقى الحديث هو الوجهة الاحتمالية المحضة، وليس لى أن أطيل فى هذه النقطة وإنما أحيل القارئ إلى مذكرتى العلمية لمعهد الطبيعيات الألمانى والمرسلة فى ١٤ سبتمبر سنة ١٩٣٤ والتى تليت فى اجتماع ١٧ سبتمبر ونشرت فى أعمال المعهد لشهر أكتوبر عن المادة وبنائها الكهربائى.

وقد لخصت جانباً من مقدمتها بجريدة "البصير" عدد ١٢١٢٠ "المؤرخ الأربعاء ٢١ يوليه سنة ١٩٣٧". وفى هذه المذكرة أثبت أن الاحتمال هو قرارة النظر العلمى للذرة فإذا كان كل ما فى العالم يخضع لقانون الاحتمال فإنى أمضى بهذا الرأى إلى نهايته وأقرر أن العالم يخضع لقانون الصدفة.

ولكن ما معنى الصدفة والتصادف؟

يقول هنرى بوانكاريه فى أول الباب الرابع من كتابه:

"Scienceet Methode"

فى صدد كلامه عن الصدفة والتصادف:

" إن الصدفة تخفى جهلنا بالأسباب، والركون للمصادفة اعتراف بالقصورعن تعرف هذه الأسباب".

والواقع أن كل العلماء يتفقون مع بوانكاريه فى اعتقاده – انظر لصديقنا البحاثة إسماعيل مظهر" ملقى السبيل فى مذهب النشوء والارتقاء"، ص١٦٣ – ١٦٧ منذ تفتح العقل الإنسانى. غير أنى من وجهة رياضية أجد للصدفة معنى غير هذا، معنى دقيقا بث للمرة الأولى فى تاريخ الفكر الإنسانى فى كتابى:

Mathematik und physic ج٢ فصل ٧.

فى صدد الكلام عن الصدفة والتصادف وهذا المعنى لا تـؤتينى الألفـاظ العادية للتعبير عنه لأن هذه الألفاظ ارتبطت بمفهوم السـبب والنتيجـة، لهـذا سنحاول أن نحدد المعنى عن طريق ضرب الأمثلة.

لنفرض أن أمامنا زهر النرد ونحن جلوس حول المائدة، ومعلوم أن لكـل زهر ستة أوجه، فلنرمز لكل زهر بالوجه الآتى فى كل من الزهرين:

يك : دو : ثه : جهار : بنج : شيش

ل١: ل٢ : ل٣ : ل٤ : ل٥ : ل٦ فى زهر النرد الأول

ك١: ك٢ : ك٣ : ك٤ : ك٥ : ك٦ فى زهر النرد الثانى

وبما أن كل واحد من هذه الأوجه محتمل مجيئه إذا رمينا زهر النرد، فإن مبلغ الاحتمال لهذه الأوجه يحدد معني الصدفة التى نبحثها.

إن نسبة احتمال هذه الأوجه تابعة لحالة اللاعب بزهر النرد ولكن لنـا أن نتساءل : ما نسبة احتمال هذه الأوجه تحت نفس الشرائط، فمثلا لو فرضنا أنـه فى المرة "ن" كانت النتيجة هى:

ل٦× ك٦= شيش× شيش= دش

فما أوجه مجئ الدش فى المرة (ن+ س)؟

إذا فرضنا أن الحالة الاجتماعية هى "ح" كان لنا أن نخلص من ذلك بـأن اللاعب إذا رمى زهر النرد (ن=س) من المرات، وكان مجموعها مثلا ٣٦ مرة فاحتمال مجئ الدش هنا فى الواقع= ا/ (ن+س).

وبما أن ق+س= ٣٦ مرة فكأن النسبة الاحتمالية هى ٣٦/١ فإذا أتى الدش مرة من ٣٦ مرة لما عد ذلك غريبا؛ لأنه محتمل الوقوع، ولكن ليس معنى ذلك أن الدش لابد من مجيئه؛ لأن هذا يدخل فى باب آخر قد يكون باب الرجم .

وكلما عظم مقدار "س" فى المعادلة (ن+س) تحدد مقـدار "ح" أى النسـبة الاحتمالية، وذلك خضوعا لقانون الأعداد العظمى فى حسابات الاحتمال.

ومعنى ذلك أن قانون الصدفة يسرى فى المقادير الكبيرة، مثـال ذلـك أن عملية بتر الزائدة الدودية نسبة نجاحها ٩٥% أعنى أن ٩٥ حالة تنجح من مائة

حالة، فلو فرضنا أن مائة مريض دخلوا أحد المستشفيات لإجراء هذه العملية فإن الجراح يكون مطمئنا إلى أنه سيخرج بنحو ٩٥ حالة من هذه العمليات بنجاح فإذا ما سألته: يا دكتور ما نسبة احتمال النجاح فى هذه العملية فإنه يجيبك ٩٥ فى المائة، ويكون مطمئنا لجوابه ، ولكنك إذا سألته: يا دكتور ما نسبة احتمال النجاح في العملية التى ستجريها لفلان؟ فإنه يصمت ولا يجيبك، لأنه يعجز عن معرفة النسبة الاحتمالية.

هذا المثال يوضح معنى القانون فى أنها تتصل بالمقادير الكبيرة، والكثرة العددية، ويكون مفهوم سنة الصدفة وجه الاحتمال فى الحدوث، ويكون السبب والنتيجة من حيث هما مظهران للصلة بين حادثتين فى النطاق الخاضع لقانون العدد الأعظم الصدفى حالة إمكان محض.

ومعنى هذا أن السببية صلة إمكان بين شيئين يخضعان لقانون العدد الأعظم الصدفى، فمثلا لو فرضنا أن الدش أتى مرة واحدة من ٣٦ مرة أعنى بنسبة ٣٦: ١ مرة ففى الواقع نحن نكون قد كشفنا عن صلة إمكان بين زهر النرد ومجئ الدش، وهذا قانون لا يختلف عن القوانين الطبيعية فى شئ.

إذا يمكننا أن نقول: إن الصدفة التى تخضع العالم لقانون عددها الأعظم تعطى حالات إمكان، ولما كان العالم لا يخرج عن مجموعة من الحوادث ينتظم بعضها مع بعض فى وحدات تتداخل وتتناسق ثم تنحل وتتباعد لتعود من جديد لتنتظم..، وهكذا خاضعة فى حركتها هذه لحالات الإمكان التى يحددها القانون الأعظم الصدفى.

ومثل العالم فى ذلك مثل مطبعة فيها من كل نوع من حروف الأبجدية مليون حرف وقد أخذت هذه الحروف فى الاصطدام فتجتمع وتنتظم ثم تتباعد وتنحل هكذا فى دورة لا نهائية، فلا شك أنه فى دورة من هذه الدورات اللانهائية لابد أن يخرج هذا المقال الذى تلوته الآن، كما أنه فى دورة أخرى من دورات اللانهائية لابد أن يخرج كتاب "أصل الأنواع"، وكذا "القرآن" مجموعا منضدا مصححا من نفسه.

ويمكننا إذا أن نتصور أن جميع المؤلفات التى وضعت ستأخذ دورها فـى الظهور خاضعة لحالات احتمال وإمكان فى اللانهائية: فإذا اعتبرنـا "ح" رمـزا لحالة الاحتمال، و "ص" رمزا للنهائية كانت المعادلة الدالة على هذه الحالات:

ح= ص

وعالمنا لا يخرج عن كونه كتابا من هذه الكتـب، لـه وحدتـه ونظامـه وتنضيده إلا أنه تابع لقانون الصدفة الشاملة".

يقول ألبرت آينشتاين صاحب نظرية النسبية فى بحث قديم له:

" مثلنا إزاء العالم مثل رجل أتى بكتاب قيم لا يعرف عنه شيئا، فلما أخـذ فى مطالعته وتدرج من ذلك لدرسه وبان له ما فيه من أوجه التناسـق الفكـرى شعر بأن وراء كلمات الكتاب شيئا غامضا لا يصل لكنهه. هذا الشئ الغـامض الذى عجز عن الوصول إليه هو عقل مؤلفه. فإذا ما ترقى به التفكير عـرف أن هذه الآثار نتيجة لعقل إنسان عبقرى أبدعه. كذلك نحن إزاء العالم، فنحن نشـعر بأن وراء نظامه شيئا غامضا لا تصل إلى إدراكه عقولنا، هذا الشئ هو الله".

ويقول السير جيمس جينز الفلكى الإنجليزى الشهير:

"إن صيغة المعادلة التى توحد الكون هى الحد الـذى تشـترك فيـه كـل الموجودات. ولما كانت الرياضيات منسجمة مع طبيعة الكون كانت لنابه. ولمـا كانت الرياضيات تفسر تصرفات الحوادث التى تقع فى الكون وتربطها فى وحدة عقلية فهذا التفسير والربط لا يحمل إلا على طبيعة الأشياء الرياضية، ومن أجل هذا لا مندوحة لنا أن نبحث عن عقل رياضى يتقن لغة الرياضة يرجع له هـذا الكون، هذا العقل الرياضى الذى نلمس آثاره فى الكون هو الله".

وأنت ترى أن كليهما "والأول من أساطين الرياضيات فى العالم والثـانى فلكى ورياضى من القدر الأول" عجز عن تصور حالة الاحتمال الخاضعة لقانون الصدفة الشاملة والتى يتبع دستورها العالم، لا لشئ إلا لتغلـب فكـرة السـبب والنتيجة عليهما.

الواقع أن آينشتين فى مثاله انتهى إلى وجود شئ غامض وراء نظام الكتاب عبر عنه بعقل صاحبه (مؤلفه). والوقع أن هذا احتمال محض، لأنه يصح أن يكون خاضعا لحالة أخرى ونتيجة لغير العقل. ومثلنا عن المطبعة وحروفها وإمكان خروج الكتب خضوعا لقانون الصدفة الشامل يوضح هذه الحالة. أما ما يقول السير جيمس جينز فرغم أنه أخطأ فى اعتباره الرياضة طبيعة الأشياء لأن نجاح الوجهة الرياضية فى ربط الحوادث وتفسير تصرفاتها لا يحمل على أن طبيعة الأشياء رياضية بل يدل على أن هنالك قاعدة معقولة تصل بينه وبين طبيعة الأشياء.

فالأشياء هى الكائن الواقع، والرياضيات ربط ما هو واقع فى نظام ذهنى على قاعدة العلاقة والوحدة وبعبارة أخرى أن الرياضيات نظام ما هو ممكن والكون نظام ما هو واقع، والواقع يتضمنه الممكن. ولذلك فالواقع حالة خصوصية منه. ومن هنا يتضح أنه لا غرابة فى انطباق الرياضيات على الكون الذى نألفه، بل كل الغرابة فى عدم انطباقها لأن لكل كون رياضياته المخصوصة، فكون من الأكوان مضبوط بالرياضيات شرط ضرورى لكونه كونا.

من هنا يتضح أن السير جينز انساق تحت فكرة السبب والنتيجة كما انساق آينشتين إلى التماس الناحية الرياضية فى العالم. وهذا جعلهما يبحثان عن عقل رياضى وراء هذا العالم وهذا خطأ لأن العالم إن كان نظام ما هو واقع خاضعا لنظام ما هو ممكن فهو حالة احتمال من عدة حالات والذى يحدد احتماله قانون الصدفة الشامل لا السبب الأول الشامل.

خاتمـــــة

إن الصعوبة التى أرى الكثيرين يواجهوننى بها حينما أدعوهم إلى النظـــر إلى العالم مستقلا عن صلة السبب والنتيجة، وخاضعا لقانون الصدفة الشامل ترد إلى قسمين:

الأول: لأن مفهوم هذا الكلام رياضى صرف ومن الصعب التعبير فـــى غيـــر أسلوبه الرياضى، وليس كل إنسان رياضيا عنده القدرة على السير فـــى البرهان الرياضى.

الثانى: أنها تعطى العالم مفهوما جديدا وتجعلنا ننظر له نظرة جديدة غير التـــى ألفناها، ومن هنا جاءت صعوبة تصور مفهوماتها لأن التغيـــر الحـــادث أساسى يتناول أسس التصور نفسه.

ولهذه الأسباب وحدها كانت الصعوبة قائمة أمام هذه النظرة الجديدة ومانعة الكثيرين من الإيمان بها.

أما أنا شخصيا فلا أجد هذه الصعوبة إلا شكلية، والزمن وحده قادر على إزالتها. ومن هنا لا أجد بدا من الثبات على عقيدتى العلمية والدعوة إلى نظريتى القائمة على قانون الصدفة الشامل الذى يعتبر فى الوقت نفسه أكبر ضربة للذين يؤمنون بوجود الله.

http://www. ladeeni.net
http://www.middleeasttransparent.com

ملحق رقم (٢)



صورة شخصية للملحد



توقيـع الملحـد

ملحق رقم (٣)

(صورة الغلاف على شبكة الانترنت)

كتب ممنوعة



لماذا أنا ملحد
تأليف: إسماعيل أحمد أدهم
الناشر: ملكية عامة
السعر 5.00 EGP :
حجم الكتاب الالكترونى 439.21 KB:
صيغة الملف Adobe eBook Reader :

المعلومات الكاملة:

كتبت هذه الرسالة بعد مطالعة الكاتب للرسالة التى كتبها الشاعر أحمد زكى أبو شادى بعنوان "عقيدة الألوهية"، فلم تكن إذن دراسة معدة لبحث موضوع الإلحاد والعقيدة الدينية، فلا نتوقع رسالة مليئة بالبراهين والدلائل لإثبات وجهة نظر صاحبها، بل هى مجرد خواطر كتبت على إثر مطالعته رسالة أبو شادى، أو بالأحرى هى مزيج من الذكريات والانطباعات وفى جزء منها تعرض فقط للبرهان "العملى" أو "الرياضى".

"إن الأسباب التى دعتنى للتخلى عن الإيمان بالله كثيرة منها ما هو علمى بحت ومنها ما هو فلسفى صرف ومنها ما هو بين بين ومنها ما يرجع لبيئتى وظروفى ومنها ما يرجع لأسباب سيكولوجية ، وليس من شأنى فى هذا البحث أن أستفيض فى ذكر هذه الأسباب".

فلو شاء الكاتب أن يأتينا بدراسة وافية شاملة عن هذا الموضوع لفعل، وكان ينوى ذلك بالفعل كما قلنا سابقاً عندما كان ينوى تأليف كتاب عن عقيدته الدينية الفلسفية، لكن هذا لم يكن مقصد صاحب الرسالة.

ونستطيع أن نقسم الرسالة لجزأين، الجزء الأول منها يتكلم الكاتب عن بعض ذكرياته وأحداث حياته التى كان لها تأثير فى تكوين عقيدته، والجزء الثانى نرى فيه غلبة العقلية الرياضية التنمية على تفكيره ومحاولته البرهنة على دور المصادفة في تكوين العالم وكما نلاحظ شجاعة إسماعيل أدهم فى إبداء رأيه، نلاحظ أيضاً السلوك الحضارى لمن ردوا عليه أمثال محمد فريد وجدي وأبو شادي فكانوا إعفاء اللسان، ولم يطالبوا بمصادرة ما كتب أو محاكمته كما نرى الآن حين يبدي أحد المفكرين رأيا مخالفا.

كيفية الشراء – الناشرون – المؤلفون – الصفحة الرئيسية
اتصل بنا – موقعنا فى عيون الآخرين – نبذة عن الدار – مواقع مهمة

http://www.kotobarabia.com

ملحق رقم (٤)

(صورة لمقال بجريدة الأهرام يفيد إعادة توزيع رسالة الملحد بالقاهرة فى سنة ٢٠٠٧م)

الثلاثاء ١٢ يونيو ٢٠٠٧

رؤية

لماذا أنا ملحد؟

موقف بعض الكتاب والمثقفين من الموضوعات المتعلقة بالاسلام وطريقة معالجتها يطرح عديدا من التساؤلات حول الهدف الحقيقي مما يحدث فما هو مغزى الهجوم الإعلامى المكثف الذي يتعرض له الدكتور علي جمعة مفتي الديار المصرية بشكل لا يتناسب مع حجم الموضوع المنسوب إليه والذى كان مجرد إجابة عن سؤال ضمن عشرات الأسئلة الموجودة في أحد كتبه

وبغض النظر عن صحة أو خطأ هذه الإجابة فإن أحدا لم يكن ليشعر بها لولا طرحها من جانب البعض فى الإعلام ، وكأن كل قضايانا قد انتهت ولم يعد لدينا مشكلة سوى فحص وتمحيص موضوع بول الرسول عليه الصلاة والسلام وهو موضوع كان يكفى مناقشته فى الهيئات المتخصصة مثلما حدث فى مجمع البحوث الاسلامية.

والأمر نفسه بالنسبة لموضوع رضاع الكبير الذى تحدث عنه صاحبه عدة مرات من قبل ولكنه تحول فجأة الى قضية رأى عام عندما اختارته صحيفة الحزب الوطنى الحاكم ليكون "المانشيت" الرئيسى لها وكأنه إنجاز من إنجازات الحزب !.

لقد تضمن التراث الاسلامي كثيرا من الفتاوى الغريبة وسبق أن غير عديد من العلماء كثيرا من أقوالهم تبعا لتغير اجتهاداتهم بتأثر السن أو النضج أو الزمان أو المكان دون أن يتم تحويلهم الى مجالس تأديب أو لإجبارهم على الاعتذار أو إطلاق محاكم التفتيش الإعلامية ضدهم.

فى الوقت نفسه فهم بعض العلمانيون الجدد - عن جهل - العلمانية بشكل خاطئ وتصوروا أن الهجوم على أى رمز إسلامى يثبت علمانيتهم فتخصص بعضهم فى الهجوم على الحجاب واستهدف آخرون أى داعية اسلامى ناجح حتى لو كان مشهودا له بالاعتدال وانتهز بعض قدامى الماركسيين الفرصة لمحاولة تشويه الإسلام والتخلص من آثاره سواء بطلب إلغاء المادة الثانية من الدستور الخاصة بالشريعة الإسلامية أو باستغلال بعض المطبوعات التى يسيطرون عليها لنشر الأعمال التى تسيء للذات الإلهية، وتسخر من فكرة الدين.

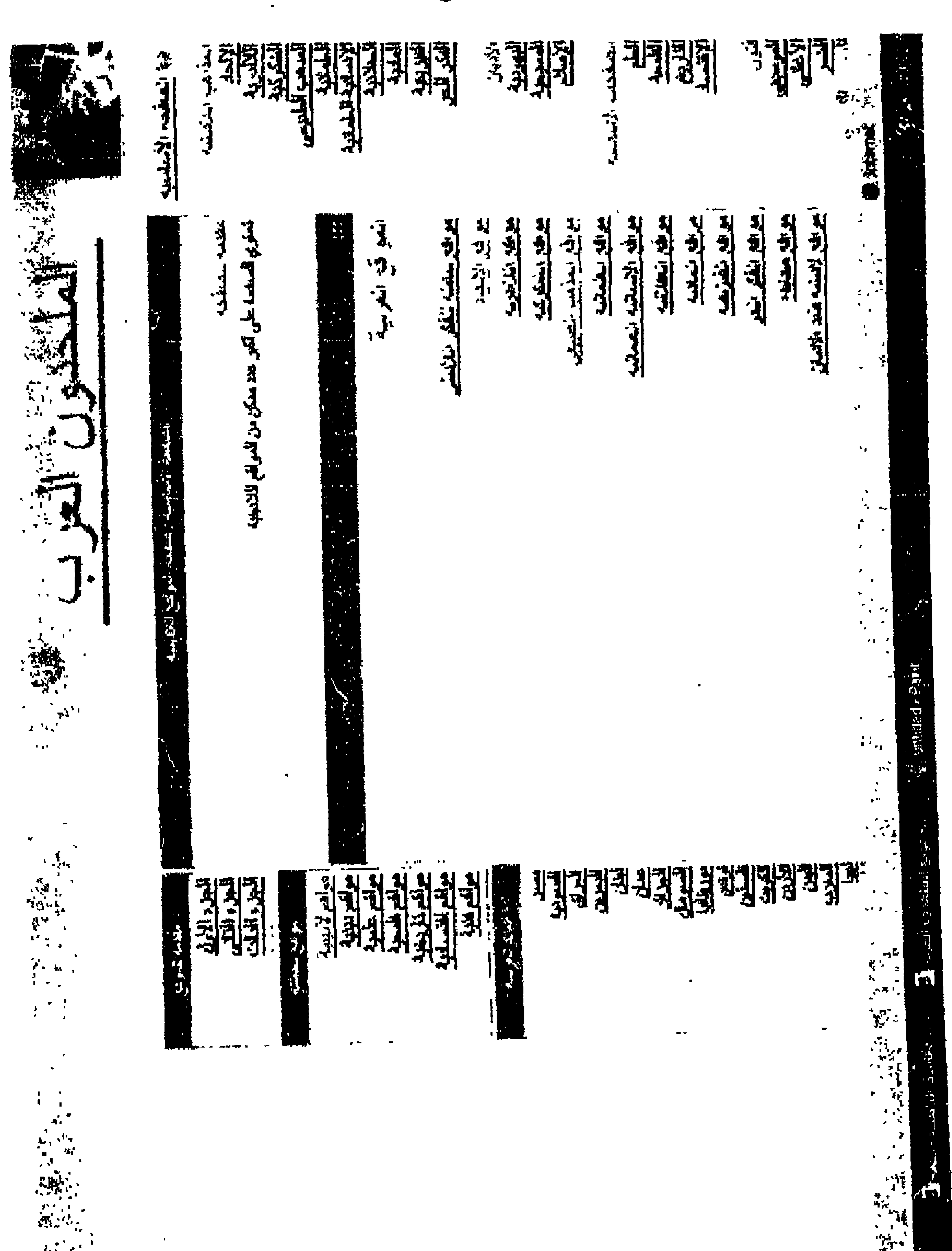
والغريب أن هؤلاء يحتفون الآن بإعادة تصوير كتيب قديم وتوزيعه على المريدين والاتباع باعتباره الدستور الذى سينقذ مصر وهو لا يزيد على ١٣ صفحة بعنوان «لماذا أنا ملحد» كتبها شخص مضطرب نفسيا يدعى إسماعيل أحمد أدهم عام ١٩٢٧ وانتحر بعدها بثلاث سنوات وأتمنى ألا يكون هذا مصيرهم.

فتحي محمود

fathimahmoud@hotmail.com

ملحق رقم (٥)

(صورة للصفحة الرئيسية لموقع الملحدون العرب)



الفهـــرس

رقم الإيداع بدار الكتب والوثائق القومية
٢٠٠٧/٢٧١٠٧